

مَوْسِمِ صَيْدِ الرِّقِّيقِ

الكتاب: موسم صيد الرقيق ، رواية
الكاتب: أحمد الملك
الطبعة: الأولى 2019م

رقم الإيداع: 2019/000



دار الريم للنشر والتوزيع
السودان - أمدرمان

alreempublishing@gmail.com

imadeldenali@yahoo.com

00249912914599 - 00249122992190

إدارة: عماد أبو مدين
التصميم: محمد الصادق الحاج

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إنّ دار الريم للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبير الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.



أحمد الملك

مَوْسِمَ صَيْدِ الرَّقِيقِ



2 0 1 9

إهداء

إلى شمسوس وتامر.

وإلى الصديق الفنّان: عمر دفع الله.

(1)

رأى بادي شقيقه إبراهيم في ضوء مصباح الزيت الباهت، تحيط به ظلال الأجساد التي يعكسها ضوء المصباح على جدران الغرفة، التي كانت تسبح في رائحة الموت وعبق رطوبة نهر النيل الذي تطل الغرفة الخائقة بنوافذها العالية عليه.

كان وجهه هادئاً ولم تبدُ عليه مظاهر الموت الذي لم يكن بالنسبة له حتى تلك اللحظة أكثر من حدث غامض، ارتبط في ذاكرته بعالم حكايات السحر والأساطير، التي سمعها في طفولته عن الموتى الذين يتجولون في القرية في أمسيات الشتاء، يبحثون عن الأشياء التي فقدوها في حياتهم الأولى ولم يتوفر لهم عندها الوقت أو الرغبة للبحث عنها، ويحاكون بأصواتهم الخشنة صوت رياح أمشير الباردة التي تتحول القرية خلالها إلى مرجل من الغبار، رسخت في ذهنه صور غريبة للموتى، تتغير فيها سحناتهم ويكتسبون مظهر أشخاص تغطي رؤوسهم ذرات الغبار، ويصدرون صوتاً شبيهاً بصوت طائر الهدهد حين يحط فوق جدران البيوت ويصدح متنبئاً بقرب هبوب العاصفة.

شعر فقط في تلك اللحظة أنّ شقيقه الذي احتفظ بهدوء وجهه، كأنه يغط في نوم عميق، لم يمت كما يقول الناس وكما يعلن عويل النساء والرجال في ذلك المساء الخائض الحرارة، الغارق في عبق رياحين النهر الذي بدأت مياهه تنحسر بعد موسم الفيضان.

ذهب مع الناس التي تقاطرت من كل مكان في أرجاء المملكة إلى المقبرة، كان عمه نائب الملك على رأس المشيعين.

مات إبراهيم وليّ العهد. تهامس بعض الناس في المقبرة، أنّ موت الأمير الشاب في غياب والده لم يكن صدفة قدرية. مجرد همسات ونظرات حائرة سرعان ما تبددت في زوبعة الغبار التي هبت فجأة وأغرقت فضاء القرية في دوامة ترايبية حملت معها عمائم الرجال إلى الفضاء.

في المساء كان بادي نائماً في بيت أمه الملحق بالقصر، في جناح الرقيق، كان يوم العزاء الأول قد انقضى، تقاطر الناس من كل الجهات، حتى امتلأت كل باحات أشجار اللبخ الضخمة حول القصر الواقع على نهر النيل. ورغم ذلك كان الناس يقولون أنّ الكثير من الناس لم يحضروا لأداء واجب العزاء مفضلين الحضور بعد وصول الملك من رحلة الحج. يبدو أنّ نائب الملك كان يعوّل على ألا يعود الملك المريض من رحلة الحج المضنية، لذلك تخلص من ولي العهد حتى لا تبقى أية عقبة أمام توليه العرش حين يموت الملك.

مات بالحمى، كان هذا ما يقوله الحرس الملكي وعمّال القصر للمعزين حسب تعليمات نائب الملك. قضى الأمير ثلاثة أيام محتضراً من الحمى، ذهب رسول على حصان قطع الصحاري وعبر بجانب قرى بعيدة منسية في عمق الصحراء، وجزر صغيرة تبدو مثل مراكب شراعية تائهة في عمق النيل، تزحف التماسيح في قيلولته شواطئها الغارقة في نبات ورد النيل، لاستقدام طبيب

اشتهر بسبب نجاحه في علاج عدد من المرضى بعد أن يتس ذويهم من إمكان علاجهم، لكن الطبيب حين وصل كان الأمير قد أسلم الروح. مات بالحمى، كان عمّال القصر يعلنون ذلك بدون مناسبة ربما لنفي الشائعة القوية أنّ الأمير الشاب مات مسموماً.

كان بادي نائماً يرى شقيقه وقد استعاد حياته وهما يستعدان للخروج لصيد السمك في نهر النيل. أيقظته والدته: يجب أن تهرب الآن، ستكون أنت التالي! هل نسيت أنّ والدك وعد بالاعتراف بك حين عودته وأنك ستكون نائماً لإبراهيم؟ سيقتلك عمك قبل وصول والدك! يجب أن تهرب ولا تعود إلا حين تسمع بعودة والدك.

استيقظ بادي فرعا: وإلى أين أهرب؟

خذ أحد خيول والدك، ألم يُعلّمك إبراهيم ركوب الخيل؟ انطلق جنوباً، يمكنك أن تجد عملاً في مزارع القطن وقصب السكر، أو في أحد الأسواق البعيدة. ابن خالتك نوري يعمل في الخرطوم يمكنه مساعدتك!

ماذا يفعل نوري في الخرطوم؟

لا أعرف! يقولون إنه يعمل جندياً في جيش الأتراك.

ولماذا ذهب إلى الخرطوم؟

لم يذهب، جاء الأتراك يطلبون الضرائب، كنت أنت مسافراً مع إبراهيم في رحلة صيد، مباشرة بعد سفر الملك إلى الحج، طلب نائب الملك من الأتراك العودة بعد عودة الملك من الحج لكنهم

رفضوا وطلبوا منه أن يدفع لهم وإلا سيستولون على كل شيء،
ويأخذون جميع من في القصر رقيقا، لم يستطع نائبه العثور على
المال والذهب الذي يقال أن الملك وضعه أمانة عند شخص غير
معروف، أعطاهم نائب الملك بعض المحاصيل، ذرة وتمر وأكمل
لهم الباقي من رقيق الملك!

ولماذا كذبت عليّ حين سألت عن نوري بعد عودتي من رحلة
الصيد، قلت لي إنه سافر لبحث عن الذهب في جبال فازوغلي!
كيف سيسافر وسيده الملك غير موجود؟ لقد خفنا أن تغضب
حين تعلم أن نائب الملك سلّمه إلى الأتراك!

سمعت إبراهيم يقول إن الملك ترك أموال الضريبة جاهزة
لتسليمها للأتراك قبل سفره!

قالت الأم: يقال أن جنود الملك جمعوا الضريبة من المزارعين
وتم وضعها في المخازن، وتسلم نائب الملك مفتاح المخزن قبل
سفر الملك لكنه تصرف في جزء من المخزون، يقال أنه صرف
المال في شراء الخمر وشراء امرأة حبشية بالغة الجمال تجيد الغناء
والرقص، اشتراها من جنود الأتراك بما يساوي وزنها ذهباً! ويقال
إنه يخفيها في بيته ويمنعها من الخروج حتى لا يراها الناس ويخبرون
الملك بأخبار تبذيره وليالي الرقص والمجون في بيته!

وهل صحيح أن جمعة وخير السيد والبلال ذهبوا شمالا لحصاد
التمر في مزارع الملك؟ أم أنهم بيعوا أيضا للأتراك؟
أعطاهم نائب الملك للأتراك!

شعر بادي بحزن مضاعف، مات إبراهيم، شقيقه وصديقه،
وباع نائب الملك نوري ابن خالته وصديقه، وباع أصدقائه جمعة
وخير السيد والبلال، لم يعد له هنا في «السّاب» من صديق أو
قريب سوى أمه. مع نوري وجمعة وخير السيد والبلال عاش
طفولته قبل أن يأخذه الملك ليعيش مع الأمير إبراهيم، كانوا
يقضون معظم وقتهم في نهر النيل، علّمهم سليمان العجوز أحد
نوتية مراكب الملك التي تنقل التمر وبقية المحاصيل الزراعية من
مزارع الملك في الجزر النائية، علّمهم السباحة، استطاع بادي وهو
لما يزل صبيا صغيرا عبور النهر إلى الضفة الأخرى، فيما بعد قام
بادي بتعليم شقيقه إبراهيم السباحة. لم يكن إبراهيم من هواة
السباحة، كان يحب الصيد ويحب الصحراء، تعلّم بادي منه كيفية
الصيد بواسطة السهام، وكيفية عمل مخبأ بجانب عيون الماء في
الصحراء، يقوم من داخله بصيد الغزلان باستخدام القوس،
وتعلّم منه أفضل الأوقات التي يرد فيها الصيد دائما عيون الماء.

أخبره إبراهيم في رحلتها الأخيرة: وعدني الملك ببندقية بعد
عودته من الحج! سيكون ذلك شيئا رائعا، ربما لن نحتاج لنصنع
مخبأ ونختبئ طوال ساعات انتظارا للصيد، يكفي أن نراقبه من
على البعد ونطلق النار على أفضل غزال وسط المجموعة!

قالت أمه: لا تضيع الوقت، لن يتركك، إما سيقنلك أو يقوم
ببيعك أنت أيضا قبل عودة الملك. خذ أحد خيول الملك واهرب
الآن! ولا تعد إلا حين تسمع بعودة الملك.

حين أعبر في القرى سيقولون هذا العبد سرق حصان سيده!

لست عبدا لأحد أنت ابن الملك والناس جميعا يعلمون ذلك.

لكن الملك لم يتزوجك؟ أنت تعيشين في جناح الرقيق!

دعني في جناح الرقيق، المهم أن تذهب أنت إلى القصر! أعلن الملك أنه سيعترف بك، ماذا تنتظر؟ هل تنتظر حتى يسقيك نائبه بقية السم الذي شربه إبراهيم.

وماذا أقول للزلال؟ سوف أترك الساب وأسافر بعيدا! كنا سنتزوج بعد حصاد التمر!

وهل هذا وقت زواج؟ أخوك الذي يحميك مات، ووالدك مسافر لا أحد يعلم إن كان سيعود أم لا، ونائب الملك هو عدوك الآن، هل تفكر في الزواج وجثة شقيقك لم تبرد بعد في قبره؟

كان المؤذن ينادي لصلاة العشاء وبدأ مئات المعزين في التجمع في المسجد، استعدادا لأداء الصلاة، حين انطلق بادي على حصانه بعيدا عن القرية. كان لا يزال شابا صغيرا لكنه كان يقود الحصان وكأنه يفعل ذلك منذ عشرات السنين.

لم يلاحظ أحد في البداية غياب بادي، أمر نائب الملك بعد صلاة العشاء بإحضار عدد من الخراف من زرائب الملك وذبحها لإطعام الضيوف وجبة العشاء. لم يكن هناك أحد من عمال القصر جاهزا للقيام بالعمل في تلك الساعة فأمر نائب الملك بإحضار بادي لكن أحدا لم يعثر له على أثر.

لم يهتم نائب الملك في البداية ولم يفكر في احتمال أن يكون بادي هرب بحثا عن النجاة من مصير وليّ العهد، قال: لا بدّ أنه استغل

انشغال الناس بالمأتم وذهب لشراب الخمر في أحد بيوت الشراب!
انقضت أيام المأتم ولم يظهر بادي. حسب أوامر نائب الملك
قام الجنود بالبحث في كل مكان، بحثوا في الأسواق البعيدة على
تخوم المملكة حيث تزدهر تجارة الرقيق وتجارة البغاء، وحيث
رأى أحد الرحالة الأجانب فتاة حبشية بالغة الجمال تُباع بوزنها
ذهبا، وحيث الذكريات تتحول أيضا إلى رماد مثل كل شيء بسبب
القيظ على حافة هذه الصحراء، التي لا يعرف لها أحد حدودا أو
نهاية، الصحراء التي عبر فيها قبل سنوات، مثل إعصار استوائي،
جنود محمد بك الدفتردار صهر إسماعيل باشا الذي قتله الملك
نمر، وحولوا كل شيء في طريقهم إلى هشيم، الناس، الحيوانات،
الأطفال، وكل من نجا من المذبحة حتى لو كان ملكا أرسلوه
رقيقا إلى الآستانة.

بحثوا عنه في بيوت الشراب، في الجزر المنسية في عمق النهر
العجوز، حيث تعبق الحياة برائحة النهر ورائحة شجر الصفصاف
ونوار السنط في ساعات قيلولة موسم الحصاد، حيث يجوب جنود
الملك الأرجاء لجمع الضرائب ومطاردة فلول المالك الباحثين
عن مجد في هذه الصحراء الشاسعة بعيدا عن عيون الباشا محمد
علي الكبير.

نسي نائب الملك أن بادي هو ابن الملك كما سمع من شقيقه
الملك، وأعلن: سرق العبد أحد الخيول الملكية وهرب!

لم يكن بادي في حاجة حتى لاعتراف من والده، كان صورة
طبق الأصل منه، نفس النظرة الحزينة في العيون، نفس الأنف

الضخم، نفس الوجه النحيل، نفس اللون القمحي، نفس طريقة المشي.

هدّد والدته ببيعها لتجّار الرقيق إن لم تحبّه أين ذهب ابنها، لكن المرأة لظمت الصمت مدّعية عدم معرفتها وأنكرت حتى رؤيته من قبل وفاة ولي العهد! قالت كان بادي في الفترة الأخيرة يلازم ولي العهد في كل وقت، وحتى إن جاء ليقى معها قليلا كان ولي العهد يرسل من يبحث عنه، حتى في الليل لم يكن يعود للنوم بجانبها بل يخلد للنوم بجانب الأمير إبراهيم!

شعر نائب الملك بالخوف للمرة الأولى كأنه فهم من كلام والده بادي، أنّه طبيعي أن يصبح بادي وليا للعهد في مكان أخيه، ما دامت العلاقة كانت بتلك القوة مع والده وأخيه لدرجة أن يلازم ولي العهد طوال اليوم، ولا يخرج ولي العهد إلى أي مكان دون أن يكون بادي في رفقته. بل أن أحدهم أسرّ لنائب الملك أن ولي العهد وبادي خطبا قبل فترة شقيقتين من إحدى الجزر القريبة، وأنّ ولي العهد هو الذي أصرّ أن يخطب بادي شقيقة خطيبته، بسبب حبه الشديد لبادي!

شعر نائب الملك بالخوف! طوال سنوات كان نائبا لشقيقه الملك ولا يعرف شيئا عما يدور في المملكة. كان مشغولا بشراب الخمر حتى أنه لم يستعد الوعي إلا حين علم أنّ الملك ينوي السفر لأداء الحج وأنه سيحل مكان أخيه حين عودته، أول ما خطر بباله حين استعاد وعيه، أن معظم كبار السن لا يعودون في العادة من رحلة الحج الطويلة الشاقة. وأنه يجب تهيئة الجو ليرث العرش الذي لم

يكن هناك من عقبة للوصول إليه سوى ولي العهد الذي سيصبح ملكا حسب التقاليد إن حدث مكروه للملك.

انتبه نائب الملك للعقبة الجديدة التي تهدد حلمه، قرّر أولاً ألا يعتمد على رجال الملك. استدعى أصدقاء الأُنس، جاءوا من كل مكان تفرقوا إليه بعد انشغال نائب الملك عنهم، من القرى المهملة في زوايا المملكة البعيدة ومن الجزر المنسية، حيث لا عزاء في حمى احتضار القيظ، بجانب الانتحار اليومي بالخمور المحلية العالية التركيز، سوى أصوات نغمات حزينه يعزفها أحد الصبية على آلة الطنبور، وصدى صوت المنادي العابر بحماره في القرى معلنا أساء الموتى الجدد، الذين حصدهم ملك الموت الذي يُكثر من تواجده في فصل الصيف الطويل.

اقترح أحد الندماء الذين كوّنوا بسرعة مجلسا استشاريا ثلاثيا لنائب الملك: يجب أن تتخلص من بادي! يجب أن ترسل الجنود في أثره بسرعة، قبل أن يتعد ولا تعثر عليه مرة أخرى!

قال نائب الملك: لا يمكنني إرسال الجنود لقتله! لو عاد الملك سيعرف بذلك! يجب أن يكون هناك شخص آخر!

أعلن بابكر، أحد ندماء نائب الملك: هناك حل آخر، يوجد عدد من العسكر الغرباء، بقايا حملة الدفتردار وبقايا المماليك يهيمون على وجوههم وينهبون القرى، معظمهم يخشون العودة من حيث أتوا خوفا من انتقام الباشا، يملكون سلاحا، يمكننا استئجار أحدهم بالمال، يجنون الذهب! أرسلهم الباشا لجمع الذهب والمشاركة في حملات اصطياد الرقيق، هرب بعضهم على

أمل أن يعملوا لحسابهم الخاص، لكن معظمهم انتهوا في بيوت الشراب ومطاردة البغايا في أسواق الرقيق.

تطوع بابكر حين لمس قبولاً لاقتراحه من نائب الملك: يمكنني إحضار أحدهم.

في الصباح مُثِّل الرجل أمام نائب الملك، كان يعمل حدّاداً يصنع المناجل والمعاول التي تستخدم في الزراعة، ويصنع أواني الطبخ وأباريق الماء التي تستخدم للوضوء من الصفيح، جاء مع الجيش الغازي قبل سنوات وكان يعمل مساعداً لرجل يصنع الذخيرة للجيش، تعلّم من الرجل صناعة أشياء كثيرة. مات الرجل في معركة كورتى، حارب الحدّاد قليلاً ثم هرب بعد المجزرة التي نفذها الجيش التركي بعد مقتل إسماعيل باشا على يد الملك نمر، كان هلال قد شارك في تلك المجزرة التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، حتى الأشجار لحقت بضحايا المجزرة، حتى الحمير والحيوانات لم تنج من القتل والحرق.

كان قد سمع عن الذهب في جبال بني شنقول، وصل إلى هناك بعد رحلة شاقة. قضى عدة أشهر يغربل فتات الصخور التي يعثر عليها في قاع النهر، عثر على ذرات قليلة من المعدن تكفي فقط لرحلة عودته إلى الشال حيث ترك معدات الحدادة، كان ينوي البقاء لفترة أطول علّ الحظ يحالفه في العثور على كتلة ذهب تعوّض عذاب شهور طويلة، لكنه اضطر للهروب بعد انتشار حمى غامضة في المنطقة، مات على إثرها العديد من السكان المحليين.

فكّر في العودة للعمل مع الجيش التركي الذي شنّ في أثناء بحثه عن الذهب عدة غارات على المنطقة بحثا عن الرقيق، كان السكان يهتمون في الجبال القريبة ومن يبقى في القرية كان يتعرض للأسر وبيع في أسواق الرقيق أو يتم تجنيده.

سيعطيك نائب الملك كيسا من الذهب، قال بابكر: سرق أحد العبيد أحد خيول الملك ولاذ بالفرار، حكمت عليه المحكمة هنا بالموت، نريد تنفيذ الحكم واستعادة الحصان، عليك قتله واسترداد الحصان! اسمه بادي، إنه شاب صغير، تستطيع معرفته من الحصان، لكن يجب أن تسأل عنه بحرص، سيهرب إن عرف أن هناك من يتبعه، وقد يقوم ببيع الحصان ليخفي أي أثر يدل عليه، ربما يحاول البحث عن عمل في الأسواق أو المزارع ليُعول نفسه.

تسلّم القاتل المأجور حصانا، سأله نائب الملك، ما اسمك وماذا تعمل؟

اسمي هلال، كنت جنديا في جيش إسماعيل باشا، الآن أعمل حدادا، قضيت فترة في جبال بني شنقول أبحث عن الذهب.

هل لديك بندقية؟

نعم، ربما لن أحتاج إليها حتى لا تلفت الأنظار، سأستخدم خنجري في تنفيذ الأمر!

وجد نائب الملك اقتراح الرجل عمليا، ضربة خنجر، سيظن الناس أنها مشاجرة عادية ولن ينتبه لها أحد، بينما طلق ناري يمكن أن يلفت الأنظار.

(2)

قضى بادي جزءاً من ليلته الأولى في بيت خطيبته الزلال، كان جو الحزن يجيم على البيت، الذي تناثرت في بهوه أدوات صناعة القماش، النول الخشبي الضخم والبكرات الخشبية التي تستخدم في غزل الخيوط من القطن. يتعالى من وقت لآخر صوت نواح فاطمة، فاطمة التي كان مفروضاً أن يتم زواجها على ولي العهد بعد عودة الملك من رحلة الحج. كان بادي يود الرحيل بسرعة لكن الزلال أقنعه أن يبقى معهم وينطلق صباحاً، كان بادي خائفاً ألا يجد مركبا تنقله في الفجر إلى الضفة الأخرى ويضطر إلى الانتظار حتى تشرق الشمس، ويبدأ المركب الذي ينقل الناس من الجزيرة إلى القرية في العمل ويراه أحد جنود أو جواسيس نائب الملك. كان يريد ان يقطع أطول مسافة ممكنة جنوباً قبل ان يتنبه أحد إلى غيابه. قالت الزلال ان جارهم لديه مركب صيد صغيرة، وهو يبدأ عمله مبكراً بعد صلاة الفجر مباشرة، ويمكنه ان ينقله إلى الضفة الأخرى لينطلق والقرية كلها نائمة.

تناولا عشاء من اللبن الرايب وخبز القراصمة، أخذته الزلال ليجلسا خلف البيت في ضوء القمر، في راكوبة صغيرة يستخدمها والدها لاستقبال ضيوفه من التجار الذين يحضرون لشراء الحبال والمنسوجات القطنية والأواني الفخارية التي كان يبرع في صنعها. جلسا متقاربين كان بادي لا يزال في حالة صدمة لوفاة إبراهيم،

كأنه بدأ فقط في تلك اللحظة يتبين حقيقة تلك الكارثة. لم يكن خائفاً من المصير المجهول الذي سيواجهه منذ تلك اللحظة، فقط كان يخشى كما قال للزلزال أن يضايق نائب الملك والدته أو يطردها من القصر أو ربما يقوم ببيعها حتى، إن تأخر والده في رحلة الحج. قالت الزلال لا يستطيع عمل شيء ما دام الملك حيا، سيخشى من انتقام الملك، ألا يكفي أنه قتل ابن الملك وولي عهده؟ هو لن يعترف بذلك، سيقول إن الحمى هي التي تسببت في موته.

لا تخش شيئاً، قالت الزلال: سأزور والدتك خلال أيام وسأاتفق معها أن تحضر للعيش معنا إن حدثت لها أية مشاكل حين حضورك أو وصول الملك.

شعر بادي بالراحة لكلام الزلال، كان القمر يطل على الدنيا في بهاء أسطوري، مثل ملكة متوجة على عرش من الفضة فوق أحراش عالم ذائب مثل القصدير، يذوب ضوءه في رائحة النوار، ورائحة النهر العجوز الذي كان يزحف بين الأحراش مثل ثعبان مسنّ في رحلة الأبد، يذوب في مقاطع الغناء الحزين الذي تحمله من الضفة الأخرى للنهر، نسمة لطيفة، كانت تهب بين الحين والآخر محملة بعبق زهور السنط. رغم شعوره بالحزن، وشعوره بالخوف مما هو آت، شعر بادي بنفسه جزءاً من روعة ذلك الكون وجماله الذي يتسرّب إلى أعماق الروح.

لم ينم بادي تلك الليلة، بعد صلاة الفجر حضر صياد السمك، ودّع بادي الزلال ورافق الصياد الذي نقله بمركبه الصغير إلى

الجانب الآخر. وجد حصانه بين الأحراش التي أخفاه وسطها. حين انتصف النهار شعر بالتعب بسبب سهر الليلة المنصرمة، كما شعر بجوع شديد، لحسن الحظ عبر بجانب مسيد تجاوره قبة أحد الشيوخ. توقف ليرتاح قليلا ويأكل شيئاً، وجد عدداً من الطلاب يكتبون القرآن في ألواحهم الخشبية. شرب ماء وجلس بجانبهم، بعد قليل سمع صوتاً يناديه من غرفة ملحقة بالمسيد مسقوفة بالحشائش وفروع الأشجار، التفت بادي مندهشاً من هذا الذي يعرف اسمه؟ حين شاهد الطلاب ارتبكه قال له أحدهم، هل أنت بادي؟ وحين أجاب بنعم، أشار له إلى غرفة الشيخ وقال: الشيخ يناديك، اذهب إليه في الداخل.

وجد بادي رجلاً مسنّاً وقوراً تغطي أكثر من نصف وجهه لحية بيضاء، ويغطي رأسه الأصلع بطاقة قديمة ممزقة الأطراف، أنفه ضخم يكاد يغطي النصف الخالي من الشعر من وجهه وتحتبئ عينيه أسفل حواجب كثيفة بيضاء، دعاه الشيخ وصافحه، مسح بيده على رأسه بحنان أبوي وقال:

يحاول معظم الناس الهروب من أقدارهم، أنت أول من أراه يحاول الهروب من قدر أن يصبح ملكاً!

ارتبك بادي ولم يقل شيئاً، قال شيخ بلال: حين كنت تسرع في الطريق على حصانك وأنت قادم إلينا، عرفت من تكون، ورأيت كأنّ أثناء أبقار الساب كلها تحلب في فمك!

قال بادي: أريد أن أسافر شمالاً حتى يعود الملك!

قال الشيخ: سافر يا بني، احترس من الغرباء، ثمة غريب يتتبع

خطاك، إن لم يلحق بك ستعود يوما وسيصب خير هذه البلاد كله
في كفيك!

حين حان موعد الأكل أحضر بعض الصبية قدحا خشبيا
ضخما مليئا بالكسرة والمرق. كان بادي جائعا جدا، بعد الأكل
أحضر الطلاب شرابا خفيفا مصنوعا من التمر، عاد الطلاب إلى
ألواحهم، نام بادي بعد الأكل على حصير السعف تحت شجرة
الحراز، لا بد أنه نام عميقا، استيقظ على صوت أذان، ظنّ في البداية
إنه أذان المغرب أو العشاء، ثم اكتشف أنه أذان فجر اليوم التالي،
صلّى مع الطلاب وشرب اللبن ثم غادر بسرعة خوفا أن يكون
نائب الملك قد بدأ يطارده. لحسن الحظ حصل الحصان أيضا
على قسط من الراحة، وأحضر له طلاب المسيد بعض الحشائش
وسقوه ماء.

كانت خطة بادي بعد أن يتأكد أنه قطع مسافة تبعده عن دائرة
الخطر، أن يخلد إلى النوم نهارا ويواصل السفر ليلا حتى لا يلفت
الانتباه. ولأنّ منظر الحصان كان هو الذي يمكن أن يلفت الانتباه
له، فقد كان مقصورا ركوبه على بعض زعماء العشائر، وبعض
الجنود من أصحاب الرتب العليا، فقد قرّر أن يقوم ببيعه في أول
سوق يصادفه ويشتري حمارا يواصل به السفر، فكّر أنّ ذلك قد
يكون أكثر خطورة من الاحتفاظ بالحصان، إذا ما أرسل نائب
الملك من يتبعه، فالحصان يقطع المسافة أسرع ولا يتعب بسرعة
مثل الحمار، لكنه وجد أنه سيكون مضطرا لبيع الحصان على كل
حال حتى يجد بعض المال لمواصلة الرحلة للخرطوم.

(3)

بدأ هلال رحلة المطاردة، كان بادي يسبقه بثلاثة أيام لذلك قرّر ألا يرتاح أبداً، على الأقل في اليوم الأول، حتى يقطع مسافة طويلة في أثر بادي. أضع بعض الوقت حتى يصل إلى بيته في قرية صغيرة شمال قصر الملك. ترك الذهب الذي حصل عليه من نائب الملك مع زوجته، حمل معه قليلاً من الريالات العثمانية تكفي لرحلته التي كان يتوقع أنها لن تطول. كان هلال قد تزوج من المرأة التي اشتراها من أحد أسواق الرقيق أثناء رحلته للبحث عن الذهب، كانت فتاة بالغة الجمال، تنتمي لقبيلة الفولاني، جاءت أسرتها قبل سنوات طويلة من غرب أفريقيا في طريقهم إلى الحج، وبعد العودة من رحلة الحج، أغرت أخبار وجود الذهب في المنطقة جدها على الاستقرار فيها. تعرّضت للأسر أثناء غارة للأتراك على الحدود بحثاً عن الرقيق، دفع فيها كل ما عثر عليه من ذهب بعد شهور من السهر والحرم.

في البداية فكّر أن يبني بيتاً ويعيش بقية حياته في المنطقة التي تغص بالباحثين عن الذهب، لكن المنطقة لم تكن آمنة، وكانت حتى القوات التركية تتعرض للهجوم من القبائل التي تسكن الجبال والمناطق المحيطة، للانتقام من الغارات التي شنّها الجيش التركي لإخضاعهم أو لاصطياد الرقيق.

لذلك قرّر العودة إلى مهنة الحدادة وأن يعود لتستقر أسرته على

الأقل في الشمال وبإمكانه العودة للتقيّب عن الذهب وحده في أي وقت.

كانت زوجته حاملا حين خرج هو لمطاردة بادي، قرّر أن تكون مدينة سنّدي هي وجهته الأولى، لأنه خمن أن الهارب الذي يعرف في الغالب أنّ نائب الملك لن يتركه، سيحاول الوصول إلى مدينة سنّدي على الأقل، هناك يمكنه أن يختبئ أو يبحث عن عمل في سوق سنّدي المزدهم وربما يواصل رحلته جنوبا إلى الخرطوم، كان معتادا على السفر عبر الطريق الصحراوي الذي يتجه غربا، قبل أن يعود بعد وصوله إلى الأبيض ليتجه شرقا في محاذة نهر النيل. منذ أن شارك في حملة الدفتردار الانتقامية التي أعقبت مقتل إسماعيل باشا، وهو يخشى من عبور منطقة منحى النيل حيث وقعت المجزرة خوفا من انتقام الأهالي.

في منتصف النهار توقف هلال على حافة أحد الحقول، قريبا من نهر النيل، كان يحمل جرابا من جلد الماعز وضعت له زوجته فيه بعض الخبز الجاف والتمر، أكل قليلا واغتسل في النيل وأعاد تعبئة الزمزية الصغيرة التي يحملها.

في سوق على حافة الصحراء وقبل أن يبدأ الجزء الأخير من رحلته، عرض بادي حصانه للبيع، لم يجد مشتريا، نظر له البعض بتشكك بسبب صغر سنه، لا بد أنّ البعض اعتقدوا أنّ الصبي ربما سرق الحصان. لحسن حظه وجد قافلة من تجار الحمير متجهة إلى الخرطوم، كانت القافلة تتبع لرجل يناديه مرافقوه بالاسم: حاج النمر، بدا حاج النمر متشككا في البداية حين عرض عليه بادي

الحصان، سأل بادي: من أين حصلت على هذا الحصان؟ أنت شاب صغير!

تردّد بادي قليلا ثم حكى له القصة كلها.

دهش الرجل: إذن أنت ابن الملك؟ قال بادي نعم، والدي في الحج وحتى عودته يجب أن أسافر إلى الخرطوم!

بدا الرجل متشككا قليلا، وكأنه يختبر صدقه بدأ يسأل الصبي عن بعض معالم قصر الملك، قال إنه ذهب عدة مرّات إلى هناك وقابل الملك مرتين خلال سنوات، دون أن يفصح شيئا عن سبب مقابله للملك، بدا كأنه اقتنع برواية بادي ثم قدم له عرضا جيدا، سيعطيه حمارا قويا وسيدفع له بعض المال وسيسمح له بمرافقة القافلة إلى الخرطوم. عرض على بادي عددا من حميره، كان واضحا أنّ الرجل صدّق رواية بادي، وعامله معاملة ابن ملك.

انتقى بادي في البداية حمارا من النوع النقاوي، لكن التاجر أشار له بلطف أنّ هذا الحمار غالي الثمن وأنه اشتراه بطلب من تاجر من مدينة سنّدي، معظم حمير القافلة من النوع المكادي البطيء الحركة لأنها مرغوبة كما شرح له التاجر، بسبب استخدامها في نقل الماء من نهر النيل ونقل البضائع. أشار له النمر إلى حمار لونه رمادي، صغير السن ومتمين الجسم، قبل بادي بالحمار دون مناقشة ونقل السرج من على ظهر حصانه ووضعه فوقه، أوضح له التاجر أنه ربما يقوم ببيع الحصان إن وجد مشتريا جيدا في طريقه وأن بإمكانه ركوب الحصان لحين ظهور مشتر، لكنّ بادي الحريص على إبعاد أية شبهات عنه، فضّل ركوب حماره، كأنه شعر أنّ ركوب حماره

سيضلل الموت الذي كان يتتبعه دون هوادة. أعطى حاج النمر الحصان لأحد أبناءه الثلاثة الذين رافقوه في الرحلة.

كانوا يتوقفون كثيرا ويسيرون بمحاذاة نهر النيل لسهولة الحصول على الماء والعلف للحمير، ويتوقفون في كل الأسواق المحلية لشراء الطعام وبيع وشراء الحمير.

تتقدم القافلة ببطء، درجة الحرارة مرتفعة، بدأ موسم فيضان النيل، يذكر أنّ والدته كانت تمنعه من اللعب في الخارج أيام موسم الدميرة، كانت تقول أنّ درجة الحرارة العالية تذيب العظام فتتكسر بسهولة.

تذكر الأزمنة السعيدة التي غابت في الموت، اللعب في ساعات الضحى مع إبراهيم تحت أشجار اللبخ أمام القصر، تذكر رحلات الصيد، غناء نوري وجمعة سويا على الربابة التي صنعها نوري، يختلط غناؤهما الجميل بهديل القمري في أصائل رياحين الجزر النائمة على ظهر النيل، حين يعبق الجو برائحة الطين، رائحة القصب، وصوت أنغام بعيدة على الصفارة، يحملها هواء مشحون بالضوء والنوار، ورائحة قيظ رطوبة النهر يمضي في رحلة الأزل، وصوت نواح السواقي في الجروف الغارقة في حمى حرارة النهار ورائحة نبات اللوبياء. مسح الدموع من عينيه حتى لا يلاحظ تجار الحمير أنه كان يبكي.

أعلن النمر أنهم سيفارقون نهر النيل ويتجهون إلى الصحراء، لاختصار الطريق الطويل وأنهم سيعودون مرة أخرى خلال أيام للسير بمحاذاة نهر النيل، كانوا يحملون الماء والمواد الغذائية على

ظهر الجمل الذي يرافق القافلة، أعلن النمر أنهم سيستخدمون عددا من الحمير لحمل كميات إضافية من المياه، بسبب حرارة الجو وطول المسافة التي سيتعين عليهم قطعها عبر الصحراء.

اغتسلوا في نهر النيل وغسلوا ملابسهم وعلّقوها على شجيرات نبات الخلفاء لتجف، ثم قاموا بملء عدد من الزكائب المصنوعة من جلد البقر بالمياه، وربطوها جيدا على ظهر الجمل والبقية على ظهور الحمير، قام النمر بشراء بعض المواد الغذائية الإضافية لرحلة الصحراء، بصل مجفف ومسحوق الويكة ولحم مجفف، ثم انطلقوا في الرحلة مساء بعد صلاة العشاء، دون أن ينتبهوا للرجل الذي كان يتتبع خطواتهم مقتربا منهم.

(4)

تعطّل هلال قليلا، اضطر للعودة إلى البيت لأنه اكتشف أنّه نسي الجراب الجلدي الذي يضع فيه الذخيرة، قرّر العودة لإحضاره، رغم أنه لم يكن ينوي استخدام البندقية إلا في حالة الضرورة القصوى، حتى لا يلفت الانتباه له، خاصة أنه كان يخشى أن يتتبع بادي إلى المناطق التي شارك فيها في قتل الأهالي أثناء المجزرة التي نفذها جيش محمد بك الدفتردار، بعد مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا، كان يخشى من الانتقام فقد شاهده الكثيرون وهو يشارك في القتل وحرق القرى وتدمير كل شيء، ورغم أنّ معظم الأسرى كانوا قد قتلوا أو بيعوا لكنه كان يخشى أن ينتقم منه الأهالي لمجرد الشك خاصة إن رأوه يحمل بندقية تدل على أنه كان أحد أفراد الجيش التركي، كما أنه شارك أيضا في معركة كورتي، وقام بانتزاع الكثير من أذان الموتى وحتى الأحياء، لأنّ الباشا كان يدفع مبلغا من المال مقابل كل أذن لأحد قتلى معاركه مع السودانيين.

لم يكن صعبا تتبع آثار بادي في المرحلة الأولى، فقد عرف أن الشاب الذي يركب حصانا اتجه جنوبا بمحاذاة نهر النيل، صلّى العصر في نفس المسيد الذي توقف فيه بادي للمرة الأولى، لم يسأل الكثير من الأسئلة خوفا أن يلفت ذلك الأنظار إليه، أوضح فقط أنه يريد شراء الحصان منه، لم يكن هلال مسلما ورعا، خلال احترافه للجندية لم يكن لديه الكثير من الوقت ليصلي، اعتذر

حين دعاه الطلاب ليصلي بهم بسبب غياب الشيخ في ذلك اليوم، فقد كان الشيخ يقضي يوم الأربعاء دائماً في إحدى الجزر القريبة، يستقبل فيها المرضى الذين يعالجهم بالأعشاب والرقي، كان مسيد الشيخ بلال مزاراً لأعداد كبيرة من الناس، بعد أن ذاعت شهرته قبل سنوات إثر انتشار شائعة إعادته لأحد الموتى إلى الحياة، كان أحد الصيادين قد غرق في النهر إثر انقلاب قاربه الصغير بسبب هبة ريح مفاجئة، تصادف وقوع الحادث مع وجود الشيخ بلال في الجزيرة يوم الأربعاء، وقف الشيخ بلال أمام النهر، وقرأ بعض تعاويذه ثم نادى على الصياد الغريق وكرّر النداء ثلاث مرّات، بعد المرة الثالثة شاهد الناس حركة خفيفة على سطح النهر، وسرعان ما ظهر الصياد الغريق، كان يبدو مرتبكاً وحزيناً، كأنه لم يرغب في العودة إلى الحياة، واحتاج طوال عدة أيام إلى إعادة شحن ذاكرته بأسماء الناس والحيوانات حتى يتمكن من استعادة تواصله القديم مع العالم.

صلّى هلال العصر مرتبكاً حين عرف أنه في مسيد الشيخ بلال وحمد الله أنّ الشيخ لم يكن موجوداً ذلك النهار، وإلا ربما عرف من يكون هلال والى أين يتجه.

قبل بداية طريق الصحراء إلى كريمة، عرف هلال أنّ بادي انضم إلى قافلة من تجار الحمير، في تلك اللحظة اكتشف أنه لا يعرف من أوصاف الصبي سوى أنه يركب حصاناً، أليس محتملاً أنّ الصبي قام ببيع الحصان حتى لا يتعرف إليه أحد كما نبهه نائب الملك، أو ربما بسبب حاجته للمال؟ عرف هلال أنّ العثور

على القافلة لن يكون صعبا خاصة أنهم لا يتعجلون الوصول إلى وجهتهم، ويتوقفون كثيرا في الطريق لشراء الحمير وللتزود بالغذاء والماء، قرّر أن يضع خطة يحاول بها تحديد شخصية الصبي بين أفراد القافلة، توقّع أن يتعرف عليه بسرعة نسبة لصغر سنه، وربما يكون لا يزال محتفظا بحصانه.

لو كان يركب حمارا لهان الأمر، ما عليه إلا بيع الحمار أو استبداله بحمار آخر من أحد تجّار القافلة، وتصبح تلك مناسبة للتعرف إليهم وربما السفر معهم. ثم يتحين فرصة نومهم ويغمد خنجره في صدر بادي ويولي الأدبار، عرف أنّ فكرة الحصان لم تكن فكرة جيدة من البداية فهو ملفت للنظر لأنّ غالب الناس يستخدمون الحمير، ارتبط الحصان في ذاكرة الناس بجيوش الغزاة. لكنّ هلال تعمّد قبول الحصان من نائب الملك الذي كان يهدف إلى أن ينهي هلال المهمة بسرعة قبل عودة الملك أو إعلان موته، حتى يخلو له الجو ليصبح ملكا. قبل هلال الحصان أملا في أن يحصل عليه كهدية من الملك الجديد، إضافة للأجر المتفق عليه. عندها يستطيع بيعه للجيش التركي ويشتري ثورا ليستخدمه في المحراث، فقد قرّر أن يتوقف بعد قتل بادي من العمل كقاتل أجير أو حتى جندي، ويترك حتى البحث عن الذهب ويتفرغ تماما للزراعة.

كان جاره في القرية قد لاحظ مهارة هلال في صناعة المناجل والمعاول، وذات مرة تعطلت الساقية التي ترفع الماء ولم يعثر الرجل على النجّار الذي يقوم بصناعة المراكب وصناعة السواقي

وإصلاحها، عرف أنّ شخصا ما حضر واصطحب النّجار إلى أحد الجزر النائية شمالا ليقوم بإصلاح مركب شراعي، كان قد تعرّض للتلف فوق الصخور أثناء محاولة عبور الشلال، حين عرف هلال بالمشكلة حضر للمساعدة، قضى يوما يدرس طريقة عمل الساقية وفي النهاية استطاع إصلاحها.

عرض عليه الجار أن يفلح معه قطعة أرض يملكها، قطعة الأرض صغيرة لكنها خصبة جدا ويمكن أن تنتج إنتاجا وفيرا خاصة أنها قريبة جدا من نهر النيل، وبالتالي يسهل ريها بماء الساقية. ورغم أنّ هلال كانت خبرته فقط في الحدادة وصناعة الذخيرة، ولم يسبق له العمل بنجارة الخشب، لكنه حين لاحظ عمل الساقية وجد أنّ بإمكانه تطوير فكرة عملها لترفع مزيدا من الماء وتكفّل الثور الذي يسحبها جهدا أقل.

كان قد فكّر في البداية أن يحاول تصنيع ساقية من المعدن، لكنه عدل عن الفكرة بسرعة حين وجد أنّ ذلك سيعني مزيدا من الجهد على عاتق الثور، في وقت كان معظم المزارعين يتهربون من زراعة النيل التي تحتاج لمياه أكثر، مما أدى لأن تصاب معظم الثيران التي تسحب سواقي الماء بالوهن والمرض.

اكتشافه لحقيقة أن الثور لا يمكنه سحب ساقية من المعدن، لم يجعله يفقد الأمل في تطوير فكرة عمل الساقية، كانت خبرته في صناعة ذخيرة البنادق تجعله يفكر في استخدام نفس قوة النار لسحب ساقية من المعدن يمكنها ري أضعاف المسافات التي يمكن أن ترويه ساقية يجرها ثور، قرّر أنه بعد أن يكمل المهمة التي

أرسله نائب الملك من أجلها سيكون لديه الوقت لمحاولة تطبيق فكرته، كانت فكرته عبقرية، لم يكن لديه أدنى فكرة أن استغلال الماكينة التي تعمل بالبخار قد بدأ بالفعل منذ سنوات في أوروبا.

تناول هلال الطعام مع طلاب الخلوة بسرعة، وغادر المكان مخافة أن يرجع الشيخ ويتعرف عليه. عرف في آخر سوق أسبوعي صادفه أن قافلة تجار الحمير تسبقه بحوالي سبعة أيام في طريقها إلى كريمة، توقع أن يتمكن من اللحاق بهم خلال ثلاثة أيام. اشترى بعض المواد الغذائية واشترى من السوق زكية من جلد الماعز وملاها بالماء، حمل أيضا بعض العلف الجاف لحصانه، أخفى بندقيته داخل جوال العلف، ثم قضى بقية النهار تحت أشجار الصفصاف بجوار نهر النيل حتى قدوم الليل لتصبح درجة الحرارة معتدلة ليبدأ رحلته عبر الصحراء.

أطفأ النار التي أعد فيها طعامه ثم أشعل لفافة تبغ، كان الليل يرخي سدوله وبدأت النجوم تبرز على صفحة السماء، استرخى قليلا على الأرض فلم يلاحظ حركة العقرب التي خرجت من الأحرش الغاصة بأوراق الشجر الجافة ولدغته في رجله، صعقه الألم لكنه تصرف بسرعة، قتل العقرب بضربة سريعة من حذائه، ثم أطفأ لفافة التبغ التي كانت لا تزال مشتعلة في مكان اللدغة، شعر بألم حاد وغثيان، لحسن الحظ كان يحمل معه بعض أوراق نبات النعناع المجففة، أخرجها من جرابه وأشعل النار مرة أخرى، قام بغلي الماء في إناء الفخار ووضع فيه أوراق النعناع، ثم تجرّع من الشراب الساخن بسرعة عدة جرعات كبيرة، وسحب فروة جلد

الخروف التي يستخدمها كغطاء ولف جسده بها، تصبّب عرقه، عرف أنه لن يستطيع بدء رحلته تلك الليلة ومن الأفضل أن يخلد لبعض الراحة حتى يستعيد جسده قوته، ترك الحصان في مكانه يأكل بقية الحشائش الجافة من حوله وحمل بعض الأشياء التي يحتاج إليها بعيدا قليلا عن أجمّة الأشجار التي قضى النهار تحتها حتى لا يهاجمه عقرب مرة أخرى.

فوق الرمال البيضاء، قريبا من نهر النيل، فرش الحصير المصنوع من سعف النخيل، وغطى جسده جيدا بالفرو المصنوع من جلد الخروف، وضع مغلي أوراق النعناع بجانبه ليشرب منه كلما استيقظ قبل أن يستغرق في نوم مشوش، رأى فيه عقربا ضخما يتدحرج مقتربا منه فيما هو غارق في حفرة تغوص قدماه في رمالها كلما حاول التحرر منها، استيقظ فجرا شاعرا برغبة ملحّة في قضاء حاجته، تغوط في حفرة في الرمال، ونظّف نفسه بقطعة حجر، كان يشعر بأنه يستعيد قوته، شرب بقية مغلي النعناع واستسلم للنوم مرة أخرى حتى أيقظته الشمس الحارقة، كان لا يزال يشعر ببعض الغثيان فلم يأكل شيئا، جمع أشياءه وبدأ رحلته.

(5)

توقفت القافلة قرابة الفجر لينال المسافرون قسطا من الراحة،
أناخ حاج النمر الجمل، ثم أمر صبيانه بإنزال بعض العلف
والماء من على ظهور الحمير لسقي الجمل والحمير وإطعامهم،
الماء والأغذية على ظهر الجمل سيتركونها كاحتياط، توزعوا
جميعا لقضاء حاجتهم في الصحراء من حولهم، حذّرهـم النمر
من ثعبان (أبَدَفَّان) الذي يُختفي داخل الرمال قريبا من السطح
ويمكن أن تكون لدغته قاتلة. أكلوا جميعا بعض الخبز المصنوع
من القمح والتمر، فضّل الصبيان أن يقوموا بسقي الحمير بعد
شروق الشمس حتى يتمكنوا من الحصول على بعض الراحة قبل
أن تشرق شمس الصحراء الحارقة. وضعوا أمام كل حمار قليلا
من الذرة على قصعة من الجلد. ثم افترش الجميع الرمال الباردة،
وتغطى كل واحد بثوبه القطني.

استغرقوا في النوم حتى أحرقت شمس الضحى وجوههم.
استيقظ حاج النمر أولا، ثم نادى على صبيانه، كانت بعض الحمير
قد ابتعدت قليلا، فأعادها الصبيان واستخدموا قصعة من الفخار
لسقيها، كانت القافلة تضم ثلاثة من أبناء حاج النمر: أحمد ابنه
الأكبر، وإسماعيل وعبدالله، كانوا في سن متقاربة بحيث يبدو
أشبه بالتوائم، لم يجد بادي صعوبة في التقارب معهم، شاركهم
لعبة السيجة، علّموه كيفية التعرف على الاتجاهات بواسطة

النجوم، وعلمهم بعض كلمات اللغة النوبية، كان هنالك أيضا خمسة رجال شبان، أحدهم شريك للمعلم النمر، اسمه رجب شاب نحيف طويل القامة، وجهه يبدو مصبوغا بالعرق والتراب وحريق الشمس، يلبس جلبابا طويلا من قماش الدمور المنسوج يدويا، ويغطي رأسه بطاقيّة مهترئة مصنوعة أيضا من نفس قماش جلبابه، تختبئ عيناه الواسعتان أسفل حاجبيه البارزين الكثيفين اللذين يغطيها تراب الصحراء، يحمل دائما منديلا ضحما متسخا يغطي به وجهه من حرارة الشمس.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يسافر فيها رجب شمالا، جرّب حظه طوال سنوات في مناطق الزراعة المطرية، كانت السنوات الأولى ناجحة لكن المنطقة كادت تخلو من الأيدي العاملة، والسكان الذين غادر معظمهم المنطقة، بسبب غارات الجيش التركي المتكررة بحثا عن الرقيق لإنشاء فرقة جديدة للجيش حسب أوامر الباشا محمد علي إبان زيارته للسودان. مما اضطر الأهالي للهروب من المنطقة والاحتماء بالغابات. قرّر رجب أن يستخدم ما استطاع ادخاره طوال سنوات من عائد الزراعة في التجارة، قرّر أن يبدأ بتجارة الحمير ثم يحاول أن يستكشف أثناء رحلته إلى الشمال أسواق الشمال الكبرى التي كانت أكثر انتعاشا من أسواق مناطق الوسط بسبب قربها من طرق القوافل القادمة من الشمال والغرب، ليرى إن كان من الممكن أن يتاجر في المحاصيل الزراعية ومنتجات أخرى أو يستمر في تجارة الحمير، لقد سمع أنّ أسواق سندي وبربر هي من أكبر أسواق المنطقة. في رحلة السفر إلى الشمال لم يتمكن من رؤية سوق سندي فقد عبروا بالمدينة مساء

يوم السبت، ولأنّ السوق كان يقام فقط في أيام الجمعة والسبت لم يكن يمكننا لهم البقاء طوال أسبوع حتى يوم السوق التالي يوم الجمعة، أما سوق بَرَبَر فلم يتمكن أيضا من رؤيته لأنّ مرورهم بالمدينة الصغيرة، لم يصادف يوم السوق الأسبوعي، لكنه قرّر أن يقوم بالسفر إليه مستقبلا بعد أن يرى سوق مدينة سُنْدِي.

بقية رجال القافلة الأربعة، طه والرفيع وشمس الدين وعبد الكريم كانوا من صغار التجار الذين انضموا إلى القافلة في الخرطوم، هم أيضا من سكان المسّلمية، كانوا قد جرّبوا حظهم جميعا في الزراعة قبل أن يقرروا ترك أراضيهم الزراعية لبعض أقربائهم وتجربة حظهم في التجارة. لكل منهم عدد قليل من الحمير التي اشتروها من الشمال لبيعها في مدينتهم، كانوا ينوون توسعة تجارتهم مستقبلا، على ضوء نجاح أو فشل تجربتهم الأولى في رحلة تجارية. طه والرفيع كانا شقيقين، بجانب الزراعة سافرا إلى جبال فازو غلي بحثا عن الذهب، لم يوفقا إلا في العثور على كميات قليلة من الذهب لم تكف حتى لتغطية منصرفات السفر. تركا الأرض الزراعية التي تركها والدهما ليعمل عليها شقيقهما الأصغر قبل أن يسافرا ليحجبا حظهما في التجارة ويزورا بعض الأسواق البعيدة. يشبهان بعضهما كأنهما توأمان برغم فارق ثلاث سنوات في السن بينهما، نفس القامة المتوسطة، نفس ملامح الوجه الدقيقة، العيون الذكية والابتسامة التي لا تفارق شفاههما.

تبقت لهم مسيرة يوم أو يومين للوصول إلى كريمة، هناك آبار متفرقة في الصحراء توقفوا عند واحدة منها في منتصف النهار،

أعادوا تعبئة مخزون الماء، لم يجدوا أية أشجار في المنطقة حول بئر الماء ليرتاحوا قليلا من حرارة الشمس في ظلها، فاستخدموا بعض الأغذية المصنوعة من الدمور وجلد الماعز لينصبوا خيمة صغيرة حشر كل واحد منهم جزءا من جسده للاستراحة قليلا من حرارة الشمس، بعد أن نظفوا أجسادهم بالماء البارد ورطبوا رؤوسهم بالماء.

مساء اليوم التالي وصلوا إلى مدينة كريمة، أقاموا معسكرهم خارج المدينة، أشعلوا نارا وأعدوا وجبة من لحم غزال مجفف وطماطم وبعض الخضروات المجففة، صنع حاج النمر خبزا خفيفا ساخنا بدلا من الخبز الجاف الذي عاشوا عليه منذ بداية سفرهم، تساءل رجب: هل غدا يوم سوق في كريمة؟ لا، قال حاج النمر، لكن يمكننا العثور على بعض المتاجر لشراء دقيق وبعض المواد الغذائية الأخرى. مدينة كريمة، برغم أن الصحراء تحيط بها من الشرق والشمال والجنوب، لكنها تقع على نهر النيل وتمتد قريبا من نهر النيل حدائق النخيل ومزارع النيلة التي تُصدّر إلى مصر. تساءل رجب الذي أعجبه المدينة هل ما زال المزارعون يزرعون نبات النيلة؟ لقد سمعت أن محمد علي باشا أعفى المزارعين من زراعتها، كنت أفكر يوما في عمل معمل لصبغة الملابس لكن حين عرفت أن زراعتها ستوقف عدلت عن فكري، أوضح حاج النمر أن المساحة التي تزرع نبات النيلة الذي لم يكن معروفا قبل دخول الأتراك وتم فرضه على الأهالي من قبل الإدارة الجديدة، قد تقلصت كثيرا بالفعل في الفترة الأخيرة، يقال إن المزارعين لم يكونوا سعداء بزراعته، كان يستهلك كميات كبيرة من المياه التي

تضخ من النهر بصعوبة بواسطة السواقي أو الشادوف، كما كانت هناك شائعات كثيرة بأن زراعته تفسد الأرض ولا تصلح لزراعة محاصيل أخرى، لدى زيارة الباشا محمد علي للسودان قام بعض المزارعون بتقديم عريضة لإعفائهم من زراعة النيل فوافق الباشا على ترك زراعتها لمن يرغب في ذلك، فعاد المزارعون لمحصولاتهم القديمة.

قال رجب: الأرض هنا خصبة جدا لكن رفع المياه مشكلة، السواقي ترفع كميات قليلة من المياه، لو كان هناك موسم للمطر لأصبحت هذه البلاد من أغنى البلاد!

بادي كان يفكر كثيرا في الزلال، كان يخشى أن يقوم نائب الملك بمضايقتهم وربما طردهم. والده الملك هو الذي منح الشيخ دفع الله والد الزلال قطعة الأرض التي بنى بيته عليها، كان والد الزلال قد هرب من منطقة المتممة بعد المذبحة التي قادها محمد بك الدفتردار إثر مقتل صهره إسماعيل باشا. كان دفع الله الرجل الشاب آنذاك، يملك مغزلا لصناعة قماش الدمور في سندي وكان معتادا على السفر إلى مدينة المسلمية لشراء القطن وبيع إنتاج مغازله من قماش الدمور، تصادف أنه كان مسافرا وقت وقوع المجزرة، حين عاد بعد شهر وجد القرية التي تقع قريبا من المتممة قد أحرقت بالكامل، وعرف من بعض الناجين أن كل الناس الذين وجدوا في القرية وقت وصول جيش الدفتردار، قد جمعوا في مكان واحد أحاطه الجيش التركي، بالخطب وأشعل فيهم النار فاحترق الجميع، وأن المشهد تكرر في المتممة وفي معظم القرى الواقعة في

المنطقة، شرح له أحد الناجين أنه تمكن من الهرب بعد أن أخذ أسيرا وتم وسمه بوسم العبودية، لكنه استطاع الهرب من معسكر الجيش قبل أن يقوموا ببيعه، نصح الرجل دفع الله بالهرب شمالا لحين استقرار الأحوال لأن جيش الدفتردار كان لا يزال يحرق القرى ويقتل الناس انتقاما لموت إسماعيل باشا، وأنهم اتجهوا جنوبا لإخماد الثورة التي اندلعت عقب مقتل إسماعيل باشا.

عرف دفع الله أن أسرته كلها قتلت في المجزرة، والده وأعمامه وأخواله، وابنة عمه نورا التي كان مقررا أن يتزوجها بعد عيد الأضحى، مات كل أبناء عمومته وكان معظمهم من الشباب وبعضهم أطفال، وقف دفع الله على أطلال بيتهم المحترق، وبكى بحرقة، حطّم الأثاث القواسيب التي يُخزّن فيها والده العيش والتمر ونهبوا كل محتوياتها، حتى فرن الفخار الصغير الذي تصنع فيه والدته الخبز كان محطما، والمناسج الخشبية التي يستخدمونها لنسج الدمور كانت كلها محروقة ومحطمة. طاف بالقرية وشاهد كيف دمّر الإعصار التركي كل شيء، حتى أشجار النخيل والسنتط قاموا بإحراقها، حتى الجذع الجاف لشجرة الدوم العتيقة، التي كان أهل القرية يعتقدون أنها شجرة خالدة رآها أجدادهم وآبائهم، ولعبت تحتها وتسلفت فروعها أجيال كثيرة، رغم كل الشائعات التي كانت تتطور مع تدرج الأزمنة وإن اتفقت كلها أن الشجرة تسكنها عائلة من الشياطين، أو أنها تنفتح على عوالم وأزمنة مختلفة. كان دفع الله يقضي مع أقرانه معظم أيام الصبا في محاولات تسلقها لجني ثمار الدوم، واللعب تحتها وهم يراقبون بهائمهم التي ترعى بقايا المزارع بعد نهاية موسم الشتاء، لم يكثر كثيرا التحذيرات

أمه وكثير من كبار السن من أهل القرية، الذين كانوا يقولون إنّ الشياطين تستوطن شجرة الدوم، وإنّ عاقبة إزعاج الشياطين في بيتهم ستكون وخيمة.

لم يتوقف دفع الله وأقرانه عن الهجوم اليومي على شجرة الدوم يدفعهم إغراء مغامرة تحدي الشياطين والاستمتاع بشمار الدوم الحمراء، حتى وقعت تلك الواقعة الغريبة التي لم يعرف لها أحد تفسيراً رغم مضي السنوات، والتي كانت تثير في نفسه خوفاً غريباً لا تفسير له، رغم أنّ والده أخذه لزيارة عدد من الشيوخ المشهورين بعلاج الناس من السحر، لكن الذكرى الغامضة لتلك الواقعة ستظل تلازمه حتى لحظة موته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر دفع الله بالخوف وهو يقرب وعدد من أقرانه من شجرة الدوم ليلاً وهم يلعبون شليل، كانوا يلعبون شليل دائماً على الرمال البيضاء بجانب نهر النيل لكن النيل فاض ذلك العام فيضانا كبيراً وأغرق أجزاء واسعة من القرية فانتقل معظم سكانها إلى التلال الرملية العالية على تخوم الصحراء شرق القرية، ونصبوا بيوتا صغيرة مؤقتة من جلد البقر والماعز حين انحسار الفيضان، وجد دفع الله وأقرانه أنفسهم يلعبون للمرة الأولى ليلاً جوار شجرة الدوم العتيقة، كان الهواء مشحوناً برائحة الجروف الغارقة، وبأصوات الحياة التي تصبح أكثر كثافة مع ارتفاع منسوب نهر النيل، تختلط أصوات نهيق حمير من على البعد مع صوت نباح كلاب مع أصوات أشخاص ينادون على بعضهم وأحدهم ينادي على المركب الشراعي ليعبر إلى إحدى

الجزر القريبة ليطمئن على أقربائه هناك. مع غناء صبية وهم يرقبون ارتفاع النيل لتحذير الناس في حالة ارتفاع مفاجئ يهدد البيوت التي نجت من الغرق، يختلط كل ذلك مع نواح السواقي الغارقة في الجُزر البعيدة داخل النهر، فجأة وهم يبحثون عن العظم الذي سقط في مكان ما في الرمال، خطرت لأحد الصبية فكرة، أعلنها على الفور: أشعر بالجوع! هل يرغب أحدكم في ثمرة دوم؟

تراجع بعض الصبية بينما تقدم البعض، تقدم دفع الله لا بسبب الجوع، لكن حبًا في المغامرة واكتشاف المجهول، كانوا خمسة من الصبية انتصر الفضول في اثنين منهما وانتصر الجوع في الثلاثة الباقين، تسلقوا الشجرة مثل القروذ، وبسبب الاندفاع الأولى غير محسوبة القوة وجدوا أنفسهم قريباً من أعلى الشجرة، في قلبها، شعروا برعب خفي يحتاج كيانهم، كأن قوة أبدانهم قد تضاعفت عدة مرّات في تلك اللحظة، فقط حتى لا تتيح لهم مجالاً للتراجع، راحوا يتسلقون الشجرة، أصبحت فروع الشجرة العظيمة كأنها سالماً تحركها قوة خفية نحو الأعلى، كلما قطعوا شوطاً نحو الأعلى يصبح التسلق أكثر سهولة، وأصبحت الموسيقى الخفية التي تنساب في جداول ضوء خفيفة من أعلى أكثر وضوحاً، وقوة، موسيقى لها نفس ملمس الماء وعذوبته، حتى أنّ الصبية دون أن يشعروا وجدوا أنفسهم يرفعون ملابسهم إلى أعلى حتى لا تبتل في نبع الموسيقى الجارية. فجأة وجدوا أنفسهم في حديقة ضخمة في وسطها بحيرة من الماء ويحيط بالمكان قصر ضخم، وقف الصبية وقد صعقهم المشهد الغريب من حولهم، كان دفع الله هو الوحيد الذي استطاع أن يفتح فمه ويقول وهو يشير إلى القصر الفخم

الذي يشبه جبلا إلهيا ضخما، تغيب أجزاءه العليا في السحب التي تنتصب فوق القصر كأنها امتداد طبيعي له: هذا قصر الخليفة التركي في إستانبول! لم ينتبه بقية الصبية لما قاله دفع الله، كانوا مصعوقين جميعا تحت وطأة سحر جنون المكان والزمان، عيونهم كانت تنبض بدوائر ضوء غريب، وهم يتقدمون دون وعي نحو القصر العظيم.

كان حراس القصر جميعا مثلهم من سود البشرة، لم تند عن أي منهم حركة تدل على أنهم أحياء، كانوا منتصبين بأجسادهم الرشيقة وهم يعلقون البنادق على أكتافهم. كأنّ ساحرا مجهولا قام بإشارة من يده بتثبيت كل شيء بمسامير خفية. حتى الزمن نفسه كان راكدا بدون حراك، عبر الصبية فيه وكأنهم يخوضون في الوحل، رأى دفع الله في الحراس السود وجوها يعرفها، نفس وجوه الصبية الذين يلعب معهم شليل، بل أنه رأى نفس وجوه بعض الصبية الذين كانوا يعبرون معه في تلك اللحظة وحل ذلك الزمان الكثيف الذي تفتت ملابسهم في قوة جاذبيته التي تكاد تسحب عظامهم من داخل أجسادهم، مضوا في طريقهم، حتى وقفوا أمام باب القصر الذي يجرسه الحراس السود الذين تنتصب وجوههم داخل ريش النعام الملون الذي يزين قبعاتهم، والذي يبدو مثل شجيرات صغيرة مغروسة في رؤوسهم.

في الداخل كان القصر مليئا بغرباء بشرتهم بلون الدم، كلهم في وضع الانتظار، رجلاّن يحملان مراوح فوق رجل ضخّم يجلس على مقعد وثير ويضع على رأسه عمامة ضخمة مزينة

بالريش وبقطع زجاج كانت تعكس ضوء النهار الفاتر الذي بدأ يتسرب عبر النوافذ الكبيرة التي تغطيها الستائر، وأمامه عدد من الرجال وقد لبثوا في وضع الركوع أمامه، لا أحد يتحرك، لا أحد يبعث إشارة على الحياة، تجول الصبية الخمسة في القصر رغم صعوبة التحرك في فضاء الزمن الراكد الموحش. لم يكملوا جولتهم داخل القصر حين سمعوا صوتا رهيبا أشبه بالرعد، بدأوا يستعيدون بعض وعيهم بالعالم من حولهم، وجدوا أن بإمكانهم تتبع خطواتهم للعودة من حيث أتوا، عبروا بجانب نفس الحراس قبل أن يجدوا أنفسهم في نفس المكان الذي رأوا منه القصر للمرة الأولى، لم تكن هناك أية إشارة حول الطريق الذي يجب أن يسلكوه للعودة إلى القرية الغارقة في فيضان النيل، التي بدت لهم تفاصيل صورتها مغرقة في القدم وسيصعب إثبات أنها وُجدت يوما على ظهر البسيطة.

فجأة بدأ الزمن يتحرك على وقع دوامة هوائية اقتلعت الأرض أسفل أقدامهم وطحتهم في داخلها، قبل أن تلقي بهم في مكان مجهول.

استيقظ الصبة فجأة ووجدوا أجسادهم نصف مدفونة في بحر رمال يمتد بدون حدود.

لبث الصبية الخمسة بعض الوقت بعد أن نفضوا الرمال عن أجسادهم حتى يستعيدوا الإحساس بالعالم من حولهم، نظروا نحو كل المعالم التي تتناثر في المدى الغارق في ضوء الصباح من حولهم، محاولين تحديد مكانهم، ثم راحوا يركضون فجأة عكس الاتجاه

الذي أشرقت منه الشمس، فجأة بدأ النهر يظهر من على البعد، كان دفع الله أول من تنبه أن الزمان ليس الزمان الذي تركوه، قال: هل ينحسر فيضان نهر النيل وتجف المياه في يوم واحد! تحولت الأرض أسفل أقدامهم من الرمال إلى تربة طينية جافة متشققة في شكل قطع من الطين متراسة بينها أخاديد صغيرة، توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم، قال أحد الصبية: يبدو أن القرية غرقت كلها، في هذا المكان كانت توجد البيوت المؤقتة التي رحلنا إليها مؤقتا بعد أن غرق نصف القرية!

شعروا بجوع شديد وكأنهم لم يتذوقوا طعاما منذ زمن طويل، رأوا فجأة من على البعد رجلا يسحب حمارا من خلفه، اقتربوا منه كان رجلا مسنا يسحب الحمار خلفه بصبر رغم أن الحمار كان يحاول أن يفلت ويولي الأدبار، نظر الرجل إليهم وكأنهم قادمون من كوكب آخر، بدا الرعب واضحا على وجهه وهو يسألهم من أنتم؟

تقدم دفع الله وقام بتعريف نفسه وتعريف أقرانه، اتسعت عينا الرجل العجوز من الدهشة وهو يحدق فيهم غير مصدق، ثم أوضح: منذ ثلاثة أعوام اختفى عدد من الصبية في إحدى ليالي الفيضان وبحث عنهم أهاليهم دون جدوى في كل مكان! اعتقد الناس أنهم غرقوا في فيضان ذلك العام الذي غرق فيه عدد كبير من الناس ودُمّرت قرى وجزر كثيرة. لكن كيف حدث ذلك؟ كيف عدتم مرة أخرى؟ يبدو أن الرجل العجوز لم يصدق حتى تلك اللحظة أن هؤلاء هم نفس الصبية الذين تقبل أهاليهم العزاء

فيهم منذ ثلاث سنوات!

شعر الصبية بالارتباك، وحسبوا أنّ الرجل العجوز ربما يعاني من الخرف، فهو يقول كلاما غريبا، سألوه أن يصف لهم اتجاه القرية، أشار للاتجاه الذي جاءوا منه، أوضح لهم أنّ الفيضان الأخير كان مدمرا جدا فخشي الناس أن يتكرر مرة أخرى، قرّر كبارهم أن يعيدوا بناء القرية في مكان بعيد قليلا من نهر النيل، على أن يبقى مكان القرية القديم فقط مكانا للزراعة وتربية البهائم، تابع الصبية طريقهم إلى القرية الجديدة حسب وصف الرجل العجوز، بدت لهم القرية الجديدة من فوق التلال الرملية موحشة وغارقة في الرمال، لكن البيوت كانت تبدو أرحب وأفنيتها الواسعة النظيفة تعبق برائحة النّوار، صادف لحظة وصولهم تجمع كل أهل القرية في المسيد بعد أن عادوا من المقابر فقد توفيت في ذلك اليوم جدة أحد الصبية الغائبين، حين ظهر الصبية بغتة في المسيد، لم يتعرف عليهم أحد في البداية، حسبوهم جاءوا من ضمن المعزين من القرى المجاورة، كانت السنوات قد مضت والصبية أصبحوا شبابا، وظهرت أمارات الكبر على بعض أهل القرية، صرخ والد دفع الله فجأة: هذا ولدي دفع الله!

هجموا عليهم وهم لا يزالون غير مصدقين أن يعود الصبية مرة أخرى بعد أن اختفوا دون أثر منذ ثلاث سنوات، ورجّح الكثيرون أنّ الصبية غرقوا في ذلك الفيضان الذي ابتلع القرية ذلك العام، وطوال عدة أيام ظلت القرية والقرى المجاورة كلها تمسّط نهر النيل على ظهر المراكب الشراعية بحثا عن جثث الصبية

دون جدوى، اعتصر الحزن ذويهم، ماتت والدة دفع الله من تأثير الحزن الصاعق على ولدها، وحتى يوم وفاتها كانت تقول، إنه حي، إنني أسمع صوت خطواته، وتشير نحو السماء، حتى شجرة الدوم العتيقة جفت بعد أن انحسرت مياه الفيضان، كأنها كانت الشجرة تكمل تواطؤها الشيطاني وتريد ليس فقط إخفاء أي أثر للصبية الغائبين، بل تريد إغلاف الطريق الوحيد الذي يمكن أن يعود منه الصبية من المستقبل.

كان الارتباك لا يزال يخيم على الصبية بعد عودتهم بعدة أيام، كان ذووهم يعتقدون أن الصبية تعرّضوا لمسّ شيطاني مسح كل الوقائع التي مروا بها فترة غيابهم من الذاكرة، دون أن يلاحظوا أن ما حدث كان عكس ذلك، فقد غرقت ذاكرة الصبية في طوفان مشاهد ووقائع كان صعبا عليهم مطابقتها مع وقائع العالم من حولهم.

أخذهم ذووهم إلى شيخ صوفي كان يقيم في بيت صغير على سفح جبل في قلب الصحراء، ما إن وضع يده فوق رأسه وقرأ بعض تعاويذه، حتى نطق دفع الله: قال رأينا بعض أهل قريتنا، يجرسون قصر السلطان في إستانبول!

ستكون تلك أول نبوءة بمجزرة المتمّة وسندي التي سيرتكبها الأتراك انتقاما لمقتل قائدهم إسماعيل بن محمد علي باشا، رفع الشيخ الصوفي يده ببطء من على رأس الصبي، واستمرت اليد ترتفع كأن قوة خفية هي التي تفعل ذلك، ثم قال بصوت أقرب للهمس: سيغزو الغرباء بلادنا! وسيأخذون بعض شبابتنا أسرى

ويجندونهم في الجيش معهم.

ستتغير الحياة في تلك القرية التي طاردها فيضان النهر حتى استقرت في عمق الصحراء، ستتغير الحياة وإلى الأبد، منذ تلك اللحظة التي ارتفعت فيها يد الشيخ الصوفي حتى لامست السقف، فالهروب أمام النهر الجامح سيكون نزهة أمام الغزو الوشيك للغرباء.

فكّر دفع الله في العودة إلى المسلّمة لكن الناجي حدّره أن الأتراك موجودين لقمع الثورة في نواحي الخرطوم، يقتلون كل من يصادفونه في طريقهم من أهل البلاد، ونصحه الناجي بالسفر شمالا فهو أكثر المناطق أمانا في تلك الفترة، وأنه هو نفسه ينوي السفر إلى هناك، تبقى مع دفع الله فقط الجمل الذي كان لا يزال مُحمّلا بالقطن الذي اشتراه من المسلّمة، حماره كان مريضا وهزيلا وكان واضحا أنه لن يتحمل رحلة طويلة أخرى فقرّر تركه في القرية، سيضطر إلى أن يقود الجمل خلفه ويسير على قدميه مؤقّتا حتى يصل إلى سوق بربر، تبقى لديه بعض المال، لحسن الحظ أنه لم ينفق كل ما معه من مال في رحلة المسلّمة، كان يريد شراء مزيد من القطن لكنه اشترى فقط الكمية التي يمكن تحميلها على الجمل، فبقى لديه بعض المال، قرّر أن يشتري منه حمارا من سوق بربر.

من حسن حظ دفع الله أنّ حمار والده الذي صادره الأتراك ضمن ما نهبوا من ممتلكات أهل القرية، هرب وعاد إلى زريبة والد دفع الله التي اعتاد عليها في نفس اليوم الذي قرّر دفع الله أن

يسافر فيه شمالا، كانت الزريبة مليئة قبل سفره بالبهائم والخراف، كانت هناك ماعز لونها أحمر أهدتها له جدته بعد عودته سالما من رحلة السنوات الثلاث، وضعت الماعز خلال السنوات التالية عدة مرات حتى أصبح لديه ثروة صغيرة من الماعز، كان يعتني بها مع بهائم والده، ولم يدر في خلده يوما أنها ستكون غنيمة للغزاة الأتراك بعد مجزرة يروح ضحيتها كل أهل القرية.

امتطى الحمار وسحب الجمل المحمل بالقطن واتجه شمالا، فكّر أن يقوم ببيع القطن في سوق سندي، لكنه كان يشعر برغبة قوية في الحفاظ على المهنة التي كان والده وأسرتَه أوفياء لها، فكّر أيضا أن يحاول الاستقرار في بربر ليكون قريبا من سندي ومن قريتهم، كان قد زار بربر مرة واحدة مع والده قبل سنوات، لم تعجبه المدينة في تلك الزيارة، لم تبد له مكانا للعيش لفترات طويلة، كانت ملتقى للقوافل المسافرة والقادمة من مصر وغيرها من البلدان، وكان إيقاع الحياة فيها يبدو غريبا وسريعا، غرباء من كل لون يملؤون المكان ثم يتبخرون فجأة ولا يبقى سوى بائعات الهوى اللاتي يتربعن القوافل القادمة.

كان والده يزور سوق سندي مرتين سنويا لبيع إنتاجهم من القماش، أعجبه سوق سندي كثيرا رغم أنّ الناس أيضا تبدو في عجلة من أمرها ولا يثق أي من التجار في زملائه الآخرين، فقد قضوا يومهم الأول مع تاجر يمتّ بصلّة قرابة لوالده اشترى من والده كل ما أحضره من قماش الدمور، وكان دكانه الصغير عامرا بقماش الموضلين وأنواع أخرى من الأقمشة المستوردة من

مصر، إضافة لخشب الصندل الهندي وحجر الكحل والسروج
والمصنوعات الجلدية الواردة من كُرْدُفان والخرز والصابون
المستورد، أعطاه والده ريبالا إسبانيا فاشترى بعض الحلوى
واشترى حجر الكحل لوالدته، في نهاية اليوم حزم قريبهم التاجر
كل بضاعته وساعده لحمله على الحمير إلى البيت، شرح لوالده
أنّ التجّار أنفسهم قد يسرقون البضاعة إن تركها في الدكان حتى
الصباح أو يوم السوق التالي، لأنّ الدكان لا يمكن إغلافه إلا
بالحبال التي يسهل قطعها وفتح الأبواب.

أعجبته مدينة سَندي بخليط البشر الغريب فيها وبحوانيتها
التي تباع كل شيء، وبانفتاحها على الطرق التجارية التي تربطها
بالشمال، وبلاد الحبشة شرقا، وتمبكتو وبحيرة شاد غربا. لكن
سَندي أصبحت في مرمى الأتراك، وتعرضت المدينة نفسها
للتخريب وأهلها للقتل أثناء حملة الدفتردار الانتقامية. ولأنه كان
يسمع أنّ الأراضي الزراعية واسعة وأكثر خصوبة شمالا فقد قرر
أن يتجه شمالا، مفكرا أن يستأنف صناعة الأقمشة هناك ويحاول
زراعة القطن حتى لا يحتاج إلى السفر جنوبا والمروور بالمناطق التي
ينشط فيها الأتراك لصيد الرقيق والبحث عن الذهب.

كان منظر الرجل الذي يسحب جملا محمّلا بالقطن غريبا جدا
وهو يخترق قرى الشمال، أخبره أحد الجنود أنّ الملك أثناء مروره
في القرى رآه ويريد مقابله، لحسن الحظ كان يحمل شالا قطنيا
اشتراه من المسّلمية أعطاه هدية للملك، الذي رحّب به وتأثر جدا
حين سمع قصته، حول آلاف الناس الذين قضوا في قريته وقرى

أخرى حرقا وذبحا على يد الجيش التركي، قال له الملك: هؤلاء الأتراك كارثة حلت بهذه البلاد، جاءوا فقط لاستعباد الناس ونهب ثرواتهم، لقد تحولنا منذ ظهورهم إلى مجرد جُباة للضرائب، نقتلعها من الفقراء وندفعها لهم ولا نحصل على أية شيء في المقابل. أعطاه الملك قطعة أرض تابعة له في الجزيرة المواجهة للقصر ليبنى بيتا ويستغل الباقي للزراعة، وعرض عليه أن يشاركه في زراعة القطن وفي صناعة الملابس. كان عرضا مغريا لم يتردد دفع الله لحظة في قبوله.

(6)

فكّر هلال، وهو يقطع الصحراء محاولا اللحاق بالقافلة التي سبقته بأيام، أن يحاول بعد العثور على القافلة التعرّف إليهم عن قرب، ستكون أفضل طريقة أن يقول لهم إنه يرغب في استبدال حصانه بحمار، لكن تلك مخاطرة! يمكن أن يتعرف الصبي على الحصان الذي يملكه الملك، أو أن يوافق صاحب القافلة ويعطيه فورا حمارا ومبلغا من المال، ليجد نفسه في مشكلة أخرى إذ يفترض أنه سيعيد الحصان إلى نائب الملك ثم يحاول أن يحصل عليه في ما بعد. فكّر أن يمضي في فكرة استبدال حصانه بحمار ويحصل على بعض المال، ثم يقول لنائب الملك في ما بعد أنّ الحصان سُرق منه في سوق سندي، لقد سمع أنّ تلك الأسواق التي تقع على طريق ملتقى القوافل القادمة من كل مكان، تعج بالغرباء واللصوص.

تبقى لديه فقط بعض المخاوف أن يتعرّف الصبي على الحصان ويشك في أمره، وقد يُبلغ صاحب القافلة بذلك، بدا له ذلك منطقيا فحين ذهب ليتسلم الحصان من زرائب الملك لم يكن هناك كثير من الخيول، فقط ثلاثة خيول تبقت بعد أن اختار هو هذا الحصان، سمع أنّ الملك يحتفظ بثروته من الخيول الأصيلة بعيدا عن عيون الأتراك في إحدى الجزر في نهر النيل لاستخدامها في حالة دخول المملكة الصغيرة في حرب مع جيرانها أو بعض الغزاة، لقد استطاع والده الملك السابق صد غزو الأتراك قبل سنوات

طويلة، ثم استقبل فلول المالك الهاريين من بطش الباشا بعد زوال دولتهم في مصر، بعضهم اختار البقاء في المنطقة وبعضهم توغل إلى داخل البلاد حتي يتمكنوا من الهرب في حالة وصول الجيش التركي إلى المنطقة. لا بدّ أنّ الصبي الذي كان يعيش ضمن رقيق الملك كان يُطلب منه في أحيان كثيرة أن يساعد الرقيق الأكبر سنا المسؤولين عن إطعام أو سقي الخيول الملكية (لم يكن هلال يعرف حتى تلك اللحظة أنّ الصبي هو ابن الملك) وبالتالي فمؤكد أنه سيتعرف على الحصان! وجد هلال أنّ من الأفضل أن يتلصص على القافلة التي توقّع أنها سوف تتوقف في الأسواق الكبرى، في بربر أو سندي، ليحاول تحديد هدفه، ثم فكّر أن ينفذ فكرة بيع الحصان. بعد أن يفرغ من مهمته، ويشترى بنصف الثمن حمارا ويزعم لنائب الملك أنّ الحصان سرق منه في الطريق ويطلب منه أن يدفع له بجانب بقية أجره، ثمن الحمار الذي اشتراه من أجل إكمال المهمة.

فكّر أنه في حالة فشله في معرفة من هو بادي بين أفراد القافلة، أن يلجأ لأسلوبه القديم حين كان قاتلا محترفا: القتل الجماعي! عرف عند توقفه في المسيد أنّ القافلة تتكون من عشرة أشخاص، توقع على الأقل أن يكون صاحب القافلة هو الأكبر سنا، وبالتالي يمكنه قتل كل الشباب في القافلة لضمان أن يكون بادي واحدا من الموتى! سينجو كبار السن أما الشباب فلا مناص من قتلهم جميعا وإلا فسيفقد ذهب نائب الملك، وربما يقوم نائب الملك بطرده من المنطقة التي كان ينوي أن يستقر فيها بقية عمره مع زوجته وطفله القادم.

كان يرغب في إكمال المهمة قبل أن تصل القافلة إلى منطقة شندي، فقد كان يخشى أن يتعرّف عليه بعض الناجين من المجزرة، ويسعون للانتقام منه، لقد أحرق بنفسه قرية كاملة وقتل عددا لا يحصى من الأشخاص، في معركة كورتي انتزع ما لا يقل عن خمسين أذنا من قتلى المعركة، كان الباشا يدفع مكافأة على كل أذن يقدمها الجندي لأحد القتلى. لكنه اعتاد أثناء السفر بسبب الأتربة التي تسبب له مشاكل واحمرارا في العيون، وحتى لا يتعرف عليه أي إنسان، أن يغطي وجهه ورقبته بشال من قماش الكتّان، ولا يكون ظاهرا من وجهه إلا أنفه الأحمر الشبيه بمنقار صقر، وعينه الماكرتين اللتين تحترقان بنظراتها الحادة كل شيء يقع في طريقهما.

قرّر أن يحاول الاقتراب من القافلة أثناء عبور الصحراء إلى المتّمة، لكنه لن يبدأ تنفيذ خطته إلا في المرحلة الأخيرة من الطريق إلى شندي، ففكر أن شندي ستكون الأنسب للتنفيذ بسبب ازدحام المدينة بالقوافل المسافرة والقادمة وفوضى الغرباء من كل جنس ولون فيها، والغابات التي تحيط بأجزاء منها، ما يجعل التخفي فيها أكثر سهولة.

الطريق قاحل جدا ولم يلتق طوال النهار القائظ بأية قافلة أو مسافرين حتى خشي أن يكون قد ضلّ الطريق، لكنه كان يعرف من الجبل البعيد الذي لا يغيب عن ناظره ومن بعض الآثار الأخرى أنه يسير في الطريق الصحيح.

حين بدأ الظلام يتراخى فوق بقايا العالم التي تشبث بها آخر خيوط المغيب الحمراء، بدأت بعض الأنسام الباردة تهب على

الصحراء، توقف ليعد بعض الطعام ويرتاح قليلا، كان طفلا صغيرا حين وقع في يد تجار الرقيق الأتراك الذين غاروا على قريتهم في جركسيا في القوقاز، كان معظم الأسرى من النساء والأطفال، بيعوا في أحد أسواق الرقيق في إسطنبول، اشترى هلال مع عدد من الصبية تاجر تركي، يملك بيتا كبيرا، عاشوا معه سنوات، كان يقوم بتدريب الأطفال على بعض الفنون الحربية، ويعلمهم الرماية واستخدام السيف، فقد كان الرجل نفسه محاربا قديما اشترك في حروب القوقاز، ومنذ أن ترك الجيش وتفرغ للتجارة أصبح يشتري الشباب والصبية ويبيعهم في ما بعد للجيش.

قطع عليه حبل ذكرياته الصوت المألوف الذي بدأ صدها يتردد مثل زئير أسود جائعة: عاصفة رملية، بدأت العاصفة بطيئة، أعطاه ذلك بعض الوقت ليجمع أشياءه، ويربط حصانه على وتد بجانبه، لحسن حظه كان المكان الذي اختاره ليرتاح قليلا ويعد عشائه يقع بين تلال رملية عالية، وفر له ذلك حماية طبيعية، بلل الشال القطني بالماء ولفه حول وجهه ورقبته، حتى يتفادى لسع الرمال في وجهه وعينه، عرف أنه لن يستطيع مواصلة رحلته تلك الليلة، ومع اختفاء النجوم فمن المؤكد أنه سيضل طريقه لو جازف بمواصلة السير، غطى للحصان أيضا رأسه بزكبية الماء الفارغة، التي استخدم الماء المخزون فيها في الجزء الذي قطعه من رحلته، لحماية عينيه وحتى لا يصاب بالرعب من منظر العاصفة وينطلق موليا الأدبار.

استغرق هلال في نوم مشوش، كان يستيقظ أحيانا ليكتشف

أنّ العاصفة كانت مستمرة وأنها تزداد ضراوة، وكأنّ شروق الشمس كان الإشارة التي تنتظرها العاصفة للتوقف، كان هلال وحصانه شبه مدفونين في الرمال، قضى بعض الوقت في تنظيف ملابسه وجسمه من الرمال، غسل وجهه بالماء وشرب قليلا منه وسقى حصانه ووضع له بعض الذرة أمامه، كان يشعر بجوع شديد لكنه خشي أن ترتفع درجة الحرارة قبل أن يبدأ رحلته بعد أن ضاع وقت كثير بسبب العاصفة، لولا العاصفة كان يمكنه قطع مسافة أطول ليلا في جو الصحراء البارد، أكل بعض التمر والخبز الجاف، شعر بأسنانه تطحن الرمال مع حبات التمر والخبز الجاف، لكن لم يكن هناك وقت ولا ماء كثير لغسل قطع التمر، ثم حزم أشياءه واستأنف السير.

(7)

بدأت قافلة تجّار الحمير الجزء الثاني من رحلتها، كانوا سيعبرون الصحراء مرة أخرى من كريمة متجهين إلى المتّمة، ثم يعبرون النيل من المتّمة إلى شندي، ثم يستأنفون الجزء الأخير بالنسبة لبادي إلى الخرطوم، بينما ستواصل القافلة رحلتها بمحاذاة النيل الأزرق جنوباً إلى مدينة المسّلمية.

شرح لهم حاج النمر أن الرحلة من كريمة إلى المتّمة ستكون هي الجزء الصعب الباقي من الرحلة، ستكون بقية الرحلة في مناطق مأهولة أو قريبة من نهر النيل ولن تكون هناك صعوبات في العثور على الماء والغذاء، ولن تكون هناك أية مخاطر قد تواجههم في الطريق، مثل ضياع المعالم بسبب العواصف أو خطر الضباع وقطّاع الطرق.

أعادوا تعبئة الزكائب الجلدية التي يحملون فيها الماء، وتحميل العلف والأغذية على الجمل، كان حاج النمر يفكر في بيع الحصان إن وجد سعراً جيداً، خوفاً أن يكون جنود الأتراك لا زالوا يحبون المنطقة بين شندي والخرطوم بحثاً عن بقية رجال الملك نمر، كان يخشى أن يصادروا الحصان، خاصة وأنه حصان أصيل من النوع الذي يفضل ضبّاط الجيش استخدامه. كان ولده أحمد يقود الحصان وكان يبدو سعيداً به حتى أنه حاول إثناء والده عن التفكير في بيعه.

عبروا نهر النيل بمركب شراعي إلى الناحية الأخرى حيث تقع مدينة مروي، قضوا وقتا طويلا في عبور النيل، لأن المركب الشراعي الذي ينقل الركاب أيضا لم يكن كبيرا بما يكفي لنقل الحمير كلها في مرة واحدة.

كانت الشمس قد غربت حين اغتسلوا في نهر النيل، وشربوا من المياه وأكلوا قليلا من التمر، وسقوا الجمل والحمير والحصان في نهر النيل، قبل أن ينطلقوا باتجاه المتمة. الصحراء هنا تبدو قاحلة أكثر من الصحراء التي عبروها حتى كريمة، لا أثر لأية حياة، يسرون ببطء نهارا بسبب الحرارة وإرهاق الدواب والعطش، حين تغرب الشمس يتوقفون للأكل ويحصلون على بعض الراحة قبل أن يستأنفوا السفر مجددا قبل طلوع الفجر. الليل هو الوقت الوحيد المناسب للنوم قليلا وللأكل وللاستمتاع بجمال الصحراء الذي لا يمكن اكتشافه إلا ليلا، حين تنكشف صفحة السماء عن عرض كوني غير مسبوق لكواكب مجرات لا حصر لها. وفي حين يستغرق معظم المسافرين في النوم، يبقى بادي وأبناء المعلم النمر وقتا طويلا يحاولون إحصاء النجوم، وحساب النجوم التي تسقط أو تلك التي تختفي من ضمن مجموعاتهما. في اليوم العاشر كانت مؤونتهم من الماء على وشك النفاذ حين بدأت رائحة نهر النيل تفوح مع أنسام الصباح.

وصلوا إلى المتمة يوم الخميس مبكرا، قضوا بقية النهار بجانب نهر النيل، اغتسلوا وغسلوا ثيابهم، قام الشباب بدفع الحمير بعد جهد داخل النهر بسبب خوفها من الماء، لإزالة التراب والعرق

من أجسامها. ثم عبروا نهر النيل إلى شَنْدي وأقاموا مخيما صغيرا بجانب غابة صغيرة من أشجار السنط على مشارف المدينة.

اعلن حاج النمر: وصلنا في وقت مناسب، غدا الجمعة يوم السوق سنبقى حتى مساء السبت أو صباح الأحد، يوم السبت أيضا يوم سوق، كان حاج النمر يريد عرض عدد من الحمير للبيع، وربما شراء حمير أخرى إن وجد أسعارها جيدة. صباح الجمعة تصادف وصولهم إلى السوق هجوم من الباشبوزق والجنود الأتراك، كانوا يطاردون بعض الباعة الذين لم يسددوا ما عليهم من حصص من الذهب حسب أوامر الإدارة التركية، أخبر أحد التجار المعلم النمر أن عددا كبيرا تجار القطاعي أفلسوا تماما فقد فرضت الإدارة على كل واحد منهم تسليم نصف أوقية من الذهب تبلغ قيمتها حوالي ثلاثمائة قرش، بينما رأسمال معظم هؤلاء التجار الفقراء لا يتجاوز مائة قرش. أوضح التاجر أن الإدارة نفسها مترهلة تعتمد على عدد كبير من الموظفين يعمل معهم عدد من المسؤولين المحليين، وكل واحد من هؤلاء الموظفين أو مسؤولي الإدارات المحلية يريد أن يستفيد من أية ضريبة تفرض على المواطنين، فإن طلب الباشا مثلا أن يسلم كل عشرين مواطنا نصف أوقية ذهب، يضع كل مسؤول هامشا للربح ويصدر تعليماته للمسؤول الأدنى منه بجمع كمية أكبر، ويفعل المسؤول الأدنى الشيء نفسه مع الموظفين الأدنى منه، وهكذا بدلا من أوقية من كل عشرين مواطنا يصبح على كل ثلاثة مواطنين تسليم أوقية ذهب!

قضوا اليوم كله في السوق اشترى بعض المستلزمات، عرض المعلم النمر بضاعته من الحمير للبيع، اشترى بعض الزبائن عددا من الحمير، وجد أن أسعار الحمير جيدة مقارنة بأسواق أقصى الشمال، لكن الحمير التي جاء بها من الشمال تبدو مطلوبة أكثر من غيرها بسبب قوة تحملها.

في مساء يوم السوق، أخلدوا للنوم بعد يوم طويل، كانت جلبة المدينة لا تزال ترتفع وأصوات ضجيج القوافل القادمة والمسافرة تملأ الهواء، بعد العشاء، خرج أحمد ابن المعلم النمر بعيدا قليلا ليقضي حاجته.

لاحظ المعلم النمر أن أحمد تأخر قليلا، شعر ببعض القلق الذي لم يفهم له سببا، لم يقل شيئا لمن معه، نادى عليه وكأنه لا يعرف أنه خرج لقضاء حاجته، سمع أحد أفراد القافلة يقول له أن أحمد خرج لقضاء حاجته، انتظر قليلا ثم خرج في نفس الاتجاه الذي سلكه أحمد، رآه من على البعد في ضوء القمر مضطجعا على الأرض، ظن في البداية أن الصبي ربما أخلد إلى النوم بسبب الإرهاق في مكانه بعد أن قضى حاجته، اقترب مسرعا فسمع الصبي يصدر صوتا غريبا حسبه شخيرا في البداية قبل أن يفاجأ مصعوقا بالصبي الغارق في دمائه.

لم تفلح محاولات إسعاف الصبي، مات بسرعة، وقف حاج النمر مذهولا لا يعرف ما يفعل، ما إن اقترب منه ولداه إسماعيل وعبدالله حتى احتضنهما وانفجر في البكاء، فجأة سمعوا صوت صرخة من المكان الذي تركوا حاجياتهم فيه، كان رجب هو الوحيد

الذي تأخر هناك، جرى طه ليعرف ما حدث هناك، لكن صوت صرخة أخرى شق عنان الليل، أسرع البقية إلى المكان وتركوا حاج النمر مع ولده إسماعيل، كان رجب وطه غارقين في دمائهما، تلفتوا جميعا في فرع، وأخرج كل منهم سكينه، لم يكن هناك أثر لأي إنسان في المكان، جاء المعلم النمر وابنه مسرعين، طلب منهم حاج النمر أن يقفوا جميعا في دائرة ويفتحون عيونهم جيدا، أخذ حاج النمر معه بادي وولده إسماعيل لإحضار جثة ابنه أحمد، طلب من البقية أن يبقوا واقفين في دائرة ويراقبوا حولهم جيدا، لكن بادي اقترح عليهم أن يذهبوا جميعا، ذلك سيجعل مهمة من يهاجمهم صعبة، اقتنع حاج النمر، ساروا جميعا، اثنان ينظران إلى الخلف والبقية ينظرون إلى كل الاتجاهات لتجنب هجوم من أية جهة. أحضروا جثة أحمد ووضعوها بجانب جثتي رجب وطه، كان شقيق طه يبكي بكاء مرا، حاول حاج النمر تهدئته: لقد خسرنا جميعا كما ترى، والمهم الآن ألا نسمح للمجرمين الذين يطاردوننا بأن يجدوا فرصة أخرى للنيل منا، حين تشرق الشمس سنذهب لدفن الموتى، وبعد ذلك نرى ما يجب عمله، ثم نصحبهم بعدم التحرك منفردين أبدا، حتى عند قضاء الحاجة يجب أن يتحركوا كلهم ليتولى البعض الحماية والمراقبة، طلب منهم أيضا أن لا يتحركوا كثيرا، حتى تبقى بعض آثار أقدام المهاجمين لفحصها ومحاولة تتبعها نهارا.

قرّر حاج النمر أن يبقى عدد منهم مستيقظين ويرتاح البقية ثم يتبادلون الأدوار لاحقا، لكن أحدا منهم لم يستطع النوم، كان مشهد الموت رهيبا، الضربات التي وُجّهت للضحايا كانت من عمل شخص أو أشخاص محترفين، كلها كانت نافذة في القلب،

كانت ضربات سريعة لم تعط الضحايا أية فرصة للمقاومة ولا حتى إصدار صوت أو طلب النجدة.

في الصباح حملوا الجثامين على الحمير واتجهوا إلى المدينة، وجدوا مقبرة في طريقهم ولحسن الحظ كان هناك مسيد قريب قاموا بغسل الجثامين فيه، ساعدهم طلاب الخلوة الذين وجدوهم في المسيد في إعداد الجثث للدفن، أرسل شيخ الخلوة أحد الطلاب لإحضار قطع قماش لاستخدامها كأكفان للضحايا، كان حاج النمر قد فحص الآثار الغربية التي عثر عليها في المكان، لم يجد سوى آثار أقدام شخص واحد، لم تكن هناك علامات مميزة استطاع تحديدها ربما لأن الآثار غير واضحة بسبب الرياح، لكنه لاحظ شيئاً غريباً، لاحظ أن نفس آثار الأقدام ظهرت داخله إلى المسيد.

حملوا الجثث وخرجوا إلى المقابر، خرج معهم عدد كبير من الغرباء وشيخ المسيد وطلابه، بجانب المقابر صلوا على الضحايا، كان عدد من الطلاب قد سبقوهم إلى المقابر وقاموا بتجهيز المدافن، دفنوا الضحايا وعادوا إلى المسيد تحت إصرار الشيخ لتلقي العزاء والراحة قبل مواصلة السفر، كان حاج النمر يشعر كأن شخصاً يستهدفه هو وأبنائه شخصياً، بدأ يستعرض ذاكرته، إن كان قد دخل هو أو أحد أبنائه في شجار أو مشكلة مع شخص ما، لم يتذكر شيئاً، لكنه ظل طوال وقتهم في المقابر وبعد عودتهم إلى المسيد لا يرفع عينيه لحظة عن ابنه وعن بادي وبقية الرفاق، أمرهم بالسير بجانبه وألا يتعدوا عن بعضهم لحظة مهما حدث.

بادي لم يفكر مطلقاً أنه كان المستهدف بالقتل، لم يخطر بباله قط

أن نائب الملك يمكن أن يرسل من يطارده كل هذه المسافة، رغم أنّ أمه حذرته أن الرجل لن يتركه، كان كل ما يعرفه عن نائب الملك أنه شخص سكير، يقضي نهاره وليله مع مجموعة من رفاق المرح، وأنه كان يسافر أحيانا إلى بَرَبَر أو سَنَدِي، لا ليعمل في التجارة مثلما يفعل كل من يسافر إلى تلك المدن الشهيرة بأسواقها الكبيرة، بل بحثا عن النساء الجميلات اللائي يعملن في سوق البغاء في تلك المناطق. سمع من إبراهيم أن الملك حاول مرارا تزويج شقيقه أملا في أن يشغله ببيته وأطفاله عن معاورة الخمر والبهجة. لكنه كان دائما ينجح في إيجاد عذر لتأجيل محاولات الملك لحرمانه من سعادة حريته.

تخيل بادي أن الرجل ربما تخلص بالفعل من إبراهيم فقط حتى لا يكون هناك من يضايقه في غياب الملك، لكنه لم يفكر أبدا في أن الرجل يمكن أن يرسل خلفه من يسعى لقتله.

طلب الشيخ من حاج النمر أن يبقى ورفاقه في ضيافتهم في المسيد حتى يقرر السفر، كان حاج النمر يريد أن يقوم ببعض الصفقات الصغيرة في سوق سَنَدِي، لكن بعد الحادث قرر أن يعودوا إلى ديارهم بأسرع فرصة، كان يجب إخطار أهل المغدورين الآخرين وتسليمهم ممتلكات أبنائهم بطرفه.

قاموا بربط الحمير التي كان يركبها الضحايا مع الحمير الأخرى، حصان بادي الذي كان يركبه أحمد تطوع أحد التجار الشباب بركوبه بعد أن اعتذر بادي أنه اعتاد على ظهر حماره وأفضل له أن يواصل الرحلة على ظهره.

غادروا صباح اليوم التالي. كان الحزن يعتصرهم جميعا، شعروا بالأمان قليلا مجرد أن خرجوا من حدود المدينة، ساروا بعيدا قليلا من نهر النيل خوفا أن يختبئ العدو الخفي في الأحراش والغابات الصغيرة المحاذية للنهر، قال حاج النمر لبادي: رأيت آثار أقدام القاتل ضمن آثار الأشخاص الذين كانوا في المسيد، حاولت تمييز الشخص صاحب الأثر لكن ذلك كان صعبا، كان هنالك عدد من الأعراب بعضهم من التجار الأتراك، خفت أن ندخل في مشاكل مع الحكومة إن حاولت التأكد من الأثر، كما أن عدد الناس كان كبيرا وقد اختفى الأثر، وجدته أمام مدخل المسيد ولم أعثر عليه في الداخل، لا بدّ أنه اختلط مع آثار الغرباء والطلاب والمصلين الذين توقفوا لأداء الصلاة. لكنني أعتقد أنه لا يزال في أثرنا، يجب أن نستعد لننال منه وإلا ضعننا جميعا. الرجل لم يحاول أن يسرق أي شيء من متاعنا أو حميرنا. لا أعتقد أنه قاطع طريق أو لص، قطع الطرق يتحركون في مجموعات ويحاولون نهب البضائع والممتلكات إذا ما انشغل أصحابها بشيء ما.

لم يحدث أي شيء في الليلة الأولى، تناوبوا الحراسة وبقي بادي في الليلة الأولى مستيقظا طوال الليل مع إسماعيل وعبدالله، حاولوا أن يقطعوا الوقت ويُلْهوا أنفسهم عن الحزن والخوف بحكاية بعض القصص التي يذكرونها من طفولتهم. حكى بادي عن نوري وجمعة وعن إبراهيم الذي مات مغدورا، حكى لهم أنّ جمعة اشترى ذات مرة من رجل كان يشتغل بالسحر، حجابا يحمي من لدغات العقارب، كان جمعة قد عثر على عمل في فترة الصيف، رجل في الجوار طلب منهم بناء زريبة كبيرة لبهائمهم،

اشتغل جمعة طوال أيام مع عدد من الشباب وقاموا ببناء الزربية، استطاع توفير بعض المال، طلب جمعة أن يجرب الرجل حجاب العقرب قبل أن يقوم هو بشرائه، تلفت الرجل حوله بحذر وقال: لا توجد عقارب هنا! لكن جمعة قام بقلب عدد من الحجارة حتى عثر على عقرب وأشار للرجل لتجربتها، بدا على الرجل بعض الخوف كأنه لم يكن متأكدا من فعالية حجابها، أو أنه كان يخشى ألا يكون العقرب الذي عثر عليه جمعة قد سمع به ويسحره وبالتالي لن يستجيب العقرب لألعايب ساحر غريب، لم يكن هناك حل أمامه سوى المخاطرة، عرف أنه إن لم يمسك بالعقرب فربما يقوم الصبية بضربه، ويشيعون بين الناس أنه مجرد كاذب حين كان يعلن أنه يستطيع أن يحول نمرا أو أسدا إلى قط أليف، بينما هو لا يستطيع استخدام سحره ولا حتى مع عقرب صغير. قال له جمعة: لا توجد هنا نمور أو أسود حتى نتأكد أنك تستطيع تحويلها إلى قطط! أرنا فقط كيف ستحمل العقرب، وسنشترى منك حجابا ونخبر الناس عن مقدراتك العظيمة.

لدهشتهم أمسك الرجل بالعقرب، ووضعها على بطن يده، هدأت العقرب وخفضت ذنبها الذي ينتهي بالشوكة السوداء. نقده جمعة ريالا إسبانيا وتسلم الحجاب. عرف أحد الجيران وكان سكيلا اسمه مختار، طلب أن يجرب الحجاب، حاول جمعة أن يقنعه أنه غير متأكد من فعالية الحجاب وأن الرجل ربما استخدم طريقة أخرى لحماية نفسه، لكن مختار صمم على ذلك وقال إنه سمع بمثل هذا الحجاب ومتأكد من فعاليته، قام الرجل بنفسه بالبحث حتى عثر على عقرب، ربط الحجاب جيدا في أعلى الذراع ثم أمسك

بالعقرب التي لم تتردد لحظة ولدغته لدغة ألقته أرضاً، بدأ الرجل يصرخ، حضرت إحدى النساء وفصدت مكان اللدغة بشوكة وقامت بمص السم بفتحها، فهدأ الرجل قليلاً لكنه كان يتصبب عرقاً وجسمه كله يرتعد، بحث جمعة بعد ذلك عن الساحر النصاب ولم يجد له أثراً!

كانت قد بقيت أيام قليلة قبل وصولهم إلى الخرطوم، توقع حاج النمر أن يصلوا الخرطوم خلال أربعة أيام، لأنهم يسرون بحذر ويسحبون عدداً أكبر من الحمير بعد ضم حمير المتوفين إلى القافلة.

في الليلة الأخيرة، شعروا جميعاً أنّ كل شيء سيسير على ما يرام، وأنّ الخطر ربما كان مقصوراً على تلك المنطقة التي هوجموا فيها ربما عن طريق الخطأ، من شخص يقصد الانتقام من مجموعة ما لكنه أخطأ في الظلام واغتال ثلاثة منهم.

في الليلة الأخيرة كان التجار الشباب الثلاثة: الرفيع وشمس الدين وعبد الكريم مستيقظين للحراسة. كانوا قد توقفوا بالقرب من غابة صغيرة على مشارف الخرطوم، سمع الرفيع صوتاً غريباً من الغابة القريبة، أشهروا خناجرهم استعداداً لأي هجوم، لكن لم يظهر شيء، طلب الرفيع من شمس الدين أن يرافقه ليستطلع الصوت، وطلب من عبد الكريم أن يبقى للمراقبة وحراسة النائمين، كان الصوت يبدو مثل صوت بشري يحاول محاكاة صوت أحد الطيور، تأخر الاثنان قليلاً، شعر عبد الكريم بالارتباك وقرر أن يقوم بإيقاظ حاج النمر وأبنائه وبادي، لكنه في اللحظة التي بدأ

ينادي فيها على حاج النمر، سقط على الأرض إثر ضربة سكين قوية. في تلك اللحظة كان حاج النمر قد استيقظ وتحرك سريعا حين رأى الرجل الغريب، كان ضوء الفجر قد بدأ ينتشر في الأفق، شعر حاج النمر في اللحظة التي رأى فيها الغريب أنه رآه من قبل، هل كان تاجرا عقد معه صفقة ما في أحد الأسواق ولسبب ما يسعى للانتقام منه؟ قفز حاج النمر وأمسك بيد الغريب قبل أن يغمد سكينه في أحد أولاده النائمين، سقط السكين وبدأ الرجلان يتصارعان، كان حاج النمر رغم عمره قويا جدا، لكن الرجل كان قويا و متمرسا، بدا الرجل للوهلة الأولى لحاج النمر كأنه أحد جنود الأتراك، كان أبيض البشرة ويرتدي ملابس شبيهة بتلك التي يرتديها الجنود الأتراك.

استيقظ أبناء النمر وبادي، كان الغريب قد وجه ضربات قوية للمعلم النمر ألقته أرضا وفي اللحظة التي سحب فيها الرجل سكينه، تمكن أولاد حاج النمر من الإمساك بيديه وتعطيله قليلا، ألقى بهما الرجل القوي مثل ثور أرضا وفي اللحظة التي كان على وشك أن يغمد سكينه في جسد حاج النمر، تلقى ضربة قوية من الخلف، ضربه بادي بعصا غليظة ضربة قوية على رأسه، ترنح الغريب وسقط أرضا، أجهز عليه حاج النمر بسكينه. في تلك اللحظة، والغريب يلفظ أنفاسه والدم يتدفق من فمه، تذكر حاج النمر أنه رآه في المقابر من ضمن الغرباء الذين تقاطروا لصلاة الجنائز على الشباب الثلاثة، ابنه أحمد ورجب وطه، شعر عندها أن الرجل كان يقصد شخصا بعينه منهم وأن الأمر لم يكن خطأ كما تصور في البداية. فالرجل كان يتبعهم لدرجة أن يشارك في تشييع

ضحاياه.

مات التجار الثلاثة الشباب، جلس حاج النمر أرضا يبكي،
قال: أنا تسببت في موتهم، كيف أخلد إلى النوم وأترك هؤلاء
الشباب المساكين؟ لا خبرة لديهم ولا معرفة بالسفر في هذه
الصحراء التي لا شيء فيها سوى الموت، وماذا سأقول لأهلهم؟
كانوا أمانة في عنقي، ليته قتلني هذا التركي المجرم وتركهم.
دفنوا الشباب الثلاثة بالقرب من الغابة وبعد أن ترددوا قليلا،
قاموا بدفن جثة هلال أيضا، ثم جمعوا حميرهم وواصلوا السير.

(8)

ودّع بادي حاج النمر وولديه عبدالله وإسماعيل وداعا حارا وتواعدا على اللقاء مرة أخرى، قال له حاج النمر: إذا لم تجد أقرباءك في الخرطوم وأحببت أن تزورنا في المسلّمية تعال إلى هناك وإذا رغبت في العيش معنا، سنسعد بوجودك معنا، يمكننا أن نضاعف المساحة التي نزرعها، بعد أن فقدت ولدي الأكبر ربها لن أجازف بالسفر مرة أخرى.

لم يكن بادي يعرف أنه لن يعثر في الخرطوم سوى على نوري الذي أعطته الحكومة لأحد جنود الفرقة الثامنة، فقد كانت الإدارة التركية معتادة على إعطاء الجنود جزءا من مرتباتهم نقدا والبقية رقيقا وأشياء أخرى، كان من حظ نوري أن وقع في يد جندي فقير، كان هو نفسه من الرقيق الذين اصطادهم أحمد باشا أبو ودان في غاراته على بعض القبائل التي تعيش داخل حدود الحبشة.

قام الجندي الفقير ببيعه، كان نوري حسن الحظ في البداية، فقد اشتراه محاسب مالي في الإدارة التركية من طائفة الأقباط كان يحسن معاملة رقيقه، لكن لسوء حظ نوري تعرّض المحاسب المالي لمشاكل مع الإدارة التركية، جاء في ذلك الوقت بسبب مرض الحاكم التركي، حاكم جديد مؤقت في الخرطوم، أعلن أنه سيشن حملة لمحاربة الفساد الحكومي، كان يريد كسب رضاء الباشا الكبير ليضمن البقاء في المنصب لأطول فترة ممكنة، قام بعمل مجرد مالي في إدارته، فاكتشف عجزا كبيرا، قام بإلقاء القبض على المحاسب

المالي، وأجبره على تسديد مبالغ كبيرة، ولأنّ الرجل رفض في البداية الاعتراف بأنه سرق شيئاً، قام الباشا باعتقال أفراد أسرته وعرضهم لتعذيب شديد فاضطر المحاسب للاعتراف، صادر الباشا كل أمواله ورقيقه، وبيع الرقيق في المزاد العلني.

وجد نوري نفسه في بيت تاجر تركي غني، كان الرجل يسيء معاملته عبيده، حين عثر عليه بادي كان نوري يعاني من سوء المعاملة والضرب اليومي، لكنه كما حكى لبادي كان يتحمل كل تلك الإهانات ولم يفكر في الهرب بسبب فتاة حبشية كانت من ضمن رقيق التاجر التركي، كان نوري واقعا في غرام سمراويت، وعدها نوري أنه سيهرب إلى جبال فازوغلي، يقال إن الناس هناك يشربون الماء مخلوطا بالذهب! سيبحث ليلا ونهارا حتى يجد الذهب، ويعود لشراء حرите وحريتها من التاجر التركي.

لكنّ نوري كان يؤجل باستمرار مشروعه للهروب والبحث عن الذهب، كان التاجر التركي يُحكم رقابته على رقيقه بواسطة اثنين من قدامى رقيقه، كما أنّ نوري كان يخشى إن غاب لفترة طويلة ألا يجد سمراويت حين يعود، ربما يبيعها التركي إن وجد عرضا جيدا، أو يجبرها على احترام الدعارة.

يعمل التاجر التركي في تجارة العاج والصمغ العربي، يسافر بصحبة بعض رقيقه لشراء الصمغ والعاج، يبيع جزءا من بضاعته في سوق الخرطوم ويصدّر الجزء الأكبر منها خارج البلاد.

سافر نوري مع التاجر التركي مرة واحدة، لا بد أنّ التاجر التركي لاحظ أمانة نوري وتفانيه فقرّر أن يعتمد عليه في إدارة

المتجر والإشراف على بقية الرقيق الذين يعملون معه في المتجر، ولم يكن التاجر التركي يثق فيهم كثيرا.

عثر بادي على نوري في السوق بعد أن قضى عدة أيام في البحث عنه. كان بادي قد عثر على سكن في حي الترس الواقع على النيل الأبيض، والذي أخذ اسمه من تلال التراب التي وضعتها الحكومة، لحماية الأحياء القريبة من فيضان النيل الأبيض، كان أحدهم قد أرشده أثناء بحثه عن مسيد أو بيت مهجور يقضي فيه ليلته، إلى ذلك البيت الآيل للسقوط والذي تبدو على جدرانه المتآكلة بسبب المطر آثار الحريق الذي قضى على بعض الأشخاص الذين احتموا فيه من هجوم الأتراك أثناء حملة الدفتردار الانتقامية، لكن الأتراك أشعلوا النار في البيت وأحرقوه بمن فيه، سكن بادي مع مجموعة من عمال البناء كانوا يقومون ببناء ثكنات للجيش التركي، اضطر العمال للسكن في البيت في فترة انخفضت فيها درجة الحرارة في فترة الشتاء، رغم ما يقال عن البيت إنه مسكون بالشياطين وأرواح الموتى الذين أحرقهم الجنود الأتراك، كان بعض أهل المنطقة يعتقدون أن بعض الموتى يزورون المكان في أوقات معينة كل عام، للبحث عن أشياء ثمينة نهبها الجنود بعد الحريق الذي بدأ في ذلك البيت قبل أن ينتشر ويحرق الحي كله.

كان العمال يعودون إلى البيت مرهقين من العمل مساء ويستغرقون في النوم دون اكتراث لحفلات الشياطين الصاخبة، أصابهم الرعب مرة واحدة حين عادوا إلى البيت في وقت متأخر، كان الجنود قد أجبروهم على العمل طوال النهار بجانب نهر النيل

لسحب المركب التي كانت تقل محمد علي باشا في رحلة عودته من مناطق جبال الذهب، علقت الباخرة في أحد الجروف بسبب عاصفة ترايبية قوية هبّت على الخرطوم ذلك الصباح، وحين عادوا أخيرا بعد أن سمح لهم الجند بالرحيل في وقت متأخر من الليل وجدوا البيت يعج بأضواء غريبة، وموسيقى صاخبة تُقرع على آلات غير مرئية تشبه أصواتها نُقارة النحاس التي تُستخدم في بعض المناطق في بعض الاحتفالات وضمن طقوس إعلان الحرب أو النصر على الأعداء..

كانت النقود التي تبقت لبادي من بيع الحصان على وشك النفاد، قال له أحد زملاء السكن إن بإمكانه مرافقتهم غدا إن رغب في العمل، فهم يحتاجون كل يوم مزيدا من العمال. العمل لم يكن سهلا، خاصة أن بادي كان لا يزال يشعر بالإرهاق من الرحلة الطويلة ومن المطاردات التي تعرضت لها القافلة من القاتل المجهول.

لحسن الحظ كان يوم السوق التالي عطلة من العمل، فذهب بادي حسب نصيحة بعض من سألهم في مكان العمل للبحث عن نوري ورفاقه في السوق، سوق الخرطوم أضخم وأكثر تنظيما وازدحاما من سوق شندي، ظل يبحث طويلا، بين الرقيق المعروفين للبيع وبين باعة الخضروات والباعة في صفوف الحوانيت، توقف ليأكل في مطعم يملكه رجل غريب الملامح يرتدي ثيابا شبيهة بالنظام الذي يرتديه الجنود، أكل بادي وجبة صغيرة من كبد الإبل، وشرب كوبا من القهوة ثم استأنف البحث، كان النهار قد انتصف

وهو لا يزال يبحث.

عثر في النهاية على أحد الجنود، كان بعض زملاء العمل قد أشاروا له ليسأل الجنود لأنّ معظم الرقيق الرجال الذين تشتريهم الحكومة يتم في الغالب اختيارهم لإنشاء فرق الجيش الجديدة، قالوا له إنّ هناك فرقة سافرت بالفعل إلى الحجاز، ربما يكون نوري فيها، طلب منه الجندي أن يصف نوري، وصفه له، فكر الرجل قليلا ثم أشار له على عدد من الحوانيت التي يباع فيها العاج وبعض المشغولات الذهبية، عثر عليه بادي في أول حانوت يقف أمامه، تبادلوا التحية والعناق، صُعبق نوري لخبر وفاة إبراهيم، لم يصدق أن يكون ذلك الإنسان اللطيف، المليء صحة وطموحا ومحبة قدمات، تذكر ما كان إبراهيم دائما يقوله لهم في رحلات الصيد: حين أصبح ملكا سأعتقكم جميعا وتصبحون مجلس الملك، أطرق نوري حزينا وقال: إذن فقد باعني وقتل إبراهيم، يا له من شيطان ذلك العجوز السكير المخادع!

كان هناك ثلاثة من الشباب يعملون مع نوري في الحانوت، تبدو عليهم الطيبة. هاشم كان فتى أسمر البشرة، نحىلا وطويلا، تتدلى أذناه الطويلتان بجانب وجهه النحيل الحزين، أسره الأتراك في حملة على بلاد التاكا، وشول شاب طويل أسره الأتراك في غارة على قبيلة الدينكا، أهله محاربون أشداء كما كان يحكي لنوري وأصدقائه، لم يرهبهم السلاح الناري، معتادون على صد أعدائهم بالسهم المسمومة، التي يجيدون استخدامها، استطاعوا في المرة الأولى صد هجوم الأتراك وكبّدوهم خسائر كبيرة، لكن

الأتراك لجأوا للخديعة وأعادوا الهجوم في وقت متأخر من الليل وأهل القبيلة نيام، وكانت النتيجة أن مات الكثيرون، ووقع الكثيرون معظمهم نساء وأطفال في الأسر كان شول واحدا منهم، بيعوا جميعا في الخرطوم، لم يفقد شول الأمل في العودة إلى قريته البعيدة، قال: أنتظر فرصة مناسبة وسوف أهرب. حذّره هاشم: لقد حاولت الهرب من قبل، لكن المشكلة هناك مكافأة لمن يخبر أو يقبض على الرقيق الهارب، لذلك يسعى الجميع للحصول على المكافأة، أدخل الأتراك الهلع والخوف وحب المال في قلوب الجميع، في هذه المدينة العجيبة لو لم تتبه طوال الوقت ستكتشف أنّ أحدهم باعك أو وشى بك لقاء ريال إسباني واحد! حكى أنه حاول الهرب من سيده الأول وكان تاجرا يونانيا، ورغم أنه كان يختفي بالنهار ويواصل الهرب ليلا، لكن بعض الباشبوزق الذين يقومون بتحصيل الضرائب ألقوا القبض عليه طمعا في المكافأة من صاحبه التاجر.

قال هاشم حين لم يتمكنوا من هزيمتنا لجأ الأتراك أيضا للخديعة، كنا نختبي في الغابات ونهاجمهم ليلا فكبدناهم خسائر فادحة، كانوا يكمنون لنا عند منابع المياه، لكننا كنا نعتمد على منابع مياه سرية لا يعرفها أحد خارج قبيلتنا، وحين عجزوا عن هزيمتنا لجأوا لرجل دين معروف وطلبوا منه كتابة منشور ورّعوه على الناس، يقولون فيه إنهم جاءوا بأمر من خليفة المسلمين الذي تجب علينا طاعته، وأنّ قتال المسلم للمسلم حرام، صدّق بعض قادتنا ذلك وذهبوا للتفاوض، فألقى الباشا القبض عليهم وأرسلهم إلى الخرطوم في الأغلال حيث أعدموا على الخازوق!

كان هناك أيضا شابٌ صغير، فاحم السواد، وسيم الوجه، اسمه كوكو، تتحرّك عينيه القلقتان الجميلتين بسرعة في كل اتجاه، بعكس الهدوء الشديد الذي يبدو عليه من أول انطباع، قال حين توجهت إليه العميون: قال لي أبي بحزن، اذهب معهم يا بني، لو لم تذهب معهم سيأسرون أخواتك وإخوتك الصغار! والده كان زعيما لعشيرة صغيرة في الجبال، يحضر الأتراك كثيرا إلى المنطقة بحثا عن الذهب وعن الرقيق، كانوا يفرضون على كل زعيم محلي تقديم عدد معين من الرقيق كل عام، كان الموسم المنصرم فاشلا فلم يتمكن أبي من توفير العدد المطلوب منه من الرقيق، وحين حضر الأتراك رفضوا عرضه أن يضاعف لهم العدد في العام القادم، قالوا سنأخذ هذا الصبي! أعطاهم والدي البقرة التي يشرب الأطفال الصغار من حليبها بعد أن اضطر لبيع معظم أبقاره ليدفع الضريبة، أخذوا البقرة وأخذوني أيضا!

اقترح بادي عليهم أن يهربوا، أوضح لهم: لو استطعنا الوصول إلى المسلمية لديّ صديق تاجر هناك وعد بمساعدتي حتى أتمكن من الحصول على مشروع زراعي، لن نحتاج إلى ساقية أو شادوف هناك، تتولى السماء سقي الأرض! يقولون إن الأمطار لا تتوقف إلا في موسم الحصاد! أو نساfer إلى جبال الذهب إما غربا جبال تقلي أو شرقا جبال فازوغلي. كان الشباب مترددين خوفا من العقاب الانتقامي في حال وقوعهم مرة أخرى في يد سيدهم التركي.

سأل بادي عن جمعة وخير السيد والبلال، أطرق نوري حزينا حين سمع أسماء الرفاق الثلاثة، تساءل بادي بقلق إن كان قد

حدث لهم مكروه، قال نوري إنَّ جمعة مات، ولم يقل شيئا آخر،
أطرق بادي حزينا وتساءل هل مات أثناء ترحيله إلى هنا؟

قال نوري إن جمعة بيع لتاجر أجنبي من بلد يسمى صقلية،
كان مفروضا أن ينضم لإحدى كتائب الجيش، لكنَّ طبيب الجيش
استبعده بسبب إصابته بعرج خفيف لم يكن ظاهرا أثناء المشي، من
سوء حظه أنَّ الأتراك كانوا قد عادوا من إحدى غزواتهم جنوبا
أو شرقا بعدد كبير من الرقيق ضمومهم لفرقة الجيش، فلم يكن
هناك نقص كبير في ذلك الوقت في عدد الجنود، الذين تموت منهم
أعداد كبيرة في موسم الصيف بسبب الملاريا والإسهال، فيضطر
الأتراك لقبول كل الرقيق الذين يحصلون عليهم كضرائب من كبار
التجار وزعماء القبائل، قاموا ببيع عدد من الرقيق المرضى الذين لم
يقبلوا في الجيش لعدد من التجار الأتراك والأجانب، كان جمعة
من نصيب رجل لا يرحم كان يعذب رقيقه، وذات مرة نادى على
جمعة، يبدو أن جمعة لم يسمعه فلم يحضر من المرة الأولى حين ناداه،
فعدبه تعذيبا شديدا ومنعه من الطعام والشراب طوال ثلاثة أيام،
وجلده بالسياط وكواه بالنار في معظم أجزاء جسده، أفلت جمعة
من القيد الذي يبدو أنه لم يكن مربوطا جيدا وقام بطعن التاجر
الأجنبي فتوفي في الحال، قامت الإدارة التركية بإلقاء القبض على
جمعة الذي هرب واحتفى بإحدى مناطق كُرْدُفان، لكن زعيم
القبيلة اضطر لتسليمه بعد أن هدده الحاكم التركي بعقاب شديد
إن لم يسلم الرجل الهارب. قالوا إنه لا يستحق الموت بالخازوق
لأنه مجرد عبد قتل سيده، وقاموا بإعدامه بالمدفع!

أطرق بادي حزينا كان يتوقع أن يكون جمعة هو الثاني الذي يلتقيه بعد نوري، كان بادي يحبه جدا، وفي طفولته لم يكن يفتقر طوال اليوم منه ومن نوري وخير السيد. كان جمعة يحفظ من جدته قصصا كثيرة يجدها الصبية مسلية ومخيفة أحيانا، يحكي قصة الغول الذي اختطف فتاة جميلة وقام بتحويلها إلى حية حتى لا يتعرف عليها الأمير الذي كان يبحث عنها في كل مكان، وهو يحمل السيف السحري الذي كان السيف الوحيد في العالم الذي يستطيع قطع رأس الغول، أخبره الساحر الذي أعطاه السيف أن لا ينسى أن يقطع رأس الغول سبع مرات وإلا فإن الغول سيطارده مرة أخرى، نسي الأمير في غمرة عجلته لإنقاذ الأميرة، وقطع رأس الغول ست مرات، وكاد يقطع رأس الحية أيضا لولا أنه تذكر قول الساحر: ستجد الأميرة في شكل حيوان لا تؤذيها، فقط ألق عليها قليلا من هذا الماء السحري الذي أعطاه للأمير في قارورة صغيرة. أنقذ الأمير الفتاة الجميلة وهرب بها على حصانه لكن الغول الذي نبت له رأس سابعة استطاع اللحاق بها واختطف الأميرة مرة أخرى وقتل الأمير. كان جمعة صاحب صوت جميل، كان يغني على الطنبور الذي صنعه بنفسه أغنيات يؤلفها بنفسه باللغة النوبية.

عاد بادي حزينا من ذكريات قصص جمعة، وقال: وأين دفن؟

قال نوري حزينا: قلت لك أعدموه بالمدفع، تناثر جسده ودمه،

لم يتبق شيء لندفنه!

تساءل بادي بعد صمت طويل شعر فيه أنه ليس هناك ما هو أقسى من القهر والظلم، سوى العجز عن مقاومته، وأين خير

السيد؟

قال نوري: جاءني قبل أكثر من عام وقال إنه مسافر جنوبا مع عدد من الجنود في رحلة مع خير تركي اسمه سليم قبودان لاكتشاف منابع نهر النيل، ولم يعد مرة أخرى، لا أعلم هل لا تزال تلك البعثة تبحث عن منابع النيل، أم أنهم عادوا إلى الخرطوم، لو كان عاد إلى الخرطوم لجا لزيارتي، ربما أرسلوهم في مهمة أخرى، هناك فرقة من الجنود أرسلت إلى جبال تقلي أيضا مع عدد من خبراء كشف الذهب. يقال إن المناطق التي ينبع منها النهر جنوبا تعج بالحيوانات المفترسة وتنتشر الحمى بسبب المستنقعات . . .

والبلال هل تعلم أين هو؟

هو أيضا قاموا بتجنيدته، وفي آخر مرة رأيته أيضا قبل أكثر من عام، كان مسافرا ضمن الفرقة التي رافقت محمد علي باشا في رحلته إلى مناطق الذهب في جبال فازوغي، سمعت أن الباشا لم ينجح في العثور على الذهب، ورجع غاضبا بسبب أن تقارير الإدارة في الخرطوم وتقارير بعض الخبراء الذين أرسلهم لاستكشاف مناطق الذهب كانت تزعم بوجود كميات ضخمة من الذهب، ويقال إن أحد هؤلاء الخبراء وهو أوروبي، قال للباشا إنه كان في زيارة لجبال فازوغي وشعر بالعطش فأحضر له بعض الأهالي ماء في إناء فخاري، واكتشف بعد أن شرب الماء أنه شرب معه جراما من الذهب! ووجد قعر الإناء بعد أن شرب الماء مليئا بالذهب! مثل تلك التقارير أغرت الباشا بالحضور بنفسه وعرفت من بعض الأرقاء أن الباشا كان متحمسا جدا وجلس بنفسه يغربل الرمال

في مجرى السيول في المنطقة، دون أن يعثر سوى على ذرات قليلة من الذهب! وبسبب غضبه الشديد من رجاله في الخرطوم أخذ معه نقودا كان قد أحضرها معه دعما للإدارة في الخرطوم! توقعت أن يعود البلال بعد سفر الباشا لكنني لم أراه مرة أخرى، ربما أرسل أيضا إلى مكان ما. تمردت بعض القبائل في الشرق ويقال إن هناك فرقة أنشئت بأوامر من الباشا لإرسالها للحجاز أو بلاد الشام.

عاد بادي عصرا إلى البيت الذي يقيم فيه في حي الترسة، واستأنف عمله مع زملائه في بناء الثكنة العسكرية، كانت فكرة بادي في البداية أن يسافر إلى المسلمية ليلتقي حاج النمر، الذي وعده بالمساعدة إن رغب في تجربة حظه في الزراعة المطرية، كان حديث حاج النمر عن المسلمية مشجعا جدا لبادي، قال حاج النمر إن فرص العمل بالزراعة أو التجارة في تلك المنطقة كبيرة جدا، حيث المنطقة تقع في طريق القوافل القادمة من غرب أفريقيا والقوافل القادمة من الحبشة، وقوافل الحجاج القادمة من بلاد الحجاز، كما أنها قريبة من الأراضي الخصبة الواسعة التي تروى بالأمطار، ومن الجبال التي يستخرج منها الذهب. لذلك تمتلئ أسواقها ببضائع من مختلف دول العالم، عطور وعقاقير وأقمشة هندية، والبخور والخرز والمشغولات الذهبية من بلاد بنط، والسيوف وشفرات الحلاقة والخيول الأصيلة والإبل. كان نوري ينوي أن يحاول إحضار والدته والزلال ويتزوج ويستقروا جميعا في المسلمية، كان يخشى إن تأخر كثيرا أن يقوم نائب الملك ببيع والدته وخالاته، فقد كان الرجل يحتاج لكثير من المال للصرف على مباحجه اليومية، ويبدو أن الكثيرين ممن يحتفظون بنصيب

الملك من محاصيل الأراضي الزراعية التي يتقاسمون ملكيتها أو يستأجرونها من الملك، معظمهم لا يثقون في نائب الملك لذلك يفضلون انتظار عودة الملك التي لا يعرف أحد متى ستحدث، نظرا لظروف السفر الشاقة إلى الحجاز. سمع بادي أن بعض الحجاج يضطرون للبقاء في الطريق عدة سنوات، يعجزون عن مواصلة السفر بسبب المرض، بعضهم يجد الحياة أفضل في المنطقة التي قضى فيها وقتا طويلا للاستشفاء من مرضه، فيستقر فيها إلى الأبد ولا يعود إلى دياره، والبعض يموتون في الطريق خاصة لمن تصدف عودتهم موسم الأمطار الذي تنتشر في أعقابه الحمى والدوسنطاريا بسبب توالد البعوض والذباب بكثرة في فصل الخريف.

كانت وجهة نظر نوري أن يجربا حظهما في الذهب أولا، بدلا من الزراعة، قال نوري: عشر بعض الناس على كنوز ذهب منذ اليوم الأول لوصولهم لمناطق التنقيب عن الذهب، أفصح لبادي عن نيته شراء حريته وحرية الفتاة التي يجبها، الزراعة ستستغرق وقتا طويلا ولن يكون الموسم ناجحا ما لم يكون موسم الأمطار جيدا، وإذا رغبا في زراعة مساحة واسعة فذلك سيستغرق جهدا كبيرا لأن الزراعة تتم بالسُّلوكَة، وهي آلة تعمل بمجهود شخص واحد، وليس بواسطة ثور أو حمار مثل المعدات المستخدمة للزراعة في مناطق أخرى. ويجب أن يستخدم أيدي عاملة كثيرة وسيحتاج ذلك مال كثير للدفع لهؤلاء العمال، أوضح له أن معظم المزارعين في الغالب يعتمدون في الزراعة على الرقيق لذلك لا تكلفهم العمالة كثيرا. كان بادي يريد العمل لبضعة أسابيع حتى يتمكن من

توفير نقود قليلة لنفقات الرحلة للبحث عن الذهب، رغم إرهاق العمل لكنه صبر عليه، بعد أربعة أسابيع بدأ رحلتها. كان نوري قد اتفق مع رفيقه على تغطية هروبه، انتهز فرصة سفر التاجر التركي لجلب الصمغ من كُرْدُفان، لحسن الحظ يبدو أن التاجر التركي كان ينوي جلب بضائع كثيرة فقد رافقه في رحلته الأخيرة عدد أكبر من الرقيق، بما فيهم الرقيق الذين كان يكلفهم بمراقبة بقية رقيقه، انتهز نوري فرصة الفوضى التي حدثت في السوق، نتيجة هجوم عدد من الجنود الأتراك على السوق لجمع الضرائب والبحث عن بعض التجار المتهربين من دفع الضرائب، وتبع بادي إلى خارج السوق، ركب الحمار خلف بادي وبدأ رحلتها الطويلة بالاتجاه جنوبا.

اتجه جنوبا بمحاذاة النيل الأزرق وحاولا الاختباء في المزارع حتى يحل الظلام، في الصباح كانا في الكاملين، توقفا ليأكلا شيئا ويتزودا ببعض الطعام، توقفا في بعض المزارع بجانب النيل الأزرق بسبب وجود بعض الجنود الأتراك يبدو أنهم كانوا متجهين إلى مدني، أخبرهم بعض المزارعين أن الخواجة بوير مدير مصنع الصابون والخمور التي تُصنع من قصب العنكوليب، في حاجة لعمال موسمين للمساعدة في جني القصب أو العمل في المصنع، كان نوري يفضل أن يواصل السفر، كان يخشى أن يرجع التاجر التركي من سفره ويكتشف غيابه ويسعى في أثره، لكن بادي اقنعه بأنها في أمان ما دام استطاعا الخروج دون مضايقات من الخرطوم، وأن جبال فازوغي لا تزال بعيدة وسيحتاجان للمال لشراء حمار آخر، سيصعب عليهما قطع تلك المسافة البعيدة

على ظهر حمار واحد، إضافة لحاجتها لشراء معدات للحفر حين يصلان إلى الجبال، كانت ملابسها وأحذيتها قد اهترأت وسيحتاجان لشراء ملابس وأحذية. اقتنع نوري، كان الخوف يملأ نفسه بسبب معرفته بقسوة التاجر التركي الذي ضرب ذات مرة إحدى رقيقه وكانت فتاة صغيرة، بسبب شكوكه في وجود علاقة لها مع رجل كان ضمن رقيق تاجر منافس له، كان يحصل على أجود أنواع الصمغ العربي بأسعار رخيصة بسبب علاقته القديمة الجيدة مع بعض الموظفين المحليين، توفيت الفتاة الصغيرة أثناء التعذيب فلم يكلف نفسه حتى عناء أن يقوم بدفنها، سحب جثتها وألقاها في خور خلف المنزل، ولم يتعرض له أحد بالسؤال، تمكن نوري وبعض العبيد الآخرين من التسلل ذات ليلة فقد فيها التاجر التركي وعيه بسبب إسرافه في الخمر، وسقط في الفناء أثناء محاولته الذهاب إلى خارج البيت لقضاء حاجته، حمله عدد من الرقيق لوضعه في فراشه، كان يتبول أثناء ذلك ويشتمهم ويحاول ضربهم.

انتهزوا فرصة عدم وعيه بما يحدث حوله، وقاموا بدفن جثمان الفتاة الصغيرة الذي بدأ في تلك الأثناء في التحلل والتعفن بسبب حرارة الجو.

ذات مرة عاد من إحدى رحلاته بشاب صغير، كان واضحاً عليه أنه لا يحتمل الحياة الجديدة التي وجد نفسه فيها، بعد حياة جميلة وسط أبناء عشيرته، حاول الهرب وأصابته حالة من اليأس حين فشل في ذلك، فلجأ لمحاولة الانتحار محاولاً أن يتخلص من

الحياة. أصيب بجروح وكسور حين ألقى بنفسه من على سقف البيت، لكنه لم يموت، كان التاجر مسافرا، عاد بعد أيام من رحلة إلى جنوب كُرْدُفان، محملا بالصمغ وريش النعام والعاج. وحين عرف بأن أحد عبيده حاول الانتحار، استشاط غضبا وكان يصيح بصوت مزلزل أن لا حق لأحد في الموت بدون إذنه، لأن الجميع ملكه، وهو من يقرر من يجب أن يموت، إنهال ضربا على الصبي الجريح، ثم أحضر حبلا ضخما يستخدمه في حزم بضاعته على الإبل، لفه حول عنق الجريح وأمر عبيده بخنق الصبي، كان العبيد يسحبون الحبل برفق أملا في أن تهدأ نوبة غضب السيد ويعفو عن الصبي، لكنه حين لاحظ تراخي عبيده في تنفيذ الأمر انهال عليهم ضربا، ثم أمسك بالحبل بنفسه وخنق الصبي حتى فارق الحياة.

طمأنه بادي، يعمل كثير من الرقيق هنا في المزارع والمصنع، لن يستطيع أحد التعرف علينا في وسطهم، ولن يتوقع أحد وجود رقيق هارب هنا.

يبدأ العمل فجرا في مزارع القصب على ضفاف النيل الأزرق. مع بداية موسم الحصاد ظهرت الطيور المهاجرة من أقصى الشمال، طيور جميلة ملونة، جعلت بادي يتذكر الزلال، لا بد أنها تجلس الآن إلى النول الكبير تنسج خيوط القطن، في صالة البيت التي تظللها أشجار النخيل، حيث صمت الحياة في ساعات الضحى، لا يقطعه سوى تغريد القمري فوق أشجار النخيل، وصوت أشخاص ينادون بأعلى صوتهم بجانب شاطئ النيل، حتى يسمع من بالضفة الأخرى صوت نداءهم ويرسلون المركب الشراعي،

وصوت خوار ثور أو نهيق حمار.

تذكر بادي جمعة بحُزن، كانا يصنعان سويا فخاخا بدائية لصيد الطيور المهاجرة، يستخدمان عيدانا صغيرة قوية يقطعانها من فروع شجرة السنط، ثم يستخدمان خيوطا قوية من سبائك التمر في موسم الحصاد، أو يقومان بجدل حبال صغيرة من أوراق شجرة الدوم، كان الطائر في الغالب يلتقط حبوب الذرة دون أن ينطلق الفخ، رغم أن جمعة قام بتطوير الفخ حين أحضر له بادي ساعة حائط قديمة محطمة من قصر الملك، كان قد سمع أن رحالة أجنبيًا أسمه بوانسيه أهداها للملك، لكن الساعة تحطمت بعد أن سقطت من الحائط، استخدم جمعة أحد الأسلاك المرنة التي عثر عليها داخل الساعة لصنع فخ أكثر حساسية يفتح بمجرد لمسه، لكن يبدو أن دفن الفخ داخل الأرض كان يعطل قوته، حتى أن الطيور التي كانت تراقبها كانت تبحث عن الحبوب في المكان الذي يدفن فيه الصديقان الفخ ويعيدان تسوية الأرض حتى لا تظهر أية آثار لوجود شيء في المكان، كان خير السيد هو الذي اقترح عليها أن يصنعا مخبأ من الحشائش وفروع الشجر، ويجاولان إمساك الطيور التي تحط فوق فروع المخبأ وتبحث عن حبوب الذرة التي ينثرها الصبية حول المخبأ، كانت تلك الفكرة أفضل من الفخ، استطاعوا اصطياد عدد من الطيور ساقها حظها السيء لتبحث عن حبوب الذرة بجانب المخبأ، كان البلال متخصصا في ذبح العصافير وشيها على النار التي يشعلها في جريد وبقايا جذوع النخيل، بعد الأكل كان جمعة يعزف ويغني على الربابة ويغنون جميعا معه.

ذات مرة قضى بادي وجمعة وخير السيد والبلال النهار كله يصطادون الطيور، كان البلال قد صنع قفصا جميلا من جريد النخيل، كان تحفة فنية، لدرجة أن جمعة اقترح عليه: لماذا لا نصنع أقفاصا مثل هذه ونبيعها في السوق؟ يحتاج إليها الناس لحمل طيور الحمام والدجاج إلى الأسواق، اقترح خير السيد: ولماذا لا نبيع الطيور التي نصطادها؟

ضحك بادي وقال: سمعت أنهم في بعض البلاد البعيدة يبيعون الطيور، لكن تلك طيور مختلفة لا تظهر هنا في بلادنا، طيور تغني أو تتحدث مثل البشر!

ضحك جمعة من فكرة الطائر الذي يتحدث مثل البشر وقال: سمعت قصصا كثيرة من جدتي عن تلك الطيور التي تخاطب الناس، لكن ذلك يحدث فقط في بعض البلاد التي يكون معظم سكانها وطيورها وحيواناتها من السحرة!

كان الخواجة بوير يشرف بنفسه على العمل، رجل أبيض طويل القامة، لوّحته الشمس الحارقة فبدا وجهه كأنه مصبوغ بلون النحاس، يرتدي ملابس تشبه ملابس الجنود سوى أنّ لونها قاتم مثل لون الطين، لا ينقصه سوى عصا ساحر ليشبه إحدى شخصيات القصص الشعبية، التي تصنع بعض المعجزات لكنها تعجز عن تأمين لقمة الغذاء للأطفال الصغار ولأمه المسنة، في بيت يقع على سفح جبل يطل على مدينة تنام في حضن نهر ثائر، كان يتفحص أحيانا ويحمل قلب المدينة كله في هيجان انتفاضته الموسمية، يحمل الحوانيت القديمة المصنوعة من الخشب

والقماش، يحمل الحيوانات الأليفة المعروضة للبيع، يحمل العبيد الذين يعملون في معاصر زيت السمسم، التي تسحب الثيران دواليها الخشبية الشبيهة بدواليب الساقية التي تسحب المياه. وفي بناء ثكنات للفرقة التي أمر الباشا بإنشائها لتأديب ملك الحبشة.

تقوم مجموعة بقطع قناديل الذرة وجمعها في كومة واحدة حيث تقوم مجموعة أخرى بدرسها بواسطة العصي قبل نقل المحصول إلى المطاير. بادي ونوري كانا يعملان طوال اليوم في قطع عيدان القصب بواسطة منجل معقوف، يكومون السيقان فوق بعضها بينما يقوم آخرون بحزم الأعواد، التي تستخدم علفا للأبقار والبهائم، عدا قصب العنكوليب الذي ينقل إلى المعصرة التي يعمل عليها الرقيق، ويستخدم في صناعة نوع من الخمر المحلية وفي صناعة الصابون. كان العمل يستمر طوال اليوم حتى مغيب الشمس، يتوقفون فقط لتناول وجبة واحدة منتصف النهار، ويتوقفون مرة أخرى لشراب الماء ومضغ قصب العنكوليب الذي يعطيهم طاقة لمواصلة العمل. يغنون أثناء العمل، بعض الرقيق الذين ينتمون إلى مناطق الأنتسنا كانوا يحملون معهم مزمار الوازا، يعزفون عليه بالتناوب أثناء العمل، ويغنون طوال الوقت أغنية تبدأ وتدور حول مقطع:

أربأة جدادات ياتي دلوما أغورشي قلن بالو
أشان أمدشي يا بشينة.

أغنية تحكي قصة مزارع يعاتب زوجته، لأن دجاجاتها قضت على بذور الذرة النادرة التي كان يذخرها لزرعتها في موسم المطر.

(9)

نوري كان لا يهدأ ويشعر قليلا بالأمان إلا عند حلول الليل، يتناول العمال عشاءهم من عصيدة الذرة مع المرق وأحيانا مع اللبن الرائب، ويتوزعون للنوم في الأرض الفضاء المخصصة لدرس المحصول أو تخزين حزم القصب لحين توزيعها أو نقلها للمعصرة. السماء صافية والجو يميل قليلا للبرودة ليلا، يلتحف العمال أغطية من جلود الخراف، لكن هدوء الليل وصوت زيزان الحقول وضوء النجوم البعيدة، الذي يتسرب إلى الدنيا مخلوطا بعبير النوار الذائب في نسيم الليل، يثير في النفس حزنا خاصا، يتذكر بادي الزلال، يشعر بدفء طيبة قلبها، وروحها التي ترفرف مثل أنسام ليلة صيف، فتجعل العالم محتملا، حتى حين ينهار كل شيء، حتى وهو يفقد أصدقاءه، بالموت أو الغياب، تتراجع دموعه ووجع قلبه حين تتربع صورتها فوق عرش النجوم الذي يزين قبة الليل.

بعد أذان الفجر يستأنفون يوما جديدا من العمل الشاق، حسبوا أنفاسهم بعد أسبوع من بدء العمل على منظر عدد من الجنود الأتراك، اقتربوا منهم، وراحوا يتفرسون في وجوه العمال واحدا واحدا ويسألونهم عن أسمائهم، أصيب نوري بالرعب واختبأ داخل أجمة من القصب كان يقطعها بالمنجل لحزمها كعلف للحيوانات، نادى المراقب على كل العمال فاضطر نوري للظهور،

لكن الجند لم يتوقفوا عنده كثيرا، طلبوا تفتيش مخازن العلف والمعصرة، ثم غادروا المكان فجأة. أوضح مراقب العمال لاحقا أنّ الجنود يبحثون عن رجل يعمل مع الباشبوزق في جمع الضرائب، وقد اختفى قبل ثلاثة أيام ومعه كميات من الذهب، التي فرض رجال الضرائب على زعماء العشائر والتجار الأثرياء جمعها من المزارعين والرعاة الفقراء، بناء على طلب الباشا.

حين يفرغون من العمل مبكرا كان بعض العمال يذهبون إلى بعض بيوت شراب الخمور القريبة، كان هناك عدد من بائعات الهوى يعملن لحساب أصحابهن من التجار أو الجنود، كان بادي ونوري يذهبان مع العمال أحيانا لشراب المريسة المصنوعة من الفترتية، ونوع من العرق مصنوع من عصير قصب العنكوليب، لكنهما لم يقتربا من الفتيات، كان الاثنان غارقين في الحب ولم يرغبتا في تحمل ذنب خيانة مبكرة.

كان البيت عبارة عن فناء كبير يحده من الحقول المتناثرة أمام النيل الأزرق جدار قصير من الطين اللبن، تناثر رواد البيت في الفناء، مما يعطي البيت منظر سوق ليلي، يجلسون على الأرض على حصائر مصنوعة من سعف النخيل والدوم، كانت هناك غرف مخصصة لبائعات الحب في الجانب المواجه من الفناء، مبنية من فروع الأشجار وحصائر السعف، وخلف تلك الغرف الصغيرة، تمتد في خط غير مستقيم عدد من الحفر التي تستخدم كأفران بلدية يحرق فيها خشب الطلح المعطر لتسخين الأجساد قبل تقديمها لعشاق الظلام المتعجلين، الذين يقضون وطهرهم وقوفاً في ظلام

الغرف الضيقة، تفوح منهم رائحة البصل الأخضر ورائحة عرق الأجساد التي لم تر الماء منذ عدة أسابيع، رغم أن النيل الأزرق يكاد يعبر تحت أنوفهم.

كانت هناك قناديل متناثرة في الفناء، تشبه فراشات تبحر في الليل، تضيء فقط نطاقا ضيقا حول المكان الموضوعه فيه، فيما يغرق باقي الفناء في الظلام ورائحة الحقول القريبة وتأوهات الحُب المعطر خلف جدران فروع الأشجار والسعف، بينما يغرق السكارى المحزونون في مشاعر مختلطة كأنّ رائحة دخان الحُب التي تعبق في المكان، تثير فيهم شعورا غامضا بالذنب بسبب أوهام غير متحققة.

بعد ثلاثة أسابيع من العمل أبلغهم المراقب أنّ العمل في الحقول انتهى، سيتوقف كل العمال الموسمين ويبقى فقط العمال الذين يعملون في المعصرة، حصل بادي ونوري على أجرهما عن أيام العمل واستأنفا السفر فورا، كان حمار بادي الهزيل قد تحسنت حالته كثيرا بسبب الغذاء الجيد طوال فترة عملهما في المزارع، كان الحمار مربوطا مع عدد من الحمير، في المزارع التي تم حصاد الذرة فيها أولا، كانت الأرض غنية بالحشائش وبقية القصب الذي لم يقطع جيدا، أصبح الحمار قويا يمكنه تحملها معا، لكنها كانا يتبادلان الركوب حتى لا يرهق الحمار مرة أخرى، كان ما معها من مال يكفي لشراء حمار آخر، اقترح بادي أن يشتريا الحمار من سوق المسّلمية وأن يبقيا هناك لبعض الوقت إن وجدا عملا قبل استئناف الرحلة، لم يرحب نوري بفكرة البقاء طويلا في المسّلمية،

كان يشعر أنها سيكوننا بأمان كلما تقدما جنوبا، كما أنه كان يخشى أن يقوم التاجر ببيع سمراويت قبل عودته لشرائها، يرغب كثير من التجار في شراء الفتيات الجميلات لإجبارهن على العمل في البغاء.

في منتصف النهار توقفا وأكلا قليلا من التمر وشربا الماء من النيل الأزرق، قبل أن يستأنفا المسير، توقفا في نهاية نهار اليوم التالي في أربيجي في مسيد إحدى الطرق الصوفية الذي يعج بطلاب القرآن وطلاب الحاجات، كانت المدينة تبدو جميلة بمبانيها القديمة التي تحيط بها غابات كثيفة، تناولوا العشاء مع الطلاب وبعد صلاة العشاء ناما من فرط الإرهاق فوق حصائر الصلاة، أيقظها الطلاب فجرا لأداء صلاة الفجر، بعد صلاة الفجر شربا مشروب الحلبة الممزوج باللبن، وأكلا بعض الخبز المصنوع من دقيق الذرة والتمر، أعطاهم الطلاب بعض خبز التمر ليتزودا به في الطريق، كانت أول خيوط الشمس تتسرب في الساحات وفوق مباني المدينة القديمة، حين ودّعا الطلاب وخرجا إلى الطريق، استغرقت الرحلة يوما واحدا إلى مدينة المسلمية.

وصلا مساء الاثنين، سأل بادي عن حاج النمر، لم يتعرّف عليه أحد ممن سأهم في الطريق، يبدو أنهم من الغرباء فقد كانوا يقودون إبلا محملة ربما ببضائع لعرضها في يوم السوق، كان ذلك صحيحا فقد أبلغها شخص آخر أنه يمكنهما العثور على الشخص الذي يبحثان عنه غدا، يوافق يوم الغد الثلاثاء يوم السوق الأسبوعي في المدينة، ورغم ازدحام السوق كما أوضح لهما الرجل لكن يمكن

العثور فيه على كل الناس، وقال الرجل ضاحكا: إذا بحثتم جيدا ستجدون السلطان سليم نفسه موجودا! ضحك بادي وتوجس نوري خيفة من كلام الرجل، فهم منه حسب مخاوفه أنه سيكون هناك كثير من الأتراك، سيده التركي نفسه ربما يكون موجودا، فهو يسافر كثيرا، هو يسافر دائما غربا إلى كُرْدُفان لكن ربما يمر أيضا بالمسلمية التي كانت أهم مركز تجاري بعد الخرطوم في ذلك الوقت، وملتقى لطريق القوافل القادمة من الشرق والغرب والجنوب. لم يسمع أبدا من قبل أن سيده التركي يسافر إلى المسلمية، لكن ربما يزورها في طريق عودته من الغرب لشراء العاج وريش النعام أو ربما يرسل من يبحث عنه، خاصة وأن المسلمية سوق كبير يقع وسط منطقة زراعية وربما يتوقع أن يقوم نوري بالاختباء والعمل في مناطق الزراعة المطرية، هناك سيصعب العثور عليه، لكن مؤكدا أنه سيحضر إلى السوق أحيانا حيث يمكن أن يكمن له بعض رجاله.

قرّر نوري ألا يجازف، وافق بادي حين لاحظ أن نوري خائف جدا من الذهاب إلى سوق المدينة في اليوم التالي، قال له: يمكنك الانتظار في الغابات القريبة أو إن عثرنا على حاج النمر يمكنك أن تبقى في بيته، وسأذهب أنا إلى السوق لشراء الحمار وبعض الطعام ثم نستأنف سفرنا.

سارا على غير هدى أملا في أن يجدا من يدهما على بيت حاج النمر، عبرا مصادفة بجانب أحد مساجد المدينة كان المؤذن ينادي لصلاة العشاء، كان هناك شيخ كبير يحث الحُطى باتجاه المسجد،

أوقفه بادي وسأله إن كان يعرف بيت حاج النمر، توقف الشيخ قليلا كأنه يتذكر شيئا ثم سأل: هل يعمل في تجارة الحمير؟

أجابه بادي بالإيجاب، أشار لهم إلى اتجاه الشمال، أوضح أنّ معظم التجار يسكنون في الجانب الشمالي بعد السوق، وأنهم لو سألوا أي شخص هناك فسيدلهم عليه.

كان اللقاء حارا مع المعلم النمر وولده، كان واضحا أنّ الرجل قد تجاوز أحزان فقد ولده الأكبر، رحّب ببادي ترحيبا حارا وأمر ولده إسماعيل بإحضار خروف من الزريبة القريبة من البيت، قام بنفسه بذبح الخروف لإعداد العشاء للضيفين، كان التاجر النمر يعيش في بيت كبير مع زوجتين وعدد من الأولاد والبنات، أصبح إسماعيل الآن أكبر أولاده بعد وفاة ولده الأكبر، ولده الثاني عبد الله الذي رافقه في تلك الرحلة المشؤومة، كان في تلك اللحظة قد خرج ليطعم الحمير، من زوجته الثانية كان لحاج النمر أيضا ثلاثة أولاد وبنت واحدة كانوا جميعا صغارا في السن، أكبرهم عمره حوالي ثماني سنوات، حكى له بادي كل ما وقع لهم منذ افترقا قبل حوالي العام، أبلغه المعلم النمر أنه عاد ليعمل بالتجارة في المدينة ويذهب للزراعة في مزرعته في موسم الأمطار، بالإضافة لعمله في الحمير كان يسافر أحيانا جنوبا لاصطياد القروود من الغابات الاستوائية، ويقوم ببيعها في سوق المسّلمية لتجار معظمهم من بلاد بعيدة، تساءل بادي مندهشا عما يفعل التجار بالقروود، هل يبيعونها لمن يأكلون لحومها؟

ضحك حاج النمر وقال: هناك في بعض البلاد يأكلون لحوم

القرود كما سمعت، لكن التجار الذين يشترونها يبيعونها لبعض الناس الذين يقومون بتدريبها على عمل بعض الأعمال المضحكة، تقوم بالرقص والغناء ويدربونها على القيام بحيل صغيرة لتسلية الناس!

تذكر بادي أفخاخ عصافيره التي فكّر يوما في بيعها، وسأل وهل توجد فخاخ كبيرة تستخدم لصيد القرود؟

ضحك المعلم النمر وقال: لن تصدق، نستخدم المريسة في صيدها! القرود مثل البشر يحب الخمر والمجون! نضع له المريسة في أوعية فخارية تحت الأشجار ونختبئ، حتى تنزل القرود وتشرب المريسة، وحين تسرف في المريسة تستسلم للنوم، حين تستيقظ تجد نفسها في أفقاص على ظهور الإبل أو الحمير بعيدا عن بيوتها في الغابات!

ضحك نوري وعلّق: الإسراف في الشراب دائما له عواقب وخيمة، يقال أنّ رجلا في قرينتنا ذهب إلى أحد بيوت الشراب وكان يحمل في جيوبه مالا كثيرا، وطفق يشرب ويطلب المزيد، واكتشف أنه يستطيع أيضا أن يغني حين يشرب كثيرا، وكانت الفتيات يغنين له: أنت نورك يغطي الدنيا مثل مصباح سحري، وحين أصبح الصباح أكتشف أنّ ماله كله ذهب ولم يبق له سوى الأغنية التي حفظها جيدا: أنت نورك مثل مصباح سحري! وحين طالب صاحبة البيت بماله، قالت له: لقد فقدت مالك كله، يحتاج المصباح إلى زيت ليشتعل، أم أنك صدّقت قصة المصباح السحري؟ هل تريد أن تضيء مثل مصباح سحري مجانا!

ضحكوا وتناولوا العشاء من لحم الضأن والأرز، كان عشاء شهيا لم يذق بادي مثله منذ غادر «السّاب». بعد العشاء وصل عبدالله ابن حاج النمر، كان لقاؤه مع بادي حارا، بذل بادي جهدا كبيرا حتى لا يبكي، كان عبدالله يشبه أحمد شبها غريبا، كأنّ ذلك الشبه ازداد فجأة كرد فعل على رحيل أحمد المأساوي، فحين كان الثلاثة يجلسون فوق الرمال الباردة وينشغلون بإحصاء النجوم، لم يلحظ بادي ذلك الشبه الكبير بين أحمد وعبدالله.

أحضر حاج النمر لهم بعض المريسة، وقال ضاحكا: لا تخشوا شيئا، هذه كمية قليلة من المريسة لن تجعلكم تضيئون مثل مصباح سحري وتفقدون أموالكم!

ابتسم بادي وقال: ليس لدينا على كل حال مال كثير لندفع ثمن الزيت السحري!

حكى لهم التاجر النمر قصة جريمة قتل، راح ضحيتها قبل أسابيع بعض التجّار الأثرياء الذين حلوا ضيوفا على تاجر آخر في المدينة، يبدو أنه كان رجلا بخيلا يجب اكتناز الأموال، حين عرف أنّ ضيوفه يحملون قطعاً من الذهب وكانوا في طريقهم جنوباً لشراء بعض البضائع والرقيق.

قاطع بادي مندهشا: وهل يعمل التجار المحليون أيضا في تجارة الرقيق؟ كنت أظن أنّ الأتراك والأجانب فقط هم من يعملون في ذلك.

يبدو أنّ بادي كان قد نسي أن والدته وأهلها كانوا أيضا من

الرقيق، لكنه كان قد سمع أن الملك اشترى رقيقه من بعض الجنود
كان يظن أنهم من جنود الأتراك.

قال حاج النمر: نعم يعمل تجار محليون في تلك التجارة
وبعضهم يعملون كأدلاء يرشدون الأتراك، لكن معظمهم
يذهبون لشراء أسرى المعارك بين بعض القبائل، ويقومون ببيع
الأصحاء للجيش التركي والبقية للتجار الذين يشتري معظمهم
النساء والأطفال.

ثم أكمل حاج النمر: حين شعر التاجر أن ضيوفه كانوا يحملون
كميات من الذهب قام بذبحهم ليلاً وهم نائمون واستولى على
أموالهم، يبدو أن بعض التجار تربطهم علاقة بالحاكم التركي،
الذي اهتم بالقضية وأرسل جنوده الذين اعتقلوا عدداً من التجار
من بينهم التاجر الذي ذبح ضيوفه، لكن قبل أن يعترف أي من
المتهمين أو يعاقب المجرم نقل الحاكم التركي وحين جاء خلفه
أطلق سراح الجميع، لا بد أنهم أعطوه الذهب فأغلق القضية.

بعد العشاء شربوا الحلبة الساخنة بالحليب، حكى لهم بادي
أنهم في طريقهم إلى فازوغلي للبحث عن الذهب.

قال حاج النمر: فازوغلي! كنت أظن أنك جئت لتستقر هنا
معنا وتبدأ مشروعاً زراعياً؟

أوضح بادي: أريد ذلك لكن في البداية نحتاج لترتيب أمورنا
ونحل بعض المشاكل، أنوي بعد ذلك أن أعيش معكم هنا،
أعجبتني هذه المدينة. كما تعلم الملك غائب وإن أصبح نائبه ملكاً

فلن أستطيع العودة إلى السّاب، لكنني أفكر في تهريب والدتي وخطيبي من هناك ونعيش جميعا هنا. إن استطعت توفير بعض المال يمكنني أن أرسل من يحاول دفع بعض المال لنائب الملك ليسمح لوالدتي بالسفر.

أوضح لهم حاج النمر: الذهب هناك يعتمد على الحظ، الباشا بكل جنوده لم يستطع العثور سوى على بعض ذرات قليلة، يقال إنه جلس بنفسه في مجرى السيل يغربل التراب بحثا عن الذهب. بعض الناس يذهبون لوحدهم وبدون حتى معدات حفر، ودون جهد كبير يعثرون على قطع من الذهب تنقلهم من خانة الفقراء إلى خانة الأغنياء.

أنعش كلام حاج النمر آمال نوري كثيرا في أن يستطيع قريبا شراء حرّيته وحرية حبيبته، بل ويتبق معه ما يكفي ليعمل في التجارة أو يشتري أرضا زراعية.

في الصباح بقي نوري في البيت وذهب بادي إلى السوق مع المعلم النمر وولديه، ومنذ دخولهم إلى السوق لاحظ بادي أنّ نوري كان محقا في مخاوفه، كان هناك العديد من الجنود ومن الأتراك والباشبوزق، يبدو أنّ السوق محطة مهمة في الطريق جنوبا، كل شيء يباع هناك: الخيول والحمير والأبل والأبقار والقروء، العقاقير القادمة من الهند وأوروبا، وكان هناك تاجر يعرض ما يشبه آلة سحرية، كان ينادي على بضاعته، من يريد رؤية وجهه فليأتي إلى هنا! مرآة ذات مقبض معدني، فرأى بعض الناس وجوههم للمرة الأولى بمثل ذلك التفصيل الدقيق، حيث

تظهر أدق تفاصيل التجاعيد الخفيفة في الوجه، وعظام الوجنتين البارزتين، والوجه المفروش بأنف ضخمة كاف ليسحب الهواء كله من حوله، بل ويقتلع الهواء من كل أنوف الآخرين، قال التاجر الذي رأى وجهه بوضوح في المرآة ضاحكا:

الآن عرفت لماذا رفضت النساء الزواج مني! ثم أوضح: مرآة المياه لا تعطي صورة دقيقة، وأقل نسمة أو شيء يحرك المياه، يجعل الوجه يتحرك أيضا مبحرا كل جزء فيه في اتجاه!

قال أحدهم: أحضرت واحدة من الحجاز قبل سنوات لكنها لم تكن بمثل هذا الوضوح، ولأنّ زجاجها لم يكن سميكا فسرعان ما امتلأت بالثقوب الضوئية. أجرى الرجل عرضا عمليا لحلاقة الذقن بالأمواس الهندية التي كان يعرضها للبيع، أحضر أحد رقيقه وعاء من الطلس به ماء، وضع نوعا من الصابون على لحيته وفرك الصابون على الشعر بقوة بفرشاة خشبية لها شعر مثل رأس قطة، حتى أصبحت لحيته مغطاة برغوة الصابون، أمسك له الصبي بالمرآة وأمسك هو بموس الحلاقة عرضه على الجمهور بثقة من اخترعه بنفسه، ثم سحب علبة خشبية صغيرة أخرج منها آلة صغيرة تشبه السكين سحب شفرتها للخلف ووضع موس الحلاقة داخلها ثم بدأ يخلق لحيته، تناثر الشعر المغطى بالصابون على الأرض مثل البصاق، وأصبح وجهه بعد قليل نظيفا جدا كأنه وجه طفل مولود في تلك اللحظة. صقق له الحضور، مسح وجهه بقطعة قماش، ووضع ماكينات الحلاقة على المنضدة أمام دكانه فتدافع البعض لشرائها.

لم يكن لحاج النمر دكان في السوق، كان أولاده يعرضون الحمير للبيع في الساحة خلف السوق، أوضح لبادي أنه سيسافر قريبا إلى الجنوب لاستجلاب شحنة من القروء. كما أنه يفكر أيضا في جلب العاج وخشب الأبنوس الذي يستخدم لصناعة التماثيل ولصناعة بعض المشغولات الصغيرة مثل الأسورة والعقود، وأنه سيحتاج إلى دكان حين يبدأ العمل.

قضيا النهار بجانب دكان تاجر صديق، كان حانوته بجانب حانوت لبيع السيوف، نصحه حاج النمر بشراء خنجر، أوضح له: أن سفرا طويلا بانتظاره وقد يصادف بعض قطع الطرق الذين تنشط عصاباتهم قريبا من حدود الحبشة. اشترى بادي خنجرين له ولنوري، تبقى له مبلغ قليل بعد أن دفع ثمن الحمار لحاج النمر، عرض عليه التاجر النمر أن يدفع له ثمن الحمار بعد أن يعود من رحلة فازوغلي، لكن بادي أصر على الدفع فورا، قائلا إنه لا يعلم متى يعود من هذه الرحلة.

في البيت أعطاه حاج النمر سرجا جديدا للحمار مصنوعا من الخشب وجلد الثور ومحشوا بالقطن، ورفض أن يأخذ ثمنه. قررا أن يستأنفا السفر فجر اليوم التالي، أعد لهما حاج النمر كمية كبيرة من الأغذية تكفيهما لنهاية الرحلة، خبز مجفف، لحم ضأن مجفف، بصل مجفف، سمك مجفف، تمر وذرة علف للحمير، أوضح لهما أن الذرة يمكنها الاحتفاظ بها احتياطا، لأنهما سيدخلان نطاق المراعي الواسعة جنوبا فربما لن يحتاجا لعلف للحمير التي يمكن أن ترعى بقايا حشائش موسم الخريف، قاما بتوزيع المواد الغذائية

على الحمارين، حملا أيضا معها مؤونة قليلة من ماء الشراب، لأنّ خط سيرهما سيكون دائما قريبا من النيل الأزرق، ودّعهما المعلم النمر بعد أن شرح لهما الطرق الأفضل للعثور على الذهب في مجاري السيول، وأوصاهما بشراء بعض الأوعية الفخارية التي تستخدم في البحث عن ذرات الذهب في المياه الموحلة. نصحهما بشرائها بعد وصولهما من أحد الأسواق القريبة، لأنّ حملها على الحمير لمسافة طويلة سيكون مرهقا لها، في وقت هما في حاجة لطاقة الحمير وحتى لا تصبح الحمولة ثقيلة عليها مع المواد الغذائية التي يحملانها.

توقفا في منتصف النهار ليرتاحا قليلا، توقفا بجانب غابة صغيرة من أشجار السنط والمجليج، أعدّا وجبة من عصيدة الذرة ولحم السمك المجفف، وشربا مغلي الكركدي بالسكر، كانت ملابسهما قد أصبحت مهلهلة، اقترح بادي أن يعملا لبضعة أيام إن وجدا عملا في الطريق حتى يستطيعا شراء بعض الملابس، وشراء المعدات اللازمة للعمل في جبال الذهب. لم يكن نوري يبدي حماسا للتوقف، قال: لو أسرعنا بالوصول لمناطق الذهب ربما نكون محظوظين وحتى إن عثرنا على كمية قليلة يمكننا شراء الملابس وما نحتاج من معدات بعد أن نعثر على بعض الذهب.

واصلا السير دون توقف، عبرا بجانب عدد من المزارع والقرى المتناثرة بحذاء النيل الأزرق، أوقفهما مرة واحدة رجال الباشبوزق الذين يجمعون الضرائب، وسألوهما عن وجهتهما، وماذا يعملان وهل دفعا ما عليهما من ضرائب؟ أوضح لهم بادي أنها عاملان

فقيران يبحثان عن عمل، لكن بسبب نهاية موسم الحصاد لا توجد فرص عمل كثيرة، اقترح عليهما أحد الباشبوزق: يمكنكما الانضمام لفرقة من الجنود ستعبر من هنا خلال أيام في طريقها جنوبا لجلب الرقيق، سأهّم بادي باهتمام متى سيحضرون هنا وكيف يمكننا الانضمام إليهم؟ أوضح له الجندي أنّ القوة تحرّكت من الخرطوم، وربما تصل إلى مدني خلال يومين، ونصحه قائلا: يمكنكما انتظارهم في مدني، يحتاجون لتجنيد مزيد من الجنود في موسم صيد الرقيق.

سأله نوري وهم يواصلان رحلتها بعيدا عن الباشبوزق: هل تنوي حقا الانضمام لفرقة صيد الرقيق؟

ضحك بادي وقال: أردت فقط التخلص منهم، يمكنهم أن يعرفوا سيرنا، يمكنهم مطالبتنا بدفع ضريبة.

في الليل توقفا للحصول على بعض الراحة، توقفا في منطقة فضاء جوار غابة صغيرة. أصبحا يتعدان عن القرى، لتجنب مصادفة الجنود أو الباشبوزق. ربطا الخمارين ليرعيا بعض حشائش بقايا الخريف، ثم تناولا عشاء من عصيدة الذرة مع السمن والسكر، كان الهواء مشحونا بروائح موسم الجفاف وبأصوات الصبية يلعبون قريبا من النيل الأزرق، فجأة بدأ يظهر من خلف الأحرش قمر أصفر ضخم، كان يرتفع بهدوء من خلف أشباح أشجار الغابات الكثيفة، كأنه لا يريد أن يقلق نوم العالم، استغرق الاثنان في النوم بسرعة، استيقظا فجرا، أكلا بعض التمر وبقية عصيدة العشاء وربطوا أشياءهما جيدا على الحمير واستأنفا الرحلة.

في الضحى وصلا إلى مدني، عبرا بجانب ثكنات الجيش، شاهدا بيوت ضباط الفرقة الثامنة الجميلة تطل بشرقاتها الواسعة على النيل الأزرق، أحد البيوت كان يبدو بيتا لقائد الفرقة أو حاكم المنطقة، بيت عال من طابقين، له شرفة جميلة في الطابق الأول تغص بأصص الزهور ونباتات الزينة، عبرا بجانب قبة الفكي مدني، بجوار القبة شاهدا مسجدا ضخما مئذنته نصف متهدمة كأنها تعرّضت لزلزال أو ضربة مدفع، وصلا إلى السوق، لسوء حظهما لم يكن اليوم هو يوم السوق الأسبوعي، لكن بعض الحوانيت كانت مفتوحة، اشترى قليلا من السكر والملح، لديهما ما يكفيهما من مواد غذائية زوّدهم بها حاج النمر، ربما حتى وصولهما إلى نقطتهما النهائية أو على الأقل حتى يصلا مدينة سنّار، لم يكن ما معهما من نقود يكفي لشراء ملابس، ورغم أن نوري لم يكن يوافق على أي توقف في الطريق، لكن بادي اقترح أن يبحثا عن عمل لبضعة أيام في سنّار لشراء ملابس وربما احتاجا لشراء مزيد من الأغذية.

طمأنه بادي: تلك المناطق آمنة، يمكننا أن نتحرك الآن بسرعة حتى لا نلتقي بالفرقة الذاهبة جنوبا لصيد الرقيق، أوضح نوري: قال حاج النمر إننا لو سرنا بدون توقف لفترات طويلة فسنكون في جبال الذهب بعد أسبوعين.

في الطريق إلى سنّار كانا يتوقفان مرتين خلال اليوم للراحة والأكل وإطعام الحمارين. صباح اليوم الثالث وصلا إلى مدينة سنّار، كان بادي راغبا في زيارة المدينة التي سمع عنها كثيرا من

القصص والأساطير في طفولته، ورؤية السوق والبحث عن عمل، نوري كان خائفا قليلا رغم أن بادي أقنعه أن أحدا لن يتعرف عليه هنا. في وسط المدينة شاهدا قصر ملك سنّار القديم وقد بدأ البناء العالي المشيد في هيئة برج، بدأ في الانهيار، تشققت أسواره وتهدمت بعض طوابق البناء.

كان اليوم يوم السوق، لكن المدينة بدت لها شبه مهجورة، كان هناك سوق مخصص للرقيق بدا أكثر انتعاشا من سوق المدينة، الذي كان واضحا أنه تأثر كثيرا باختيار الأتراك للخرطوم كعاصمة بديلة لسنّار التي ظلت طوال قرون عاصمة للسلطنة الزرقاء. وكانت أهم مركز تجاري في القطر كله.

قرّر بادي ونوري مواصلة رحلتها، في المزارع الواسعة خارج مدينة سنّار شاهدا أعدادا كبيرة من الرقيق يعملون في تهيئة الأرض لموسم الزراعة القادم ورعي حيوانات أسيادهم، أخبرهم بادي إنهما يبحثان عن عمل، قال لهم رجل مسن أنه لا يوجد من يحتاج لعمالة إضافية في موسم الجفاف، أوضح لهم أن الموسم الزراعي سيبدأ بعد حوالي ستة أشهر، حينها تكون هناك حاجة لاستخدام عمال إضافيين لتنظيف الأرض من الحشائش قبل هطول المطر، أما العمل في فترة موسم الجفاف فيستطيع الرقيق القيام به كله.

سألها الرجل عن وجهتها فأوضح له بادي أنها يتجهان جنوبا. قال الرجل لقد بدأ موسم جمع الصمغ من أشجار الهشاب، في بعض المناطق التي تنتشر فيها أشجار الهشاب بكثافة يحتاجون لعمال في هذه الفترة من السنة.

واصلا طريقهما إلى سِنَجَة، قال لهما الرجل المسن إنَّ سِنَجَة أصبحت مزدهرة في الفترة الأخيرة رغم أنها كانت تعتمد في ازدهارها في الزمن الماضي على سِنَّار، لكن بعد سقوط سِنَّار في يد الأتراك هرب العديد من التجار، والأسر الكبيرة التي كانت تقطن أجيالها منذ قرون في سِنَّار، هربوا إلى سِنَجَة، فأُسَّهَم هؤلاء في انتعاش المدينة.

صباح اليوم التالي عبرا داخل غابة من أشجار الطلح والهشاب، كانت هناك أعداد من الرقيق يعملون في جمع الصمغ من الأشجار، توقف بادي وأوضح لأحدهم أنهم يبحثون عن عمل، كان فتى صغيرا يرتدي قطعة قماش حول وسطه ويحمل جرابا من الجلد يجمع فيه الصمغ، قال لهم الغابة كبيرة ربما يحتاجون إلى عمال، وأشار لهما ليتظرا وصول المراقب الذي يشرف على العمل. ربط بادي ونوري الحمارين ليرعيا الحشائش بعيدا قليلا عن الأشجار في مكان فضاء به عدد من الحمير يبدو أنها تخص بعض من يعملون في جمع الصمغ، قال بادي أتمنى أن نجد عملا حتى لو لمدة ثلاثة أيام سنحصل على بعض المال وتحصل الحمير على بعض الراحة لأن الجزء الباقي من الرحلة سيكون بدون توقف.

أكلا بعض التمر الذي تبقى لهما، لحسن الحظ وافق المراقب الذي وصل بعد قليل على أن يعمل، أشار لأحد الرقيق ليصحبها ويعمل معها، أشار لجزء من الغابة يقع في الجانب الشمالي وقال لهما ستعملان في ذلك الجزء. طلب منهما أن لا يعملا في البداية وأن يكتفيا بمراقبة كيف يعمل الصبي الذي أرسله معها حتى يتعلما

طريقة جمع وحفظ الصمغ.

أعطاهما جرايين لجمع الصمغ وحصائر يكوم فيها الصمغ على الأرض، طلبا من الصبي أن يحضر لهما بعض الماء، كانا يشعران بالعطش بعد أن نفدت كمية الماء التي كانت معها. شربا الماء وبدأ العمل، بعد أن راقبا الصبي وهو يعمل في البداية. كانا قد فرغا من حصاد عدد من الأشجار حين غربت الشمس، جاء عدد من العمال ورفعوا كمية الصمغ وحملوها على جملين، سيقومون بحفظها في فناء آمن لحين تنظيفه ونقله للعرض في سوق المحاصيل. دعاهما العمال لتناول العشاء معهم، كانت الفتيات قد أحضرن طعام العشاء قبل مغيب الشمس، أكلوا عصيدة الدخن مع المرق ومع اللبن الرايب، فضل بادي ونوري أن يقضيا الليل بجوار الغابة رغم أن العمال طلبوا منهما أن يرافقاهم إلى القرية القريبة لقضاء الليل، حين أصرا على البقاء في الغابة، نصحها رجل مسن أن يتركا النار مشتعلة قريبا منهما إذ تظهر في أحيان نادرة بعض الضباع في المنطقة.

مضت الليلة الأولى دون مشاكل، وفي الصباح بعد أن أكلا قليلا من التمر وشربا اللبن الرائب الذي أحضره لهما الصبي الذي يعمل معها من البيت، بدأ العمل، عملا دون توقف تقريبا طوال اليوم، توقفا مرة واحدة ليأكلا بسرعة مع العمال في منتصف النهار. استمرّ العمل لمدة عشرة أيام، عرفا من العمال أن موسم الحصاد يستمر شهرا لكنها صادفا الجزء الأخير منه، وهناك جزء أخير من لقيط الصمغ يقوم به في النهاية عدد اقل من العمال، لأن بعض الأشجار تفرز صمغا متأخرا عن الأشجار الأخرى لكن كمياته

تكون أقل لذلك لا يحتاجون في جمعه لعدد كبير من العمال.

في اليوم العاشر بعد أن تسلم بادي ونوري أجرهما، أعطاهما المراقب نقودا وأعطاهما جزءا من أجرتهما صمغا قاما ببيعه في سوق المحاصيل في المدينة. واشترىا جلبابين من قماش الديمور وطاقيه للرأس من نفس القماش. كما اشترىا حذاءين من جلد البقر، احتفظ بادي بحذائه الجديد كان الحذاء الذي اشتراه من سوق الخرطوم لا يزال قويا برغم أنه يبدو وكأنه التصق تماما بقدمه بفضل التراب والعرق، نوري انتعل الحذاء الجديد فورا وألقى بالقديم الذي كان قد اهترأ تماما بعد أن قام بإصلاحه عدة مرات في الأسواق، ولم تبق فيه ولا قطعة صغيرة خالية من الثقوب التي رُقِّعت عدة مرات بقطع وخيط جلد البقر.

قررا أن يحتفظا ببقية المبلغ لشراء المعدات التي سيحتاجانها لغريلة التراب والبحث عن الذهب، من سوق قريب من جبال الذهب كما أوصاهما حاج النمر، ولشراء المواد الغذائية هناك حتى يتمكنوا من العثور على بعض الذهب. توقع بادي أنها قد لا يحتاجون لمال كثير لشراء المعدات، لأنّ الباحثين عن الذهب كما أبلغه حاج النمر، يستخدمون أواني من الفخار يملؤونها بالماء والطين في مجاري السيول ويبحثون فيها عن ذرات الذهب.

عبرا أثناء بحثهما بجانب سوق الرقيق، شاهدا أطفالا ونساء وفتيات في غاية الجمال، شعرا بالحزن، تذكر نوري سمرأويت، وحاول أن يشغل نفسه بسرعة عن ذكرها خوفا من التفكير في حدوث الأسوأ: أن يكون التاجر التركي قد باعها لمن يستغلها في

الدعارة.

تذكر بادي أنه يجب أيضا أن يعمل بسرعة من أجل محاولة تهريب أمه، لأنّ نائب الملك لن يتردد في بيع كل رقيق القصر إن احتاج للمال. كما إنه يفكر في البحث عن خير السيد والبلال لشراء حريتهما قبل أن يتعرضا لمكروه.

حكى لهما الصبي الذي عمل معهما في حصاد الصمغ أنّ تجار الرقيق يهاجمون القرى ليلا وأهلها نيام ويقتلون كل من يحاول المقاومة، ثم يأسرون الجميع، ولأنه كان طفلا تم ربطه مع أطفال آخرين على ظهور الإبل، كان الأطفال يصرخون حتى تجف أصواتهم ويتبولون في أماكنهم دون أن يكثر لهم أحد، ويرغمون الكبار على السير في أثر الجمال بينما يحرس التجار والجنود القافلة من الخلف والجانبين. حكى لهما أنّ والده مات أثناء سيره، لم يحتمل الطريقة الصعبة التي يربطون فيها الرجال مع بعضهم تجنبا لهرب أحدهم، يحضر الجنود فرع شجرة متشعب من طرفيه يضعونه فوق كتف الرجل الأول والطرف الثاني فوق كتف الرجل الثاني، ثم تثبت قطعة خشب فوق الكتفين بحبل من الجلد اللين الذي يصبح مشدودا حين يجف، وبذلك يزداد الضغط على الأسير فلا يقوى على التحرك يمينا أو يسارا فقط تحمله قدماه إلى الأمام.

فكر بادي إن استطاع هؤلاء الرقيق التعساء تنظيم أنفسهم فربما يستطيعون على الأقل الهرب وتسليح أنفسهم للدفاع عن أهلهم وقراهم التي لم تعد آمنة. المشكلة كما سمع من الكثيرين أنها أصبحت تجارة أفضل حتى من الذهب، وأنّ الصراع بين القبائل

يلعب دورا يستغله التجار والغزاة، كما أنّ بعض زعماء العشائر الذين تفرض عليهم الإدارة التركية تسليم أعداد محددة من الرقيق كل عام، يقومون هم أيضا بصيد الرقيق أو تجنيد بعض المرتزقة للقيام بذلك العمل.

واصلا السير بقوة أكثر، كما لو أنّ منظر الرقيق القابعين في استسلام تام لقدرهم، وكل أملهم في مشتر يحسن معاملتهم ولا يفرّق بينهم وبين أطفالهم، كما لو أنّ المنظر الحزين أثار فيها تصميميا ورغبة لا تقاوم لقهر المستحيل واستعادة حياتها.

لم يشعر بجوع أو عطش حتى مالت الشمس للمغيب، اختارا أن يتوقفا قليلا للراحة قريبا من إحدى القرى، كانت هناك بقايا جيف حيوانات متناثرة شاهدها في الطريق، ما يشير إلى احتمال وجود بعض الحيوانات المفترسة في المنطقة، والضباع تظهر ليلا كما عرفنا من حاج النمر لأكل بقايا الجيف التي تتركها الحيوانات المفترسة.

حاولا الاقتصاد في الأكل، لم يكن واضحا لهما بعد متى سيعثران على المال مرة أخرى. خاصة أنّ موسم الجفاف قد حلّ منذ أكثر من شهر، رغم قلة احتمال وجود عمل في موسم الجفاف لكن السفر يكون أفضل في هذه الفترة بسبب عوائق الأمطار، والسيول والبرك والخيران التي تقطع الطرق طوال موسم الخريف.

(10)

كان نائب الملك يشرب القهوة مع ندمائه، قضاوا سهرة حمراء، غنّت لهم الجارية الحبشية صاحبة الصوت الملائكي، وكانت تعزف أيضا على الربابة، وشاركت في الغناء ثلاث جاريات قُمن بأداء رقصة جماعية، تظهر الواحدة منهن فيها مثل الحمامة حين تمد رقبتها إلى أعلى، وتمد يديها أفقيا مثل جناحي حمامة تطير في الهواء. مضت حوالي خمس سنوات منذ سفر الملك ولم يسمع عنه أحد شيئا، كان نائب الملك يأمل في كل لحظة أن يصل خبر وفاته ليصبح هو الملك في مكانه بعد أن خلا له الجو بوفاة الأمير إبراهيم.

تساءل نائب الملك: أليست هناك أخبار من هلال؟

قال نديمه بابكر الذي كان هو من رشح هلال للقيام بالمهمة: شيء غريب! أيعقل أنه لا يزال يطارد ذلك العبد حتى الآن؟ قبل أيام أرسلت لي زوجة هلال تسأل عنه، قالت الرجل اختفى منذ لحظة سفره ولم يسمعوا أي شيء عنه، وقالت إن ابنه الذي ولد بعد سفره أصبح عمره عاما الآن دون أن يراه والده، وسألت إن كنت أعرف عنه شيئا.

قال خيربي: أعرف هلال، لا بدّ أنه بعد أن فرغ من مهمته، ذهب يبحث عن الذهب، هؤلاء الأجانب يحبون الذهب حبا عجيبا كأنهم لا يستطيعون الحياة من دونه.

قال بابكر: لا أعتقد أنه ذهب يبحث عن الذهب، أخبرني

قبل سفره أنه يريد أن يصبح مزارعا، عرض عليه جاره المزارع أن يشاركه في زراعة قطعة أرض يملكها في إحدى الجزر، يبدو أنه تعب من الحروب والقتل. لكن إن كان صحيحا أنه هرب من الجيش التركي بعد مجزرة المّتمة فربما قبضوا عليه، أو أرسلوه مع الفرقة التي تقوم بصيد الرقيق في موسم الجفاف.

قال نائب الملك: سيحضر الباشبوزق خلال أيام، لم يبق شيء في المخازن لنعطيهم لهم، أخفى أخي ذهبه قبل سفره في مكان ما، بحثت عنه في كل مكان دون جدوى. يا لبخل أخي! كان يجب دفن كل شيء في الأرض، لماذا يكتز الذهب حتى بعد أن أصبح مستأجبا أن يتوقع الموت في كل لحظة، هل سيحمل الذهب معه إلى القبر؟

قال عبدالله: الملك لديه شركاء في الزراعة يثق فيهم يترك عندهم نصيبه من المحصول حتى يحتاج له، وربما يأتمنهم على أمواله أيضا حين يسافر.

راقت الفكرة لنائب الملك: سأرسل لهم جميعا ليحضروا المحصول، وسأهددهم بإبلاغ الأتراك إن لم يرشدوني إلى مكان ذهب الملك أو يسلموني الذهب!

قال بابكر: لا تعتقد أن المهمة ستكون سهلة وأنهم سيعترفون لك، الملك يختار رجاله بعد أن يختبرهم طويلا.

استدعى النائب كاتب الملك وطلب منه أن يعطيه أسماء كل المزارعين الذين يشاركونهم الملك في ملكية أراضيهم، ذكر له

الكاتب عدة أسماء في أماكن كثيرة معظمها شمالاً، طلب نائب الملك أسماء الشركاء في المناطق والجزر القريبة من السّاب. طلب الكاتب بعض الوقت حتى يراجع الأسماء الموجودة في المخزن ويعود.

أوضح نائب الملك لندمائته: لا يُعقل أن يخفي الذهب في مكان بعيد. لا بدّ أنه موجود عند أحد شركائه القريبين من هنا.

عاد كاتب الملك وأبلغه أنّ هناك ثلاثة مزارعين هم دفع الله في جزيرة سابنارتي وعبيد في عبدالله نارتى وفضل التوم في سملنارتي. أرسل نائب الملك فوراً عدداً من الرقيق لاستدعاء المزارعين الثلاثة.

في اليوم التالي جاء المزارعون الثلاثة، استقبلهم نائب الملك بحفاوة، قدّمت لهم القهوة، ثم أوضح لهم النائب سبب استدعائه لهم: الباشبوزق سيحضرون خلال أيام وقد تأخر الملك في العودة ولا نعرف متى يعود. كل ما وجدناه في المخازن سلّمناه للأتراك في حساب متأخرات ضرائب الأعوام الماضية.

تساءل دفع الله: وهل قام جنود الملك بجمع الضريبة من كل مناطق المملكة؟

أوضح النائب: كما تعلمون كان الموسم الماضي فاشلاً، معظم الناس لم يدفعوا سوى جزء من الضريبة المفروضة عليهم، من كان لديه رقيق أخذناه كجزء من الضريبة، لكن المشكلة لا يزال المبلغ المطلوب بعيداً.

سأل نائب الملك: عرفت أن الملك يترك معكم أحيانا جزءا من حصته في المحصول لأنّ المخازن هنا لا تتسع لتخزين ضرائب الأهالي ومحاصيل الملك.

قال دفع الله: نعم تبقى هناك بعض التمر من محصول العامين المنصرمين، كنت قد أحضرت لك جزءا من المحصول حسب وصية الملك.

قال النائب: سمعت أنك تزرع القطن أيضا.

أوضح دفع الله: حاولنا بالفعل زراعة القطن لكنه يحتاج لمياه كثيرة فلم ينجح حسب ما كنا نتوقع.

الملك أيضا شريك معك في تجارة الأقمشة؟

نعم لكن كما ذكرت لك بسبب فشل زراعة القطن هنا، وبسبب عملي في الزراعة لم أستطع السفر لاستجلاب القطن الذي كنت معتادا على شرائه من بعض الأسواق القريبة من مناطق زراعته مثل سوق المسلمية. لذلك أصبح العمل قليلا جدا اعتمدنا فيه على الإنتاج القليل من القطن الذي زرعناه هنا، على كل حال يمكنني حساب نصيب الملك المتبقي معي، وأحضر لك مقابلة تمرا أو بهائم لكنه لن يكون كثيرا على كل حال.

توجه النائب بالسؤال لشركاء الملك الآخرين، عبد الله وفضل التوم قالا تقريبا نفس ما قاله دفع الله، كان الملك يترك معهما جزءا من حصته كل عام، وأبديا استعدادهما لإحضار المحصول المتبقي من حصة الملك بطرفهما.

قال النائب فجأة بعد أن بدا كأنه حصل على كل ما يريد منهم:
وماذا عن الذهب؟

تساءل الثلاثة بدهشة: أي ذهب تقصد يا سيدي؟

عرفت أنّ الملك كان يترك معكم أيضا عند سفره بعضا من ممتلكاته مثل النقود والذهب؟ أعرف انه لا حقّ لي في البحث عن ذهب الملك، لكن نحن واقعون في مشكلة كما ذكرت لكم. وإن لم ندفع للأتراك سيأخذون كل شيء، كل رقيق الملك ونسائه وأثاث القصر وكل الأراضي الزراعية حول القصر ويبيعونها، إنني أحاول حماية ممتلكات الملك.

أطرق الثلاثة قليلا، لا ليحاولوا تذكّر إن كان الملك قد ترك عندهم شيئا ما، بل لاستيعاب صدمة السؤال المفاجئ، نفوا تماما علمهم بمكان ذهب الملك. قال عبدالله وفضل أنهما حتى لم يودعا الملك، كانا قد سافرا سويا مع قافلة كبيرة ضمت تجارا ومزارعين، إلى سنّدي لبيع محصولهما من التمر وحين عادا عرفا أنّ الملك سافر لأداء فريضة الحج.

سمح لهم نائب الملك بالذهاب بعد أن وافقوا على تجهيز ما لديهم من محاصيل من حصة الملك وسيقوم النائب بإرسال الرقيق لترحيلها بالمراكب الشراعية.

حضر ندماء النائب في منتصف النهار، حكى لهم نائب الملك ما دار مع المزارعين الثلاثة. علّق بابكر: عبدالله وفضل التوم لم يكذبا لقد كانا بالفعل في سنّدي ولم يكونا موجودين عند سفر الملك.

قال خيرى: أعتقد أنّ دفع الله يعرف كل شيء! لا تنس أنه بجانب شراكته مع الملك كان سيصبح صهره! الأمير إبراهيم خطب ابنته وحتى العبد بادي خطب البنت الأخرى.

قال النائب: سمعت أنّ إبراهيم هو الذي خطب البنت الثانية لبادي، لا بد أنه كان يجب بادي جدا.

قال عبدالله: بادي هو ابن الملك، ألم تنظروا إلى وجهه؟ يشبه الملك أكثر من إبراهيم نفسه! إبراهيم كان يتعامل مع بادي باعتباره شقيقه، وقد سمعت أنّ الملك كان ينوي الاعتراف به وربما الزواج من والدته!

قال النائب: كانت ستكون كارثة، الحمد لله أنه سافر قبل أن يفعل ذلك! لو فعل ذلك قبل سفره لما كنا نجلس الآن في هذا المكان!

على كل حال، قال بابكر وكأنه يختم النقاش: لقد ماتوا جميعا، مات إبراهيم ولا بد أنّ بادي لحق به مادام لم يظهر حتى الآن، والملك نفسه طالت غيبته وأعتقد أنه يجب أن تتصل ببعض الفقهاء، أنت المسؤول الآن وعدم وجود ملك سيقبل من هيئة السلطة وستكون له عواقب خطيرة، لا تنس فرع أسرتكم الذي يقيم جنوبا والذي يعتقد أنه الأحق بعرش المملكة، ولا تنس الأتراك، يريدون ملكا يتعاملون معه، يجمع لهم الضرائب ويعفيهم من مسؤولية الحكومة أمام الأهالي، أخشى أن يقوموا بتعيين شخص آخر في مكان الملك. بدا النائب قلقا قليلا من كلام بابكر، لم يستطع إخفاء مظاهر

الفرح في وجهه وهو يقول: وكيف يستطيع الفقهاء حل المشكلة؟
الناس والحكومة يسمعون كلام الفقهاء، إذا أفتى هؤلاء بأنه
يجب شغل مكان الملك الشاغر، تجنبًا للفتن التي قد تنجم عن
ذلك، يمكنهم الإعلان أنّ غياب الملك الطويل دون وجود أية
أخبار عن مكان وجوده وأسباب تأخره عن العودة، يتيح إعلان
موته بصورة شرعية، فتصبح بالتالي أنت الملك!

قال النائب وقد راققت له الفكرة: هذه فكرة جيدة وإن وجدنا
الذهب يمكننا أن نتبرع لخلاوي هؤلاء الفقهاء حتى نشجعهم
على اتخاذ القرار الصحيح بسرعة.

ضحك بابكر وقال: لن تحتاج للذهب لكي يتخذ الفقهاء
قرارهم بسرعة، بعض الحبوب وعدد من الخراف وجوالات التمر
ستكون كافية!

تساءل النائب ببراءة: من هم هؤلاء الفقهاء؟

ضحك الثلاثة وعلّق بابكر: سيقولون إنّ الملك الجديد لم يفق
من الخمر إلا ساعة تنصيبه ملكا، وحين وقف أمام القاضي وأعيان
المملكة، قال لهم: هل تشرحون لي في البداية أين تقع حدود هذه
المملكة التي أصبحت عليها اليوم ملكا؟ وماذا يجب أن أفعل
بمجرد أن أصبح ملكا!

ضحك النائب نفسه ولم يقل شيئا.

أوضح له خيرى: هناك الفقيه والقاضي الشرعي زين العابدين،
هناك الفقهاء أصحاب الخلاوي، هناك خلفاء الشيوخ الصالحين

المتوفين.

وأين سأجد كل هؤلاء؟ هل أطوف على الخلاوي أم أذهب
للمحكمة الشرعية أم أذهب للقائم يوم سوق السبت؟

لماذا تذهب إلى السوق، لا يمشي الملوك في الأسواق! أنت نائب
الملك، أطلب من كاتب الملك أن يدعوهم للحضور لمقابلتك.

يجب أن اذهب إلى السوق أحياناً، لو لم أذهب إلى سوق بَرَبَر
قبل شهر لما عثرنا على هذه الجارية الجميلة التي ملأت ليالينا
بالطرب الملوكي الأصيل!

كان ذهابك إلى السوق خطأ، نستطيع نحن إحضار الجوّاري،
يمكننا أن نساfer إلى أسواق الرقيق في سَندي وسِنار لإحضار
الجوّاري. سيقول الناس انظروا للملك، يشرب الخمر ويمشي في
الأسواق، مثل صعاليك عمال الحصاد الموسمين! وحين يعرفون
أنك تقضي الليل مع جلسات الشراب والغناء والنساء الجميلات
لن يحبك الفقهاء!

لماذا سأحتاج لأن يحبوني؟ لست امرأة جميلة يجها البعض، هم
يحتاجون إلى محبة ذهبي، وأنا لن أبخل عليهم بشيء حين أعر على
ذهب أخي! أود الآن أن أغرقهم في الذهب لكنني لا أملك منه
شيئاً!

استدعى النائب كاتب الملك مرة أخرى، وطلب منه دعوة
القاضي والفقهاء لمقابلته خلال سبعة أيام لأمر طارئ جداً.

تساءل بابكر: وماذا ستفعل مع دفع الله؟

قال وهو يميل بجسده قليلا باتجاه بابكر، وكأنه لا يريد أن يسمع بقية الندماء قوله له: سنذهب له سويا في ما بعد!

كان دفع الله مشغولا مع الرجل الذي يقوم بحصاد التمر، عدد من الأطفال كانوا يساعدونهم في جمع التمر من على الأرض لقاء بعض التمر في نهاية اليوم، جاءت الزلال تناديه: نائب الملك في البيت يريد رؤيتك بسرعة.

فاطمة كانت لا تزال تعيش صدمة وفاة الأمير إبراهيم، كانت تقضي جل يومها في غزل الخيوط من القطن أو النسج على النول الضخم، منذ شهور جاءت شقيقتهم الكبرى التومة التي تزوجت من مزارع كانت تعيش معه في جزيرة قريبة، جاءت لتسكن معهم بعد وفاة زوجها، كان زوجها يسقي زراعته من الساقية القريبة في موسم الفيضان، حين تسلل تمساح زحف بين النباتات وسحب الرجل إلى النهر ولم يعثر له على أثر. الصبي الصغير كان عمره سبعة أعوام، تعلق بفاطمة أكثر من أمه، يقضي اليوم كله بجانبها. علمته كيف يغزل الخيوط، وكان يساعدها في نسج خيوط القماش.

أعدت فاطمة مشروب الحلبة باللبن للضيوف، جلس الضيوف على دكة من الطين أمام البيت اعتذر دفع الله أنه لا يملك مقاعد تليق بنائب الملك.

قال النائب: لا بأس نحن معتادون على الجلوس أرضا على الحصائر، المقاعد تركها للضيوف الأجانب وحين يزورنا الأتراك،

لسنا معتادون عليها.

أحضر دفع الله حصيرا مصنوعا من صوف النعاج، جلس نائب الملك وبابكر وجلس دفع الله جوارهما على الأرض بعد أن طلب منه نائب الملك أن يجلس.

سأل النائب عن موسم حصاد التمر، أوضح دفع الله أنه سار بصورة جيدة وأنهم على وشك أن يفرغوا وسيقوم بتسليم حصة الملك، وكذلك الضريبة المفروضة عليه خلال أيام، قال النائب: المطلوب منا كثير جدا، والأتراك سيصلون في أية لحظة. سمعت أنّ الملك ترك الذهب معك، أنت الوحيد من شركائه الذي كنت موجودا حين سافر الملك، وقد عرفت أنه زارك بنفسه قبل السفر بيوم واحد وكان معه عدد من العبيد نقلوا معهم شيئا ما.

قال دفع الله دون أن يخفي دهشته من السؤال: زارني الملك فعلا قبل يوم من سفره، وكان معه الأمير إبراهيم ولم يحضر شيئا، بالعكس كان يحتفظ بمبلغ من المال معي، أخذه كله لأنه كان يتوقع أنّ الرحلة إلى الحجاز قد تطول.

قال نائب الملك: لديه مال معك، كان بإمكانه أن يرسل الأمير إبراهيم لإحضار المال، لماذا حضر بنفسه؟

صمت دفع الله كأنه يتذكر تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم، ثم أوضح: الملك يملك هذه الجزيرة كلها، ولديه فيها أشجار نخيل ومزارع أخرى، أعتقد أنه كان قبل حضوره لزيارتي مع الأمير إبراهيم في طواف على بعض ممتلكاته، لأنهما حين جاءا إليّ اعتذر

الملك أنه لن يستطيع أن يبقى معي طويلا، لأنه غادر القصر مبكرا ليطوف على بعض ممتلكاته.

لم يبد على نائب الملك الاقتناع، قال وهو يهم بالقيام بنبرة تهديدية: أخشى أنني سأضطر لإبلاغ الأتراك أنّ الملك ترك الذهب عند شخص ما!

صمت دفع الله، قال النائب فجأة: لديك بنت جميلة.

قال دفع الله بسرعة وكأنه يخشى شيئا ما: إنها خطيبة بادي!

قال نائب الملك: كيف تخطبها لأحد عبيدنا بدون علمنا؟

قال دفع الله: خطبها الأمير إبراهيم، قال لي إنّ بادي شقيقه!

لم يعلّق نائب الملك، وبدا كأنه لم يكن سعيدا بكلام دفع الله حول أنّ بادي هو شقيق الأمير، قال بما يشبه الهمس: يستطيع كل من في القصر أن يقول إنه ابن الملك، كيف نصدق كل من يقول أنه ابن شخص ما. لو جاءك رجل وقال لك إنّ محمد علي باشا هو والدي هل تصدقه؟ صمت دفع الله ولم يرد.

قال النائب وهو يغادر مع مرافقه: أرجو أن أراك خلال ثلاثة أيام في القصر إن سمحت مشاغل حصاد التمور.

رد دفع الله: سأحضر لمقابلتك يا سيدي.

جاء دفع الله في الموعد، وجد النائب ورفاقه الثلاثة، شعر كأنهم اتفقوا قبل حضوره على شيء ما يخصه تحديدا، كأنه شعر

أن رفاق النائب نصحوه بالتقرب من دفع الله بطرق أخرى، قد تسهّل مسألة الحصول على ذهب الملك، قال له نائب الملك بدون مقدمات: أريد الزواج من ابنتك!

قال دفع الله: هذا شرف كبير يا سيدي نحن في خدمتكم دائماً، لكن كما ذكرت لك إنها مخطوبة لبادي وقد أخبرني إبراهيم أن الملك وافق على ذلك، أخشى أن يغضب الملك مني حين يعود من رحلة الحج.

قال النائب: الملك لن يعود.

بدا الرعب في وجه دفع الله: هل حدث مكروه للملك؟

قال النائب بهدوء: لا نعرف حتى الآن لكن غيابه طال جدا والأتراك لن يقبلوا بعدم وجود ملك يحفظ لهم مصالحهم!

قال دفع الله وكأنّ ذكّر الأتراك لم يعجبه: الملك هنا لرعاية مصالح أهل مملكته، وليس لرعاية مصالح الأجانب!

قال النائب: لن نتحدث في أمور الحكم، لكن الملك لديه اتفاقيات مع الأتراك.

ختم النائب كلامه قائلاً: سأتركك تفكر في الأمر وأرجو أن أسمع ردك خلال ثلاثة أيام.

غادر دفع الله عائداً إلى بيته، في المركب كان يفكر، واضح أنّ النائب يستغل غياب الملك لتحقيق مآربه، كان آخر ما يرغب فيه أن يصابه نائب الملك، فالرجل لم تكن أخبار تبذيره ومجونه الملكي خافية على أحد. بجانب محبته للملك التي تفرض عليه أن يبقى في

انتظاره وأن تبقى ابنته مخطوبة لابن الملك، لكنه كان قلقا ويعرف أن النائب يمكن أن يسبب له مشاكل كثيرة، لو قال للأتراك إن ذهب الملك موجود عند دفع الله فلا شك أنه سيدفع حياته ثمنا لذلك، يعرف أن الأتراك ليس لديهم أية رحمة حين يتعلق الأمر بالذهب، وأنهم يمكن أن يضعوه هو وبناته وحفيده أمام المدفع ويطلقون النار عليهم ويحرقون البيت والمزرعة، دون أن يهتزلهم جفن، يكررون المجزرة التي بقي طوال سنوات طويلة يجاهد لكي يبعد صورها التي تقصّ منامه في كل ليلة، عن ذاكرته.

يكررون المجزرة التي راح ضحيتها كل أهله وأهل قريته وعشرات الآلاف من سكان القرى المجاورة لقريتهم، شعر بأنه يخنق وأن دائرة الموت الملعونة التي هرب منها منذ حوالي ثلاثة عقود تُحكّم الخناق حوله من جديد.

(11)

كان الصبيّ ساتي قد أصبح رجلا صغيرا، يساعد جده في رعاية البهائم، كان يتوق دائما لامتلاك حمار، وعده جده: أول أنثى من الحمير تضع مولودا سيكون من نصيبك. أصبح ذلك شغله الشاغل، يطعم الحمير يوميا مع جده ويفحص المكان جيدا أملا في أن تكون إحدى الإناث قد وضعت مولودا، مضت شهور طويلة دون أن يظهر أي حمار صغير في الزريبة.

وحين لا يكون جده موجودا كان يقضي الوقت مع فاطمة يراقبها وهي تعمل، تعلمه بعض فنون العمل، يسأل فاطمة: متى سيكون هناك حمار صغير في الزريبة؟

تشرح له فاطمة إن إحدى الإناث حامل وسوف تضع حمارا صغيرا خلال شهور قليلة. وكيف دخل الحمار الصغير إلى بطن أمه؟

مثلا دخلت أنت إلى بطن أمك؟

لكن أمي قالت إنه حين يتزوج رجل من امرأة تصبح المرأة حاملا!

نعم ذلك صحيح.

وهل تزوج الحمار؟!

تضحك فاطمة وتحاول إلهاءه، تقول له ساعدني لأغزل

الخيوط، أمسك بيدك البكرة ولا تتحرك من مكانك.

هل تزوج الحمار؟

نعم، والآن ابتعد قليلا ولا تتحرك حتى أسحب الخيط في البكرة الثانية.

ومتى تزوج الحمار؟ لم يكن هناك حفل في الزريبة. حين أذهب مع جدي لحفل زواج يكون هناك أناس كثيرون، ويغني رجل أعمى ويعزف على الربابة!

وكيف عرفت أنه أعمى؟

لأنه لا يرى الناس!

وكيف عرفت أنه لا يرى الناس؟

لأنه كان ينظر فقط إلى قدميه وهو يغني!

ربما لأنه لا يجب أن يرفع عينيه أثناء الغناء، كيف عرفت أنه أعمى؟

لأن جدي قال لي إن الرجل أعمى لكنه يسمع ديبب النملة!

ضحكت فاطمة وقالت له: ولماذا يقول لك جدك إن الرجل

أعمى لكنه يسمع ديبب النملة؟

لأنني مددت يدي لأسلم عليه فلم يصفحني، ولكن حين قال له جدي بصوت خفيض: حفيدي يريد مصافحتك، مد يده على الفور وصفحني!

ومن كان هناك أيضا في حفل الزواج؟

كان هناك ناس كثيرون، كان الأكل ساخنا، جلست مع جدي
لنأكل مع عدد من الضيوف، يبدو أنهم كانوا متعجلين جدا فقد
أكلوا الأكل كله ساخنا، وحين برد الأكل مددت يدي لآخذ شيئا
لكنني وجدت القدح فارغا!

ولماذا تنتظر حتى يبرد الأكل؟ ألم تتعود هنا على شرب عصيدة
التمر مع اللبن وهي ساخنة؟

نعم ولكن جدي قال لي لا تأكل حتى يبرد الأكل وإلا سيحترق
فمك، ولن تجد شيئا تأكل به إن احترق فمك!

ولماذا لم تنتقل للأكل مع مجموعة أخرى حين نفذ الأكل؟
يبدو أن جميع الضيوف كانوا متعجلين، نفذ الأكل كله في نفس
الوقت!

في المساء ينام أولا على العنقريب الصغير الذي تضعه له والدته
بجانبيها، لكنه يتسلل ليلا للنوم مع فاطمة في عنقريبها، تحاول
فاطمة أن تعيده إلى فراشه، يعود مرة أخرى بعد قليل، تشعر
بدفء الجسد الصغير بجانبها، يشيع في جسدها شعورا غريبا
بدفء ماكر غريب.

حتى اليوم الذي اكتشف فيه أن أنثى الحمار وضعت جحشا
صغيرا، كان جده مشغولا في حصاد التمر حين جاء حفيده يزعم:
تعال بسرعة يا جدي، لقد أصبح عندي حمار جديد!

دفع الله كان يتوقع شيئا ما، لم يكن مرتاحا لنائب الملك، حين

سمع صراخ حفيده، هبط من النخلة التي كان يحصدها مرتعبا، اعتقد أن الصبي الصغير جاء جاريا وهو يصرخ لأنه رأى الأتراك يقتحمون المكان.

كان دفع الله يحاول كسب الوقت قبل أن يرد على نائب الملك، أملا في أن يعود الملك أو بادي، رفضت الزلال فكرة الزواج من نائب الملك، قالت أنا مخطوبة يا أبي، لم يناقشها والدها كثيرا. فهو أيضا لم يكن راغبا في ذلك، كان ساهما طوال النهار وهو يشارك في جمع التمور، لعنة المجزرة التي أبيدت فيها قريته لا تزال تطارده، المنطقة التي حسبها بعيدة عن تسلط الأتراك، يبدو أنها لم تعد كذلك.

في تلك الأثناء كان نائب الملك في انتظار اجتماعه مع القاضي والفقهاء على أحر من الجمر، كان يخشى أن يظهر الملك في أية لحظة وتضيع عليه الفرصة الأخيرة ليصبح ملكا. بعد أكثر من خمس سنوات من الغياب أصبح احتمال عودة الملك ضعيفا جدا، لكنه لم يكن واثقا، فرحلة الحج تستغرق من بعض الناس عدة سنوات، عمه صهر شقيقه الملك، كان هو الملك قبل شقيقه، يقال إنه قضى في رحلة الحج عشر سنوات، يقال إنه كان يحمل أموالا كثيرة، وإنه اشترى أرضا في مكة المكرمة قريبة من الحرم المكي وبنى عليها بيتا، وبسبب إصابته بالحمى وهو في الطريق إلى الحج فقد قضى في الحجاز عدة سنوات حتى يتعافى تماما من آثار الرحلة الطويلة. ويقال إنه كان يعطي بعض مرافقيه أموالا للتجارة وسافر بعضهم إلى الهند لشراء العطور والأقمشة التي كانوا يبيعونها في موسم

الحج. وحين قرر في النهاية أن يعود استغرقت عودته أيضا بضع سنوات، وبسبب إصابته بالناسور اضطر للبقاء فترة طويلة في سَوَاكِن، اشترى بيتا هناك ويقال إنه تزوج امرأة من أصل يميني، استطاع معالج محلي علاجه من الناسور بالكي، بعد أن فشل استخدام التبخير بأوراق بعض النباتات الطبية المعطرة كما أوصى حكيم هندي، استمر أثناء فترة مرضه في جلب بعض البضائع من الهند إلى الحجاز وإلى بعض الأسواق الداخلية مثل المسَلَمِيَّة وسوق شَنْدِي. حين عاد من السفر كان ابن أخيه وزوج ابنته قد اختاره الناس ملكا بسبب الغياب الطويل للملك، وبسبب أن الملك لم يكن لديه وريث للعرش.

عرض الملك الجديد أن يتنازل ويعيد الملك إلى عمه، لكن العم رفض، قال إن صحته لم تعد تحمل بسبب إصابته المتكررة بالحمى طوال رحلة السفر، وبسبب مجموعة من الأمراض والأوبئة التي نظفت الحزام المطر في وسط البلاد من البشر، الناسور في سَوَاكِن، والزَّحار في بَرَبْر، والجدري في الدَّامِر والتراكوما التي أصابته في أبو حمد، بسبب غبار الصحراء كما أعلن المعالج المحلي الذي عالجته بمغلي ورق الشاي، والتهاب الأذن الذي أصابه في الجزء الأخير من الرحلة حتى كاد يفقد حاسة السمع.

كانت أمام نائب الملك عقبتان يجب أن يجتازهما قبل أن يصبح ملكا، موافقة الفقهاء، وموافقة الأتراك. كان عليه أن يقوم بدفع كل الضرائب المفروضة على المملكة من قبل الحكم التركي، في الأعوام الماضية منذ سفر الملك اضطر في كل مرة لإكمال نقص

الضريبة بالرقيق، كان المزارعون يسلمون ضرائبهم أولاً بأول لكنه تصرف في جزء كبير منها، لم يترك له الملك سوى القليل من المال، ولم يبق من الرقيق الكثير ومعظمهم من جواري الملك والرجال الذين كان الملك يعتمد عليهم في كل شيء. لو دفع بهم إلى الأتراك سيكون وضعه سيئاً إن عاد الملك، لذلك كان أملة الوحيد أن يوافق الفقهاء والقاضي على إعلانه ملكاً على الفور، كان يشعر أن دفع الله يخفي شيئاً ما، ربما يعرف على الأقل أين يضع الملك كنوزه من الذهب.

فكّر في بيع جزء من أراضي الملك، من سيشتري تلك الأرض؟ من يشتري يعرف على الأرجح ان نائب الملك لا يملك حقاً في التصرف في تلك الأرض، وبالتالي قد يستعيدها الملك إن عاد من الحج.

أخيراً حضر القاضي والفقهاء. بعد أن شربوا القهوة وأكلوا التمر وهم جلوس على حصائر الصوف تحت أشجار اللبخ أمام القصر، عرض عليهم نائب الملك سبب استدعائه لهم، غياب الملك طال، الكثير من الناس طامعون في المملكة، يجب أن يكون هناك ملك يستطيع التفاهم مع الإدارة التركية ويجب الأهالي ضغوط وضرائب الإدارة الباهظة. كما أن الناس أصبحت قلقة بسبب الفراغ في رأس المملكة.

قال القاضي، كأنه يصدر حكماً نهائياً: لا يوجد فراغ، أنت تنوب عن الملك في غيابه.

أعاد النائب نفس ما قاله، الطامعون في المملكة، هناك نزاع

على الحدود الجنوبية والشمالية يريد ملوك آخرون ضم أجزاء من المملكة.

تجمدت الدهشة في وجه القاضي النحيل، عيونه ثابتة مثل عيون ميت، يتسرب منها غضب خفي يكسو وجهه كله، حتى حين يتسم قليلا.

وماذا تنتظر؟ لماذا لم تحرك جيش المملكة لوقف الاعتداءات، هل ستنتظر عودة الملك حتى تجد المعتدين هنا في باحة القصر؟ لا يوجد جيش! لقد قمت بتسريح معظم الجنود، لم يترك لي الملك مالا لأدفع أجورهم!

كيف تقوم بتسريح الجيش؟ من سيحمي هذه البلاد؟ نحن في الواجهة، كل غاز يريد سنار يجرب أسلحته أولا في ظهورنا! الملك لم يكن يدفع للجنود من جيبه! أين ذهبت موارد الضرائب؟ الملك كان يدفع أجور الجنود من الضرائب المفروضة على المزارعين والسواقي والتجار.

ذلك صحيح، لكن الأتراك أصبحوا يبالغون في الضرائب التي يطلبونها، لقد رفعوا طلباتهم عدة مرات منذ سفر الملك، ما أجمعه من المزارعين والتجار لا يكفي لما يطلبه الأتراك، اضطرت لإعطائهم جزءا من رقيق الملك.

قال القاضي: هذا أمر غريب! ولماذا لم ترفع شكوى ضد الإدارة التركية للجناب العالي أثناء زيارته للبلاد؟

فعلت ذلك ولكن يبدو أن الشكوى لم تصل للباشا.

سمعت أنك لم تقدم شكوى خوفا من انتقام الحكومة بعد سفر
الباشا!

غير صحيح، المشكلة أن الموسم الزراعي لم يكن ناجحا
وإصرار الإدارة أن يزرع الناس النيلة أفرز مشاكل كثيرة، والنيلة
نفسها تفسد الأرض وتحتاج لمياه كثيرة، وإنتاجها تشتريه الحكومة
بثمان بخس! الحكومة هي التي تحدد ثمن شراء المحصول.
الباشا أعفى المزارعين من زراعة النيلة.

فعلا لكن كما ذكرت الأرض لم تعد صالحة لزراعة المحاصيل
القديمة، تحتاج لوقت لاستصلاحها. وبسبب ضعف فيضان النيل
في السنوات الماضية تضاءلت المساحات المزروعة. كما انتشرت
آفات لم تكن معروفة قضت على المحاصيل!
أرى أن الجميع يتواطؤون ضدك، الله والأتراك والنيل!

ضحك النائب وقال: الآن نحتاج منكم لقرار ينقذ هذه
المملكة، يجب تنصيب ملك جديد، لا يمكننا انتظار الملك حتى
تتفكك المملكة ويهجرها أهلها بسبب الضرائب الباهظة التي
يفرضها الأتراك علينا.

ظل الفقهاء الثلاثة صامتين طوال حوار النائب مع القاضي.
قال القاضي في النهاية بعد فترة صمت: يحتاج إعلان ملك
جديد إلى إعلان أنّ الملك مفقود، ويتحتم انتظار عام كامل قبل أن
يصبح إعلان فقده رسميا ويمكن بعد ذلك اختيار ملك جديد!
حاول النائب إخفاء خيبة أمله دون جدوى، قال القاضي:

سنبدأ الحساب من اليوم لكن يجدر بك خلال هذا العام أن تحاول استعادة الجيش، موارد المملكة كثيرة لماذا لا تحاول الاستعانة بمحاسب لضبط دفاتر الحسابات؟

الملك لديه كاتب، يستطيع أيضا عمل ذلك.

يجب أن تستعين به، إن عاد الملك يجب أن تكون حسابات كل الأعوام التي غاب فيها واضحة وإلا قد تقع في مشاكل!

شعر نائب الملك كأن القاضي ينصب له فحا بدلا من أن يساعده، كأنه يدفع النائب دفعا ليعترف بوجود مخالفات مالية.

انفض الاجتماع دون أن يحصل النائب على شيء، سنة كاملة! لو كان الملك ميتا يمكنه أن يعود خلالها!، واضح أن القاضي بيده كل شيء وبحكم علاقته الوثيقة بالملك فليس متوقعا أن يتخلى عنه.

أرسل في طلب ندمائه، جاء خيرى أولا ضاحكا وقال: هل سنبدأ معاقره الخمر منتصف النهار اليوم؟ لا بد أن هناك أخبارا سارة.

انتظر النائب حتى يصل البقية قبل أن يبلغهم تفاصيل ما حدث من اجتماعه مع الفقهاء.

قال: كان الاجتماع مع القاضي، الفقهاء لم يقولوا ولا كلمة واحدة! أرسلت لهم التمر كما طلبتم، والنتيجة لا شيء. يبدو أنهم مثل الأتراك لديهم مطالب محددة ما لم يتم تلبيتها فلن ينطقوا بكلمة واحدة! ألا يمكن رشوة القاضي بالتمر؟ أم أنه لا يشرب الخمر!

قال عبدالله: وهل يفعل الفقهاء ذلك؟

ضحك بابكر: القاضي يملك ربما أكثر من الملك نفسه، لا تحاول أن ترشوه وإلا ستجد نفسك في السجن.

هل نرسل له هلال إذا؟ هلال نفسه اختفى ولم نعرف إن كان نال من بادي أم استطاع بادي أن ينال منه!

هلال محارب محترف لا يمكن لشاب صغير مثل بادي أن ينال منه.

إذن أين هو؟

سيظهر، ربما اضطر للسفر بعيدا وراء الصبي.

يقال إن الجدري انتشر في وسط البلاد.

الجدري ليس سيئا دائما، قد يخلصك من كل أعدائك.

وكيف أتصرف مع القاضي؟ ولماذا لا يفعل الفقهاء شيئا؟ لقد أعطيتهم التمر كما أشرت!

أوضح عبدالله: الفقهاء يحصلون دائما على دعم من الملك، إنهم يقومون بتعليم القرآن في خلاويهم. لا يستطيعون مواجهة القاضي لأنه قوي الشخصية ويملك نفوذا مساويا للملك بحكم علاقته به، كما أنه درس في الأزهر لذلك هو عمليا يفهم في الفقه أكثر من هؤلاء الفقهاء! الذين لا يحفظ بعضهم حتى سور القرآن البسيطة من أجل الصلاة، ويقوم الطلاب الواقفون من خلفهم أثناء الصلاة بتنبههم لعشرات الأخطاء التي يرتكبونها حتى أثناء

قراءة الفاتحة!

ولماذا طلبتم مني استدعاءهم إذن؟ نحتاج للتمر لإعطائه
للأتراك، كان يكفي أن أجتمع مع القاضي!

لديهم كلمة مسموعة وسط الناس، هم من يعالجون الناس
من السحر، ويعلمون الأطفال، لا تستهن بقدراتهم، يمكنهم
جمع الناس من خلفك، حتى الأتراك يحترمون رجال الدين، حين
يعجزون عن فتح منطقة ما، بسبب تترس الأهالي في الجبال أو
الغابات، يستدعون رجال الدين ويجعلونهم يكتبون منشورا
يدعون فيه الناس لطاعة خليفة المسلمين الواجبة على كل مسلم!

أشار عليه خيرى: المرة القادمة حاول أن تجتمع مع الفقهاء، لا
تخبر القاضي!

وماذا سيحدث إن اجتمعت بهم؟ لا يستطيعون اتخاذ أي قرار!

ليس أمامك سوى أن تحاول عزل القاضي بمساعدتهم!

كيف يمكنني عمل ذلك؟ ومن هو الشخص الذي يملك علما
مثل القاضي ليحل مكانه؟

قال بابكر: القاضي لا يفعل شيئا، الأحكام موجودة ومعظمها
يعتمد على العرف، أي شيخ من شيوخ القرى الذين يفصلون في
المنازعات الصغيرة بين الأهالي، ومعظمها حول الأراضي، يمكنه
أن يحل مكانه. يحتاج فقط لحبل طويل لقياس المسافات، وشهود
من كبار السن يشهدون بمن كان يفلح الأراضي موضوع النزاع،
أعتقد أن الفقهاء يجب أن يصدروا منشورا للناس بتعيين القاضي

الجديد!

وهل سيوافقون على ذلك؟

لا تعطهم خيارا آخر، أعطهم ذهباً هذه المرة، هم معتادون على الحصول على التمر والذرة سنويا من الملك لطعام طلاب القرآن، أعطهم بعض الذهب، لا يأكل الطلاب الذهب! يحتفظ الفقهاء بالذهب ويوزعون التمر!

ومن أين لي بالذهب؟ لقد اشترينا الجواري بالذهب، هل نسيتم؟ لقد دفعت لقاء الجارية الحبشية وزنها ذهباً، لسوء الحظ كانت تزن أكثر من 70 كيلوغراماً! حتى بعد أن خلعنا كل ما كانت تلبس على جسمها وأعدنا وزنها لم تنقص كثيراً، فهي لم تكن تلبس سوى رحط صغير تغطي به وسط جسدها!

كانت هناك جارية أخرى تزن أكثر من مائة كيلو، لحسن الحظ أنها لم تعجبك!

الجارية تستحق أكثر من ذلك، من كان سيحتمل مشاكل هذه المملكة المفلسة، وضغوط الأتراك، لولا غناء تلك الجارية صاحبة الصوت الملائكي! الباشا يطلب مائة كيس من الذهب، يضيف عليها الحاكم التركي خمسين كيساً، والموظفون المحليون خمسين كيساً والباشابوزق خمسين كيساً فيصبح المجموع مائتين وخمسين كيساً! وحين تعطيمهم الذهب أو المحاصيل يستخدمون موازين مغشوشة، إذا اشتريت منهم شيئاً يزيدون الوزن وإن أعطيتهم أو بعتهم شيئاً ينقصون الوزن! لولا الجواري والخمر لمتنا كمدماً!

لاحتجنا لتنصيب ملك جديد كل عام!

استدع الفقهاء، وأعطهم الذهب!

لا يوجد ذهب، إلا إن استطعنا أن نجبر دفع الله على كشف مكان ذهب الملك.

ألم يوافق على تزويجك من ابنته؟ حين يصبح صهرك لن يبخل عليك ببعض الذهب!

طلب مهلة لإقناع ابنته، يقول إنها مخطوبة لذلك العبد!

يمكنك أن تسجنه، إنه يتهرّب من دفع الضريبة!

أين سأسجنه؟ لقد قمت بإيجار السجن للأتراك! طردوا السجناء واستخدموه كمخزن للمحاصيل التي يقتلعونها من الناس كضرائب!

قال عبدالله دون أن يستطيع كتم دهشته: كيف تقوم بتأجير السجن؟ ملك لا يملك سجننا؟ وكيف ستحكم الناس؟

لم أستطع دفع الضريبة كلها في موعدها، أخذوا الرقيق وطلبوا أن أعطيهم من أراضي الملك، كان ذلك قبل سنوات وكان احتمال عودة الملك كبيرا، فخفت إن تصرف في أرضه أن يغضب وينفيني خارج المملكة، ابن العم إدريس ألم تسمع قصته؟ لقد نفاه الملك إلى الصحراء، لا يزال يعيش في بَرَبَر، يقولون إنه أصبح ضابطا في جيش يحرس الطريق بين بَرَبَر ودَرَاو، والبعض يقولون إنه لا يفعل شيئا سوى شراب الخمر، عيّنهُ الملك مراقبا في موسم الحصاد وكان الملك مسافرا إلى سَنَار، حين عاد الملك وجد إدريس

قد باع جزءا من المحصول بدون أن يعطيه الملك إذنا!

ولماذا باع المحصول؟

كانت حجته أن نوعا من الحشرات كانت تهاجم المحاصيل الزراعية، تحولها إلى مسحوق، وخشي أن تقضي الحشرة على كل شيء!

لقد عرفت تلك الحشرة! لا بد أنها تشبه الحشرة التي تطاردك أنت أيضا! هل كان إدريس يجب الخمر والجواري؟ ضحك النائب وقال: نعم، ويقال إنه كان أول من اشترى جارية بوزنها ذهباً!

ضحك الثلاثة وقال عبدالله: إذن الذهب مقابل الجواري هو وباء وراثي، موجود في العائلة!

عاد النائب يحكي ما حدث مع دفع الله:

هددته أنني سأبلغ الأتراك، لكن يبدو أنه يخشى عودة الملك، لا تنسوا أنه هرب بحثا عن الأمان بعد مجزرة المتمة. والملك أعطاه الأرض والأمان، الملك اختار له حتى زوجته التي توفيت قبل أعوام، إنها من أحد فروع أسرتنا!.

أخشى أن عزل القاضي لن يكون بالأمر الهين، ربما أفضل أن نتظر السنة التي حددها لك.

قال خيرى: حين تنتهي السنة لن تضمن أنه سيوافق فوراً على إعلان أن الملك مفقود ويعلنك ملكاً مكانه، سيحاول كسب

الوقت لحين عودة الملك، يجب أن تتخلص منه أو تنسى موضوع الملك.

قال عبدالله صادقا: المُلْك مسؤولية، أنت الآن تملك كل
صلاحيات الملك تقريبا، لماذا تريد أن تصبح ملكا؟

قال النائب: أملك صلاحياته، لكنني لا أملك ذهبه! وما هي
صلاحياته؟ أعمل فقط جامع ضرائب للأتراك، وإن فاض شيء
لا يكاد يكفي لإطعام جيش الرقيق وعَمال الملك.

قال بابكر: استدع الفقهاء وحاول معهم أن يكون الأمر سرا
حتى إن فشلت محاولة عزل القاضي لا تكسب عداه!

لقد كسبت عداه على كل حال، نصحني بتعيين محاسب لضبط
الدفاتر، لا يصدق أن موارد المملكة لا تكفي لدفع الضرائب
للاأتراك ودفع مرتبات الجيش، بل إنه سألني عن إيراد مراكب
الملك التي تنقل البضائع شمالا وجنوبا!

هل بعت المراكب؟

بعت واحدا فقط، البقية لا أعرف عنها شيئا، المشكلة أن الملك
لم يفصح عن تفاصيل أشياء كثيرة ولا يعرفها حتى كاتبه، كثيرون
يعملون على مراكب أو أراضي هي ملك للملك، ولا يحضرون أية
أموال أو محاصيل إلى القصر لأن الملك يطلب منهم الاحتفاظ بكل
شيء حتى يطلبه منهم!

إذا لم يحضر دفع الله الذهب لن أستطيع أن أعطي الفقهاء شيئا
أو أدفع الضرائب للأتراك.

اقترح خيرى: أرى على كل حال أن تجتمع بالفقهاء وترى هل يستطيعون عمل شيء، وتعددهم بمكافآت كبيرة بمجرد أن تصبح ملكا، إذا وعدوا بعزل القاضي يمكن أن تعطيههم لتشجعهم على اتخاذ القرار، تعطيههم أوراقا تثبت أنك مدين لهم بأكياس ذهب! وسوف تسدها بمجرد تنصيبك ملكا!

ضحك النائب وقال: إذا نجح ذلك سأكون أول من يصبح ملكا بالاستدانة!

صمت قليلا وقال: أنا في انتظار دفع الله في الغد، أرجو ألا يضطرنى لإحضار الأتراك، إن حضر الأتراك واشتموا رائحة الذهب، فسيدفع حياته ثمنا لذلك! الأتراك يستطيعون التعرف على رائحة الذهب من على بعد مائة ميل، لقد اشتم الباشا الكبير رائحة ذهب جبال فازوغلي من على بعد ألف ميل!

قال عبدالله: المشكلة أنه لم يجد شيئا ويقال إنه جلس بنفسه في مجرى السيل يغربل الطين بحثا عن ذرات الذهب! وبسبب غضبه من عدم العثور على الذهب، حمل معه أكياس النقود التي كان أحضرها لدعم حكومته في الخرطوم!

أوضح نائب الملك: هرب الباشا بسبب إصابته بالحمى، يقال إنه دفع لطيبه مبلغا كبيرا إن أعاده حيا! لا يمكن أن تعثر على الذهب خلال بضعة أيام من العمل، الأمر يحتاج لمعدات وخبراء وحفر عميق في الأرض، الذرات التي يجرفها السيل من أعالي الجبال لا تساوي شيئا، الذهب موجود في باطن الأرض وليس في السماء! الجبال ليست امرأة غنية لتضع الذهب فوق رؤوسها!

(12)

بادي ونوري كانا يسيران بحذر بمحاذاة الغابات وقد قضيا النهار بطوله مرة مختبئين في الغابة، حين لمحا فرقة من الجنود، كان ذلك موسم صيد الرقيق ويبدو أنّ الجنود كانوا ينوون مهاجمة الجبال الحدودية أو يتجهون جنوبا للإغارة على بعض القرى هناك.

خوفا من مضايقات الجنود والأتراك قررا قضاء إحدى الليالي في منقطة فضاء وسط غابة من أشجار الهشاب، لم ينتبها حين استغرقا في النوم أنّ النار التي تركاها مشتعلة خبت بسبب هبة ريح مفاجئة. استيقظ نوري على منظر عيين ملتهبتين تحقدان فيه في ضوء القمر، مديده أليا ليحمي بها وجهه فغرس الضبع أنيابه في يده، على صرخة نوري استيقظ بادي مذعورا ورأى شبحا يهاجم نوري، لم يفكر كثيرا، انتزع الخنجر المربوط في ساعده وسدد للشبح عدة ضربات ولى على إثرها هاربا، كانت يد نوري تنزف بشدة، بحث بادي عن شيء يوقف به نزيف الدم، عثر على الإزار الذي كان يلبسه وربط به يد نوري جيدا، غرز الضبع أنيابه القوية في اليد لكن الجرح لم يكن عميقا ربما لأنّ نوري كان مستيقظا وقاوم الضبع بشراسة. ساعده بادي ليركب على الحمار وجمع أشياءهم كلها وربطها في حماره واتجها إلى القرية القريبة. لحسن الحظ وجدا بعض الناس مستيقظين، كان صوت أذان الفجر يتسرب من على

البعد. مع أول انسام الفجر الندية، طرقا باب أول بيت مرابه،
دعاهما رجل شاب للدخول لكن بادي شرح له أنها يبحثان عن
شخص يعالج الجروح، خرج معهما الشاب وصحبهما إلى كوخ
في الطرف الآخر من القرية يقطن فيه رجل مسنّ متخصص في
جبر الكسور، كانت الشمس التي لا تزال غارقة في أسفل الكون
وقد بدأت تغرق العالم في الضوء، حين جاء المعالج المحلي وفحص
الجرح، أشعل النار واستخدم قضيبا معدنيا رفيعا لكيّ الجرح، ثم
نثر فوفه مسحوق حبوب السنط، أحضر لهما مشروب الكركدي
الساخن الذي أعدته ابنته، ثم جلس بجانب ضيوفه على حصير
سعف الدوم، سألهما إلى أين يتجهان، فأوضح له بادي أنها في
طريقهما لجمال فازوغي، قال الرجل أخشى أنه لم يبق شيء من
الذهب في تلك الجبال! منذ عشرات السنين والناس كلها تتجه
إلى هناك، أناس جاءوا من كل مكان في الدنيا واتجهوا إلى هناك،
بعضهم رجع والبعض لم يرجع، ربما طاب لهم المقام في الجبال أو
اختطفتهم الوحوش أو وصلوا رحلتهم عبر بلاد الحبشة. بعضهم
يبحث عن المكان الذي يخرج منه النهر، والبعض يبحث عن كنوز
الملك سليمان. قبل سنوات لم يكن يمر يوم واحد دون أن تمر
عشرات القوافل في طريقها إلى هناك، عاجلت بعضهم من الحمى،
وبعضهم من السحر، وبعث لأحدهم حجابا للحب، ولآخر
حجابا يحمي من الرصاص، طلب مني تجربته قبل أن يشتريه، قال
إن أحد الأفاقين باعه في سنّار حجابا واقيا من الرصاص، بحث
عن حمار أو كلب مريض يجربه فيه طوال أيام، وفي النهاية تطوع
أحد رقيقه للتجربة، كان شابا وسيما وقويا، يعمل طوال اليوم في

خدمة سيده دون كلل أو ملل، ارتدى الحجاب، لحسن الحظ إنهم أطلقوا النار على قدميه، تحولت قدماه إلى غرابال من الرصاص الذي انهار عليه من الجنود اللذين طلبنا منهم مشاركتنا التجربة! لحسن الحظ كان هناك طبيب فرنسي في سنّار قام بقطع رجليّ الصبي، نجا من الموت لكنه فقد كل شيء.

صمت الرجل، لاحظ بادي عددا من الكتب موجودة على رف صغير بجانب سرج يشبه سرج الجمل، مديده وأمسك بالكتاب، كان إبراهيم قد علمه قراءة الحروف، لكنه لم يستطع قراءة الحروف التي تخمّن أنها انجليزية، حين لاحظ الرجل أنّ بادي مهتم بالكتب، سأله: هل تحب قراءة الكتب؟ هل تستطيع أن تقرأ؟ يمكنك أن تحتفظ بالكتب! هنا لا أحد يهتم بها.

شكره بادي، سحب كتابا واحدا وطلب منه أن يحتفظ له ببقية الكتب حين عودته من جبال فازوغلي.

تساءل بادي: من أين أحضرت هذه الكتب؟ رغم مسحة الحزن التي عبرت في وجهه، بدا الرجل لبرهة سعيدا بالسؤال، كأنه سيفشي سرا كان يثقل عليه طوال سنوات، ضاقت عيناه الواسعتان حتى كادتتا تحتفيا في خطوط تجاعيد وجهه النحيل، الذي يغطيه مثل بيت صغير من القش شعر أبيض كثيف، خبط بيده عدة مرات على أسفل رأسه كأنه يريد دفع ذكريات منسية، إلى واجهة ذاكرته، قبل أن يحكي:

عالجت مرة رجلا لدغه ثعبان سامّ في الغابة، قضى الليل هنا في نفس المكان الذي تجلسان فيه، في جبهته صف حبات بارزة تشبه

وجوه رجال قبيلة الدَّيْنُكَا، كان يهذي طوال الليل من الحمى، يبكي أحيانا ويغني أحيانا بلغة غريبة، لغة إنسان جاء من أقصى الدنيا لا يعرف لماذا وإلى أين تقوده قدماه، يحمل جرابا من الجلد على ظهره يضع فيه بعض الزاد والكتب الغريبة، عرق جسده حتى غرق الحصر أسفله، خفت أن يفارق الحياة في بيتي، في الصباح استيقظ، كان مرهقا وهزيلا وحزينا، سقيته بعض الأعشاب، وحين شعر بالجوع في منتصف النهار أعددنا له عصيدة الدخن بالسمن والعسل، أكل كأنه لم يأكل منذ عدة أيام، كان قد بدأ يتكلم بعض لغاتنا المحلية يبدو أنه طاف كثيرا في بلادنا وأقام في سنّار لبعض الوقت، حكى أن والده أرسله لمدرسة دينية، كان يريد أن يصبح قسا، مات والده فلم يكمل دراسته، لم تكن لديه رغبة ليصبح قسا، لكنه حاول فقط إرضاء والده، كان يتوق لاكتشاف العالم، والبحث عن ذاته. قلت له مازحا: الناس يتكبدون مشاق السفر إلى هذه المناطق البعيدة، يواجهون خطر الجدري والطاعون والوحوش الضارية، بحثا عن الذهب، وأنت قادم فقط لتبحث عن نفسك! قال إنّ جهة اسمها الجمعية الجغرافية الملكية، أعطته مبلغا صغيرا مساهمة منهم في منصرفات سفره، وطلبوا منه أن يكتب عن عادات الناس وأخبارهم وسبل كسبهم للعيش في المناطق التي يزورها. قال إنه عمل مستشارا للسلطان قبل سقوط سنّار، كان يترجم له بعض الصحف التي تصل أحيانا مع بعض المسافرين الأجانب، وكان يقرأ له أجزاء من بعض كتب اللاهوت والأدب الإنجليزي التي يحملها معه، ثم هرب مع الناس التي هربت بعد وصول الجيش التركي، واستقر لبعض الوقت في

سِنَّجَة، ثم سافر جنوبا وعاش لبعض الوقت مع قبيلة الدَّيْنِكا، قال إن الدَّيْنِكا لم يستقبلوه جيدا في البداية، حسبوه تاجر رقيق، وكادوا يقتلونه، كان يحمل أقراصا من دواء إيبىكاكوانا، أعطى منها قليلا لزعيم القبيلة الذي كان مصابا بحمى المستنقعات، فشعر الرجل بتحسنٍ سحري، ثم عاش بينهم وأصبح واحدا منهم، حتى أنهم قاموا بتزيين وجهه بالشلوخ التقليدية للدَّيْنِكا، التي تظهر في شكل صف حبات بارزة أسفل الجبهة، عاش بينهم واكتسب كل عاداتهم، بل إنه كان على وشك أن يتزوج منهم، خطب له الزعيم القبلي ابنة زعيم آخر اسمها أبوك، فتاة جميلة الوجه، طويلة القامة. ولأنه لم يكن يملك بقرا فقد تدخل صديقه الزعيم فوافق صهره على أن يقوم بدفع المهر مستقبلا بالتقسيط، بدأ في بناء البيت، مستخدما جذوع الأشجار والحشائش، قال إن الزواج لم يكتمل، فقد هجم تجار الرقيق على القرية ليلا، مات عدد من الرجال الذين حاولوا أن يقاوموا، وأسّر تجار الرقيق كل النساء والأطفال وعددا من الرجال، حاول هو أن يقاوم مع الرجال، لكن التجار كانوا مسلحين ومعهم جنود مدربون، وقع هو أيضا في الأسر، لكنهم أطلقوا سراحه في سِنَّجَة، كان يشعر بالحزن والحزي، فهو لم يستطع أن يفعل شيئا للقرية التي وقعت كلها في الأسر، اتصل بالحاكم التركي، الذي قال له إنه سيطلق سراحهم إن كان يستطيع دفع ثمنهم!

قال إنه كتب للجمعية التي يرأسها حول تجارة الرقيق التي اتسعت في عهد الحكم التركي، وفي حين كانت مقتصرة في ما مضى على أسرى الحروب القبلية أصبحت الآن عملا منظما تقوم

به السُّلطة، التي ترسل حملات في أوقات محددة كل عام حين يحين موعد موسم صيد الرقيق، وإن الحكومة تجند الرقيق الأقوياء، وتعطي الضعفاء والمرضى كأجور لموظفيها وجنودها وتبيع البقية، كما إنها أصبحت تشجع زعماء العشائر على صيد الرقيق بفرضها عددا محددًا من الرقيق على كل زعيم أن يقوم بتسليمه في وقت محدد كل عام. وقال إنه طلب من أعضاء جمعيته إثارة القضية في البرلمان للضغط على حكومة إسطنبول لوقف تجارة الرقيق.

قال إنه يريد السفر إلى بلاد الحبشة لزيارة منابع النيل الأزرق التي وصل إليها بعض المستكشفين قبل سنوات، قال إنه كان يود السفر جنوبا لولا النهاية المأساوية للفترة السعيدة التي قضاها مع قبيلة الدينكا، كان يخطط بعد زواجه وبمساعدة أصهاره للوصول إلى منابع النيل الأبيض.

بعد أن بدأ في التعافي ظهرت عليه أعراض الحمى مرة أخرى، ثم تدهورت حاله سريعا حتى لم يعد يقوى على الوقوف على قدميه وفشلت كل محاولات علاجه، جربنا معه الكي ومغلي شجرة الكينا، ومغلي حبوب السنط ولحاء الصفصاف، في يومه الأخير كان يبدو أفضل حالا، شرب قليلا من الحساء وأكل من عصيدة الذرة، طلب مني أن أدفنه في الغابة القريبة من هنا، مات في نفس اليوم ودفنناه حسب وصيته.

قال نوري: ألم يعثر على الفتاة التي كان يجب أن يتزوجها؟

قال الرجل: حكى لي أنه بحث عنها ولم يعثر لها على أثر، لا بدّ أنها بيعت لأحد التجار أو الجنود في الخرطوم، قال إنه سافر إلى

الخرطوم بحثا عنها دون جدوى.

أحضر المعالج المحلي الطعام، أكلوا معه عصيدة الذرة مع اللبن الرايب، قال نوري إنه يشعر بتحسن ومن الأفضل أن يواصل السفر، لكن الرجل منعه، قال إن الجرح قد يلتهب ومن الأفضل أن يبقى حتى يراقب الجرح لمدة يومين أو ثلاثة أيام. لكن الشابين أقنعا بأنهما سيبقيان يوما واحدا فقط.

(13)

اجتمع نائب الملك بالفقهاء الخمسة، شرح لهم أوضاع المملكة في ظل غياب الملك، وأوضح لهم أنه بسبب فشل الموسم الزراعي لسنوات متتالية عجز كثيرٌ من المزارعين عن دفع الضرائب، وبسبب قلة الموارد اضطرَّ إلى تسريح الجيش حتى تتحسن الأحوال وانعكس ذلك على الأحوال الأمنية فانتشر قطاع الطرق، وأصبحت الإدارة التركية تتعرض بالمضايقات للمواطنين، وجباة الضرائب من الأتراك ومستخدموهم يطاردون المزارعين حتى اضطر عدد كبير منهم للهجرة من حدود المملكة، ما سيعني فشلا للموسم الزراعي الذي يوشك أن يبدأ، حتى محصول التمر تأثر كثيرا بسبب قلة الأيدي العاملة التي تجمع المحصول والذي كنا نأمل أن يكون جيدا هذا العام ليعوض خسائر الأعوام الماضية، لكن للأسف هطلت أمطار مبكرة قبل أن تنضج الثمار وتسببت في فساد جزء كبير من الثمار والبقية أتت عليه الرياح وقلة الأيدي العاملة.

أوضح النائب: عدم وجود ملك، يشجع الأتراك على عدم احترام اتفاقياتهم مع الملك، والتدخل مباشرة في شؤون المملكة ومطاردة الأهالي لجباية الضرائب، وهو العمل الذي يجب أن يقوم به الملك حسب الاتفاقية التي أبرمها الملك مع إسماعيل باشا. كذلك بسبب عدم وجود ملك تضيع موارد كثيرة للمملكة،

يمكن للملك أن يطلب حسب تلك الاتفاقية مساعدة الجناب العالي لتطوير الزراعة ورفع المياه من النيل لري مساحات أوسع من الأرض. الآن إنتاج الأرض تراجع، خاصة في موسم التحاريق حين ينخفض منسوب النهر بشدة، ويصبح رفع الماء بالسواقي في غاية الصعوبة، لا يكفي الإنتاج ولا حتى لدفع ضرائب الأتراك.

بقي الفقهاء صامتين، لاحظ النائب أن ذلك يشبه حالتهم حين اجتمع بهم في المرة الأولى في حضور القاضي، علّق على ذلك قائلاً: هل سيكون دوركم في كل مرة الاستماع فقط!

أوضح: أفكر في عمل مجلس للقضاة، وليس هناك بالطبع من هو أفضل منكم لإدارة مجلس القضاء، الذي يكون دوره مراقبة عمل المحكمة ويكون مجلساً استشارياً للملك، في كل المسائل التي تختص بالحكم. وتكون مهمة المجلس اختيار قاضي المحكمة أو عزل القاضي إن جانبت أحكامه الحق والعدل.

ابتسم الفقيه عبدالكريم، رجل ضخم، شعر لحيته الأبيض يغطي نصف وجهه الأسود، تتحرك عيناه بحذر كأنها تحاولان الاختباء أكثر أسفل حاجبيه الكثيفين، في بحر هدوء وجهه، يضع على رأسه الحليق طاقية من قماش الموضلين الأصفر، جال ببصره في وجوه زملائه قبل أن يقول بهدوء: الحقيقة نحن نستمع لنفهم الغرض من الدعوة التي وجهتها لنا. يبدو أن الأمر يتعلق بالقاضي هذا ما فهمته من كلامك الأخير ومن عدم حضور القاضي اليوم معنا!.

شعر نائب الملك أن الفقهاء يعرفون تماماً سبب دعوتهم، بدأ

يشرح وجهة نظره: كل شيء متوقف، والرجل كنت أعتقد أنه سيتفهم أنّ المملكة ستضيع تماما، وربما يفرض الأتراك علينا حاكما منهم إن لم نتحرك بسرعة، بدلا من ذلك يريدنا أن ننتظر عاما آخر، وبعد أن ينتهي العام لا نعلم متى سيقدر أنّ الملك أصبح مفقودا بصورة شرعية، ويمكن اختيار بديل له!

قال الفقيه عبد الكريم: المشكلة إننا لا نستطيع عمل شيء إلا مع القاضي.

قال النائب: ولذلك استدعيتكم، القاضي يمكنني عزله، لكن أحتاج إلى منشور منكم يبرر العزل بصورة شرعية.

قال الفقيه عبد الكريم بعد فترة صمت، كان واضحا فيها أنهم عاجزون تماما عن اتخاذ أي قرار: وماذا سيحدث إن عاد الملك؟ الملك هو من اختار القاضي، والجميع يعلمون أنه يثق فيه، إن أخرجنا هذا المنشور وعاد الملك فذلك يعني أننا سنغادر أرضنا إلى غير رجعة هذا إذا لم يحاكمنا الملك بتهمة خيانة الأمانة!

عرف النائب أنّ الأمر يكاد يتسرب من بين يديه، فقال: أنا من سأتحمل المسؤولية، أنا أقوم مقام الملك، وإن كان هناك خطأ وحضر الملك فساكون أنا المسؤول!

نظر الفقهاء إليه بتشكك! في وجوههم خوف وعدم ثقة، ركنوا مرة أخرى إلى صمت ثقيل، كان أكثر ضجيجا حتى من ضربات مدافع الأتراك، كأنهم يقولون: إذا حضر الملك نعرف أنك ستقول: الفقهاء نصحوني بعزل القاضي!

قال الفقيه عبد الكريم: نحتاج لبعض الوقت، لتشاور مع بعضنا ونستخير الله في ما تطلبه منا!

قال النائب، بقلق: كم من الوقت ستحتاجون، هل تستغرق استشارة الله وقتا طويلا؟ هل ستحتاجون أيضا إلى عام آخر؟ ابتسم الفقيه عبد الكريم: أمهلنا أياما وحالما نصل لقرار سنحضر لزيارتك.

استخدم الملك آخر ورقة: سيتكون مجلس القضاء منكم وإن رغبتم في ضم شخص آخر للمجلس ذلك متروك لتقديركم، ويكون مجلسكم استشاريا للملك، وستحصلون على أجر سنوي كبير، المملكة حين تستقر أحوالها غنية بالذهب والموارد الأخرى! كان واضحا للفقهاء أن الملك لم يذكر كلمة الذهب عرضا، فقط ليخبرهم أن المملكة غنية بمواردها. إنه يعرض شراء موقف منهم بالذهب! العملة التي كان يصعب رفضها في ذلك الزمان. الشيء الوحيد الذي كان الجميع يتفوقون على محبته: السلطان العثماني، الباشا محمد علي، الملك والقاضي، السكير والفقيه، الجندي وقاطع الطريق.

شعر النائب باليأس يتسلل إلى قلبه حين شاهد الفقهاء يغادرون المكان، كان واضحا أنهم لا يرتبطون بصداقة قوية مع الملك مثل القاضي، لكنهم خائفون! الملك لا يطالبهم بدفع ضرائب عن الأراضي الزراعية التي يستثمرها هؤلاء الفقهاء، ويستغلون الطلاب في خلاويهم لزراعة الأرض والاحتفاظ بريعتها لأنفسهم!

وحتى إن لم يعاقبهم الملك في حالة ظهوره لعزلهم القاضي، فمؤكد أنه سيسحب منهم امتياز عدم دفع الضرائب! فكّر أن يستخدم تلك الورقة للضغط عليهم، إن لم يتفقوا على التعاون معه سيقول لهم إن الأتراك يضغطون عليه لفرض الضريبة على الجميع بدون استثناء! وسيهددهم أنهم يجب أن يدفعوا الضرائب بأثر رجعي عن كل السنوات المنصرمة! وأن هذه ليست تعليماته بل تعليمات الأتراك، الذين يحاول إيقاف تدخلهم في شؤون المملكة لكن الفقهاء لا يريدون التعاون معه!

على نعمات الدفّ وعزف الربابة شرح النائب لندمائه ما حدث مع الفقهاء. كان بهو البيت الذي يقيم فيه النائب لياليه الملاح، غارقاً في الدخان، يجلس النائب وندماؤه على حصائر الصوف على الأرض، يشكّلون حلقة حول الفرقة التي تتكون من مغنية وراقصة وعازف على الطبل وعازف على الربابة. الراقصة كانت شبه عارية إلا من رَحَط صغير يغطي وسط جسدها، ويظهرها أكثر عربياً مما لو كانت عارية تماماً من أي شيء يستر جسدها. يتولى أحد الرقيق توزيع الشراب على الحضور. المكان دافئ رغم الرياح الباردة التي تهب في الخارج، يرتفع أحيانا صوت العاصفة تعبر فوق أشجار النخيل التي تحيط بالبيت وتتمايل بجذوعها مثل راقصات طويلات القامة فوق سقفه.

قال خيرى: حسنا فعلت أنك لم تستخدم أوراقك كلها معهم، يمكنك أن تهدهم في المرة القادمة إن لم يتعاونوا، لديهم فضائح كثيرة، وهم يستغلون الأطفال ليس فقط في العمل.

كان عبدالله أكثرهم دفاعا عن الفقهاء: ربما يستغلّون طلابهم في العمل، لكن محصول الأرض في النهاية يذهب لمنصرفات هؤلاء الطلاب أنفسهم، معظم هؤلاء الطلاب فقراء لا يملك أهلهم شيئا، يتولى الفقيه الصرف عليهم وشراء حتى ملابسهم وأحذيتهم، كما أن المسيد مفتوح للضيوف والعابرين والمسافرين الغرباء، كلهم يستريحون ويأكلون عند هؤلاء الفقهاء. ولذلك لا يُلزمهم الملك بدفع ضرائب بل ويعطيهم من التمر الذي يُجمع من المزارعين.

قال النائب: أنا لا أعارض على عدم دفعهم للضرائب، الأترك هم من يعترضون، إن كان خليفة المسلمين نفسه لا يهتم بدعم الفقهاء فلماذا يجب أن أدمهم أنا؟ إنني الملك الوحيد في العالم الذي يشرب على حساب ندمائه ويتهيج بالاستدانة!

(14)

كان دفع الله قد فرغ من حصاد التمر، لم يكن المحصول جيدا بسبب الأمطار التي هطلت، وبسبب رياح السموم القوية التي هبت قبل حصاد التمر وأدّت لسقوط التمر أرضا وتحطم بعض الأشجار، سيقوم في فترة الشتاء بمحاولة غرس شتول نخيل جديدة، الملك لن يمانع في غرس أشجار جديدة في أرضه، بقيت المشكلة في نائب الملك الذي يشك في أن دفع الله يخفي ذهب الملك. لم يستطع أن يفهم إن كان نائب الملك يريد فعلا الزواج من ابنته أم أنها مجرد حيلة يحاول بها الوصول إلى ذهب الملك. قرر أن يحاول كسب الوقت أملا في ظهور الملك. كان يخشى إن أبلغه برفض الزلال الزواج منه أن يقوم بإبلاغ الأتراك بأنه يخفي ذهب الملك. يعرف جيدا كيف يتعامل هؤلاء الغزاة مع كل من يقف في طريقهم، يعرف جشعهم للذهب، هو الذي أتى بهم لهذه البلاد التي كانت آمنة قبل ظهورهم. لن يكون أمامه من حل إن شعر أن نائب الملك سيبلغ عنه الأتراك سوى أن يجمع أسرته ويسارع بالهرب إلى أي مكان. وإلى أين سيهرب؟ الأتراك موجودون الآن في كل مكان.

الملك لديه محاصيل ونقود يحتفظ بها لحين عودته، قرّر أن من الأفضل أن ينقلها إلى مكان آمن، يعرف أحد أصدقاء الملك يقيم قريبا من الضفة الغربية للنيل، سيحاول نقل الأشياء ليلا حتى لا

تلقت الانتباه، سيستخدم مركب الملك الخشبية التي تركها عنده.

كان قد قرر منذ فترة أن يسافر بعد موسم حصاد التمور إلى المسلمية لشراء قطن، ما يقوم بزراعته من قطن لم يكن ناجحا بما يكفي ربما بسبب الطقس أو نقص المياه، الساقية لا ترفع كميات كبيرة من المياه، اعتاد على زراعة القطن قبل موسم الفيضان، حيث منسوب المياه منخفض جدا وأحيانا يتراجع النهر ويحتاج رفع الماء إلى عمل شاق وطويل.

بسبب ما حدث مع نائب الملك قرر أن يترك السفر لحين عودة الملك أو استقرار الأحوال، ترك بناته وحفيده لوحدهم في هذه الظروف سيكون عملا غير مضمون العواقب.

كانت الزلال وفاطمة والتومة تعملان في آخر كمية من القطن، لحسن الحظ غزلتا كمية كبيرة من الخيوط في الفترة الماضية تكفيهم للعمل عليها ربما لعام كامل. كان يفكر أن يطلب من الملك أن يقوموا سويا بعمل مصبغة لصبغ بعض الأقمشة القطنية للسيدات، كانوا يكتفون بنسج القماش وبيعه، إذا قاموا بعمل المصبغة سيحتاجون لزراعة نبات النيل وربما يفكر في السفر لشراء أقمشة وخيوط لإنتاج أقمشة مختلفة وصبغها بألوان مختلفة.

انتظر نائب الملك عودة الفقهاء حسب اتفاهه معهم، لم يظهرها طوال أيام، أرسل أحد رقيق الملك يستدعيهم للحضور، وجدوا نائب الملك في انتظارهم أمام القصر في ظلال أشجار اللبخ في الهواء المشحون برائحة النهر، رائحة السمك الميت، وعقب أشجار الصفصاف التي تغطي ضفاف النهر العجوز.

قال بدون أن ينتظر حتى يجلسوا جيدا فوق حصير السعف:
تأخرتم كثيرا كنت أتوقع أن أراكم خلال بضعة أيام!

قال الفقيه عبد الكريم بعد فترة صمت: لقد وعدناك أن
نستخير، لكننا لم نجد الأمر خيرا لذلك لزمنا الصمت!

ماذا تعني أن الأمر ليس خيرا!

أعني أننا استخرنا الله ولم نجد إشارة تفيد أن عزل القاضي
سيكون خيرا.

وما هي الإشارة التي تتوقعها ليكون الموضوع خيرا؟

صمت الفقيه عبد الكريم فيما يده تعبت بهدوء بحبات مسبحة
اللالوب في يده.

بدأ النائب فورا في تنفيذ الخطة البديلة: أتوقع حضور الأتراك
لاستلام الضرائب خلال أيام قليلة، للأسف مخازن الملك شبه
فارغة كما سبق لي أن أوضحت لكم، للأسف أجد نفسي مضطرا
لأطلب منكم دفع الضريبة عن كل الأراضي التي تستثمرونها.
ولأنكم لا تدفعون الضرائب منذ عدة سنوات أريد منكم دفع
ضريبة عشر سنوات على الأقل. لقد أبلغني الحاكم التركي أنه لا
يريد أية استثناءات من الضريبة. وإن لم تتمكنوا من تسليم الضريبة
قبل وصول الأتراك فسوف أكون مضطرا لأبلغ الأتراك بذلك
ليقوموا بأنفسهم بتحصيل الضريبة!

تبادل الفقهاء نظرات خائفة فيما بينهم، وقف الفقيه عبد
الكريم وقال: أرجو أن تسمح لنا بالتشاور والاستخارة مرة

أخرى وسنعود لك بقرارنا النهائي خلال أيام.

قال النائب: ليس هنالك وقت، قلت لكم أتوقع وصول الأتراك خلال أيام قليلة، ألا تستطيعون اتخاذ قرار دون أن تقحموا الله في كل شؤون حياتكم التي يجب أن تتخذوا بأنفسكم القرار حولها؟!!

لم يقل الفقهاء شيئاً، لم يكن هناك من صوت في صمت الضحى الذي تقطعه أصوات العصفير الهائمة بين الجزر والغابات القرية، سوى صوت حركة حبات مسبحة اللالوب، تقفز فوق بعضها بعصبية.

قال نائب الملك: سأمهلكم يوماً واحداً، أراكم غداً في مثل هذا الوقت، نصلي العصر معاً ونسمع قراركم النهائي، وإلا فلن أكون مسؤولاً عما يفعله الأتراك بكم، لا يمكنني حماية كل من يتهرب من دفع الضرائب. لا أحد يريد مساعدتي حتى أستطيع أن أذبح عن هذه البلاد شرور الأتراك، فلماذا أقوم بحماية الناس وأعرض لوحدي لضغوط وإذلال الأتراك ومضايقاتهم اليومية؟!!

انسحب الفقهاء بهدوء، جلس النائب يفكر وقد شعر أنه للمرة الأولى منذ سفر الملك يحقق شيئاً ما يمكن أن يكون له نتائج إيجابية، شعر أن الفقهاء على وشك التنازل والاستجابة لطلباته.

أرسل النائب عدداً من رقيق الملك طالبا منهم الطواف في الأسواق والقرى، لإبلاغ الناس جميعاً بضرورة إحضار ما عليهم من ضرائب فوراً، لأنّ مندوبي الحكومة التركية سيحضرون خلال

أيام قليلة. كما أرسل عددا من رقيق الملك لإبلاغ شيوخ القرى البعيدة ليجمعوا الضرائب ويرسلونها إلى قصر الملك.

حكى النائب لندمائه الذين ظهروا تباعا، ما حدث مع الفقهاء. ضحك خيري وقال: كانت فكرة ماكرة، غدا سيحضرون ليقولوا لك إنهم وجدوا قرار عزل القاضي يحمل خيرا كثيرا، إنَّ الشيطان خدعهم وهو الذي أوحى لهم في المرة الأولى أن الموضوع ليس خيرا!

قال بابكر ضاحكا: التَّهم ضد الشيطان جاهزة، رغم أن الشيطان بريء من جشع البشر! إن كان أهل الدين يحرصون على المال هكذا فماذا نفعل نحن؟

كان عبدالله مصرّا على الدفاع عن الفقهاء: المسألة ليست في المال، هم بالفعل شعروا بالخوف ولكن ليس على المال الذي سيضيع، إنهم يخافون الأتراك، الكل يعرفون الفظائع التي ارتكبتها الغزاة، أحرقوا القرى وقتلوا الناس بالمدافع ووضعوهم على الخازوق لأجل أشياء تافهة، اعتاد هؤلاء الناس أن يقوم الملك بحمايتهم من الغزاة، لا أن يستعدي عليهم هؤلاء الغزاة!

قال نائب الملك: تريد أن تصبح فقيها؟ نريد تكوين مجلس للقضاء من الفقهاء، سأصدر أمرا بتعيينك فقيها، ستكون أول سكير يصبح فقيها، أعرف أنك ستبيح شراب الخمر، أنت تشربه على كل حال، لكن حين تبيح شرابه ستجد بعد فترة أنه يصبح بدون طعم مثل الماء، وستصدر قرارا آخر بتحريمه! إنك تفوق الشيطان نفسه في بعض أفكارك!

ضحك عبدالله ولاحظ: هؤلاء ليسوا فقهاء، ربما لا يعرفون من تعاليم الدين سوى الأشياء الأساسية، أناس بسطاء، في سلوكهم جوهر الدين: يعلمون طلابهم المحبة، ويكرمون الضيف والغريب، وجدت بعض العمال جاءوا من مناطق بعيدة بحثا عن العمل، يقيمون في مسيد عبد الكريم منذ سنوات، يأكلون ويشربون وينامون في المسيد ولا يطلب منهم أحد شيئا، بل هم ضيوف خدمتهم واجبة على الجميع، حتى شيخ عبدالكريم نفسه يقوم بخدمة الضيوف أحيانا حين يرسل طلابه إلى السوق أو لقضاء شيء ما.

قال خيرى: يقال إنه يشرب بعض أنواع الخمور الخفيفة، يشرب الدكّاي!

ابتسم عبدالله وقال: سمعت أنّ بعض الصوفية لا يجرمون بعض أنواع الخمور الخفيفة، إنهم متسامحون لذلك يحبهم الناس، يؤمنون بأن الدين في المعاملة الطيبة وعدم الكذب والوفاء بالوعد.

ضحك خيرى الذى كان مصرا على تشويه صورة الفقهاء وقال: يقال إن أحد هؤلاء الفقهاء كان يشرب الخمر سرا، وحتى لا يلاحظ مريدوه وطلابه ذلك، كان يضع الخمر في الركوة التي يضع فيها الماء للوضوء، ذات مرة هجم أحد المريدين على الركوة يريد التبرك ببقية الماء الذي توضع منه الفقيه، جرى الفقيه خلفه يريد استعادة الركوة المليئة بالخمر، وحين فشل في اللحاق بالمريد، صرخ فيه محققا المعجزة السهلة: إن شاء الله سيتحول الماء إلى خمر أيها النجس اللزج!

ضحك نائب الملك وقال معلّقا على ملاحظة عبدالله: توشك أن تصبح من رجال الدين، لو لم تكن قد بدأت يومك بشراب الخمر، لأعلنت علينا الجهاد، أنا متفقه في الدين أكثر منك، فقد زرت الأزهر الشريف! لو أصبحت أنت رجل دين، ربما أصلح أنا لأصبح نبيا!

ضحك عبدالله: وهل تكفي مجرد زيارة للأزهر الشريف لتكون متفقا أكثر مني في الدين؟ إذن سيحق لكل من زار الكعبة أن يدّعي النبوة، أو يعلن نفسه خليفة على المؤمنين! أنا فقط لا أحب استدعاء هؤلاء الغزاة للتدخل في شؤون الناس، إنهم ينظرون فقط لمصلحتهم هم، لا يهمهم إن مات الناس أو جاعوا أو اقتتلوا حتى آخر رمح، مع أنهم يزعمون إنهم يمثلون خليفة المسلمين في إسطنبول!

ضحك نائب الملك ولاحظ: لا تجرّنا للحديث في السياسة! ألا نخشى العيون؟

ضحك عبدالله ولاحظ: إن كان الملك لا يريد أن يتحدث في السياسة، فمن سيفعل ذلك؟ المأذون أم الأروتي!.

قال الملك: دعك من السياسة والأروتي، هيا بنا نحتفل بعودة الفقهاء إلى الطريق الصحيح!

ضحك الندماء الثلاثة، شرب نائب الملك كوبا من المريسة، لم يعرف إن كان طعمها العجيب بسبب سعادته ذلك اليوم بقرب تغير موقف الفقهاء، وبالتالي اقترابه من عرش الملك، أم أنّ المريسة

صنعها شخص آخر!

قال بابكر: المريسة هي نفس المريسة التي نشرها كل يوم، لقد شربت منها هذا الصباح ولم ألاحظ أي تغيير. يبدو أن الملك سعيد اليوم، كوب ماء سيجعله يسكر!

ضحك النائب وقال: أنا متأكد أن هناك شيئاً مختلفاً في هذه المريسة!

قال خيرى: تضيف الجارية بعض القرفة أحياناً!

قال نائب الملك: وما هي القرفة؟ هل هي نبات ما أم شيء آخر، أخشى أن يضعوا لنا السم بعد أن أصبح كرسي الملك قاب قوسين أو أدنى! منذ الآن يجب أن تذوقوا المريسة أولاً ثم يشرب الملك بعد أن يتأكد أنكم لا تزالون أحياء!

قال بابكر: أنا متطوع أن أذوق كل شيء قبلك، لا تنس أن تأخذني معك أيضاً في المآدب الرسمية، حين يصنع الطهاة الأتراك، الكباب واللحوم المشوية!

لكن المشكلة أنك لن تكثفي بقطعة صغيرة كما يجب أن يفعل من يتذوق الأكل، أنت ستأكل أكثر من الملك نفسه!

هل تعرفون ما هو أول قرار سأقوم بإصداره؟

انتظر قليلاً ليثير فضولهم ثم أشار نحو خيرى وأعلن: سأعين هذا السكر قاضياً!

هل يصلح سكير قديم ليفصل بين الناس؟

لن يكون صعبا عليه أن يحتفظ بوعيه لعدة ساعات فقط، هي الوقت الذي سيقضيه في المحكمة!

أخشى أن يشعر بالرغبة في الشراب فجأة فيقول للشاهد الرئيسي في القضية: انتظر قليلا، أود استشارة مجلس القضاء في هذه المسألة وأعود بسرعة. وحين يعود بسرعة ستصبح رائحة المحكمة مثل رائحة حانة!

قال خيرى وقد بدت عليه السعادة بالمنصب الجديد: لا أعرف كثيرا في القانون!

قال النائب: لديك مجلس استشاري، ومعظم المنازعات يوفق القاضي بين المتنازعين، ويستدعي بعض كبار السن ممن يعرفون تاريخ استثمار الأرض موضوع النزاع. كل عملك أن ترتدي ملابس جميلة وتضع عمامة بيضاء كبيرة!

قال القاضي بجديّة من بدأ يستسلم لسحر المنصب لا لقوة المريسة بالقرفة: وما عقوبة السارق؟

قال نائب الملك صادقا: لا أعرف!

ضحك عبدالله: مفروض أن يدفع غرامة وتسجنه حسب ما سرقه، أي أنك لن تساوي من سرق ملوّة تمر مثلا بمن سرق جملا! علّق بابكر ضاحكا: المشكلة أين ستسجن اللص؟ لقد باع نائب الملك السجن للأتراك!

قال النائب: لم أبعه، كان هناك عجز قليل في ضريبة العام الماضي، فسمحت لهم باستخدام السجن لفترة مؤقتة مقابل ذلك!

لم يكن هناك أي لصوص في مملكتنا؟ فلماذا نحتفظ بالسجن وندفع
أجرة سجان لا يفعل شيئاً سوى الأكل والنوم وشراب المريسة؟
السجان نفسه كان البعض يقولون إنه يسرق ويخفي مسروقاته في
السجن! لم يكن يسرق شيئاً من الأهالي، الأهالي معظمهم فقراء،
كان يسرق بعض المؤن والأسلحة والذخائر من معسكر الجيش
التركي! ويبيعها للجنود أنفسهم الذين يعمل بعضهم قطاعا
للطريق بعد نهاية دوام عملهم أو أثناء عطلاتهم الرسمية!

وجد عبدالله ذلك مسلياً: يحمد لهم أنهم يعملون بعد الدوام
الرسمي أو في العطلات، لا يجب الجمع بين وظيفتين، في وقت لا
يجد فيه الناس عملاً بسهولة.

ضحك خيري: إنه لص وطني، يجب أن نكافئه لا أن نسجنه!
أين سنسجنه؟ لا يوجد سجن على كل حال، كما أن الأتراك لم
يشتكوا من سرقة شيء من معسكرهم، لو نقصت حبة سكر منهم
لدمروا المملكة كلها! وطلبوا مني دفع تعويض مضاعف وكأني
أنا الذي سرقت وليس السجان!

وماذا سأفعل إن أشار المستشارون بضرورة حبس متهم ما في
السجن؟

قال نائب الملك: يمكنك أن تأخذه معك، لا يجب أن يسكن
معك في البيت، سيسرق شيئاً ما!

ضحك عبدالله: لن يجد شيئاً يسرقه سوى المريسة! أنا متأكد
أنه حين يعيش معك ولا يجد في بيتك شيئاً يؤكل سوى المريسة،

سيقول لك بعد فترة: من فضلك أعدني إلى السجن! السجن قصر بالنسبة إلى بيتك هذا!

وماذا أفعل به ولماذا يجب أن أطعمه؟

سيعمل معك، يرعى البهائم، يجلب الغنم، يطعم الحمير ويقوم بتلقيح النخيل وحصاد التمور.

ليس لدي نخيل! كانت هناك نخلة وحيدة أمام دارنا، وكان هناك شخص يشارك أبي فيها، هو الذي قام بإحضار الشتلة من مكان بعيد، يقال إنه نوع نادر لا ينمو في هذه البلاد! لم أكن أحب الرجل الذي يشارك أبي في ملكية النخلة، كنت شابا يافعا حين جاء مرة ووجدني أحاول نزع جريدة من النخلة، كنت أريد استخدام الجريد لصناعة قفص صغير أضع فيه طائرا، يبدو أن تقليم شجر النخيل لديه موسم محدد وإلا سيضر بالنخلة كما فهمت بعد أن ضربني الرجل! كرهته وكرهت النخلة وكرهت موسم تقليم جريد النخيل. حين مات والدي أحضرت شخصا قام بقطع النخلة من جذورها وأرسلت له ليحضر ويتسلم نخلته!

ضحك النائب وقال: لقد وجدت حلا جذريا للمشكلة!

المشكلة أن الرجل شكاني للقاضي، قلت للقاضي: الرجل يقول إنَّ النخلة نخلته، لقد أعطيتها له، هل من يعطي الناس حقوقهم يصبح متهم الآن؟ لو كنت تصرف في النخلة بالبيع مثلا يحق له أن يشتكيني للقاضي!

وماذا قال القاضي؟

أمرني بدفع مبلغ من المال للرجل كتعويض!
ضحك النائب وقال: ربما لن تصلح لمنصب القاضي، لديك
سوابق!

بالعكس لديّ خبرة، لقد أعدت الحق إلى أهله، النخلة كانت
مثل مسمار جحا، الرجل يطرق باب بيتنا كل يوم، لقد حضرت
للاطمئنان على النخلة، لقد حضرت لتقليم الفروع، لقد حضرت
لتلقيح النخلة، لقد حضرت للحصاد! لقد كفيته شر السفر كل
يوم من أجل نخلة واحدة، ما تطرحه النخلة من ثمار لن يكفي
ولا حتى قيمة ما يصرفه من زاد أثناء السفر للاطمئنان عليها. لو
أصبح ثريا سيتذكر ما فعلت ويشكرني كثيرا، لقد أضاع جزءا من
عمره مع تلك النخلة! كان امتلاكه للنخلة يعطيه شعورا خادعا
بأنه يملك آلاف النخيل، فيكتفي بذلك الشعور، لقد أسديته
معروفا حين أيقظته من حلم تلك الشروة الصغيرة الخادعة!

(15)

ظل بادي ونوري طوال شهور موسم الجفاف يبحثان عن الذهب، تابعا مجاري السيول وغربلا الطين والتراب، لم يحصلوا سوى على ذرات قليلة لا تكاد تساوي ولا نصف جرام واحد.

كانت سفوح الجبال تعج بالباحثين، حاولوا الابتعاد عن منطقة المناجم التي تعج بالأجانب والأترك وجنودهم، وجدا بيتا مهجورا على طرف القرية القريبة من الجبال، عرفا من بعض الباحثين عن الذهب، أنّ البيت كان يسكن فيه أجنبي أوروبي قضى في المنطقة عدة سنوات، واختفى فجأة عن الأنظار حتى عثر عليه بعض الجيران ميتا في بيته بعد أن فاحت رائحة الجسد الميت.

رافقت موت الرجل أساطير عديدة، فقد أكد البعض أنهم شاهدوه بعد موته، مساء يذرع منطقة المناجم بحثا عن كنز ذهبي كان قد عثر عليه وخبأه في الجبل ثم لم يعد يذكر أين دفنه. قضى السنوات الأخيرة من حياته يبحث عنه في كل مكان في الجبال دون جدوى، وأكد البعض أنهم شاهدوه يعزف على مزمار الوازا أثناء بحثه في الجبل، ربما بسبب اعتقاده أنّ نغمات الوازا سترشده بطريقة ما لمكان الكنز. لم يعرف له الناس اسما فأطلقوا عليه لقب الخواجة الأسود، فقد دبغت الشمس الحارقة لون جلده فأصبح أسمر، لا يستطيع أحد تمييزه إلا من لون عينيه الأخضر، كان يرتدي قميصا وبنظالا قصيرا من قماش الكاكي ويتنعل حذاء محليا مصنوعا من

جلد ثعبان الأصلة. وجدا فناء البيت وقد حفر الباحثون عن الذهب كل ركن فيه، أملا في أن يعثروا على كنز الخواجة الأسود. استخدم بادي ونوري بعض فروع الشجر لمحاولة تسوية الفناء الذي كان يستحيل النوم فيه بسبب الحُفَر وتلال الرمال فيه بسبب عمليات البحث عن الكنز. كما حاولا ترميم الجدار الذي بناه الخواجة من فروع الشجر والحشائش واستخدم الطين والصخور لملء الثقوب والفراغات، لكنه تعرّض أيضا لغارات الباحثين الذين دمروه ولم يبق منه سوى قطع من الصخور والطين الجاف المخلوط بالحشائش.

ربط الحمارين جوار البيت، وجدا فروع أشجار قديمة في المكان، لا بد أن الخواجة الأسود كان يملك حمارا أو حصانا، وكان له إسطلب صغير لحمايته من الشمس الحارقة والمطر، قاما في أوقات فراغهما بإعادة تثبيت أعواد الشجر وإحضار بعض الحشائش ومزيد من عيدان الشجر لإصلاح السقف قبل حلول الخريف. كانت الحمير ترعى في الحشائش من بقايا الخريف المنصرم وأحيانا حين تسمح ميزانيتها الصغيرة كانا يشتريان بعض القصب أو نبات اللوبياء من السوق، حتى تسترد الحمير قوتها بعد الرحلة الطويلة. كانا يحضران الماء في زكائب جلد الماعز من بئر قريبة، ويأخذان الحمير مرة في اليوم لتشرب من البرك.

كانا يذهبان إلى السوق الأسبوعي كل يوم خميس، يبعان ذرات الذهب القليلة التي عثرا عليها، ويشتريان الذرة لعمل العصيدة، يشتريان مسحوق السمك المجفف والبصل وزيت السمسم المنتج

محلّيا بواسطة معصرة خشبية يسحبها حمار أو بغل، يشترى الملح والتمر، يشترى قليلا من التمر، يكلف التمر هنا مالا كثيرا، لأنه لا ينتج في هذه المنطقة بسبب موسم الأمطار الطويل. وجدا بعض الأواني الفخارية في بيت الخواجة الأسود ووجدا مِرْحَاكة يبدو أن الخواجة صنعها بنفسه، قاما بتنظيفها وقد نمت الطحالب وبعض الحشائش فوقها بسبب عدم استخدامها طوال سنوات، ثم استخدمها لسحن الذرة لصناعة العصيدة. كان بادي يحب صنع العصيدة ويترك لنوري صنع المرق أو طبخ السمك المجفف. حين يستلقي بادي ونوري مجهدين آخر المساء بعد يوم عمل مرهق على سفوح الجبال، كانا يشعران بلذة الاسترخاء بعد يوم عمل طويل وشاق.

الجو رائع في موسم الجفاف، نسمة ليلية تعبر من فوق سفوح الجبال مخلوطة برائحة عبير أشجار الأبنوس والطلح، نوار الهشاب، ونغمت أبواق الوازا، كانا يذهبان إلى القرية أحيانا، خاصة يوم السوق، لشراء مستلزماتهما، يقومان ببيع الكميات القليلة من الذهب التي يحصلان عليها والتي تكفي بالكاد لدفع قيمة غذائهما. حين يستبد بهما الضيق أحيانا من نهارات البحث الطويلة غير المثمرة، كانا يذهبان إلى القرية بحثا عن عزاء في موسيقى الوازا، يذهبان لزيارة صديق اسمه موسى تعرفا عليه حين كان يأتي للجبال أحيانا بحثا عن الذهب، كان قد ورث عن والده مهنة صناعة الحصائر والسلال من السعف، كان يستغرق في العمل فيما يعزف ابنه الصغير على آلة الوازا، الصبي يعزف على الوازا بإتقان

مذهل، تناسب من الآلة نغمات غريبة مثل نسمة لطيفة مشبعة برائحة النّوار، تهب في فحول ساعات الضحى، حين يسترخي العالم تحت وهج الحنين وحرارة الشمس اللاهبة. توقظ أنغام الوازا في حمى الحنين الذي تنشره من حولها، حتى أكثر التذكارات نسيانا، يرى بادي الزلال تجلس إلى النول الضخم، تنسج مع شقيقاتها خيوط القطن، تصنعان قماش الدمور، رأى حتى عصافير ود أبرق التي تسبح في حمى القبط في ساعات الأصيل في فناء البيت، رأى قاربا يحمل الغرباء يقترب من الجزيرة! يا للكارثة ماذا يفعل الغرباء هنا؟

رأى نوري سمراويت تقف شامخة مثل نخلة، حين تمشي تتفتح مثل الورود من حولها عوالم منسية، تبدو تلك العوالم بتفاصيلها الغريبة كأنها تختبئ خلف خطواتها. رأى النجوم التي كانت تزين قبة عالم الفناء الخلفي في بيت التاجر التركي، حين يتجمع الرقيق في أمسيات غياب التاجر للاستماع لغناء نوري الجميل، وسمراويت تشاركه بالعزف على طبل صغير صنعه نوري من وعاء فخاري وجلد ماعز، بدت له النجوم مختلفة، أكثر قربا وأكثر جمالا، قبل أن يكتشف إنه لم يكن يراها مباشرة في قبة سماء خريفية نفضت عنها لبعض الوقت سحب الخريف الكثيفة، كأنها فقط لترى كيف يبدو العالم بعد أن أغرقته طوال أيام في السيول والعواصف والرعود التي أحرقت أشجار النخيل وأشجار الطلح، اكتشف أنه لم يكن يرى النجوم من خلال عينيه، بل من خلال عيني سمراويت اللوزيتين، اللتين يتدفق منهما الحنين ووميض بروق مواسم غابرة.

قال نوري: سأشتري واحدة! أوضح، سأشتري مزمار الوازا.

قال موسى: سأعطيك واحدة، لكن العزف عليها دائما يكون جماعيا تصدر كل آلة نغمة محددة، كما يجب أن تحضرها في موسم المطر، حين يهطل المطر نجمع كل أبواق الوازا ونسلمها للبلعآدو، وهو شيخ الوازا الذي يتولى حفظها بطريقة معينة حتى لا تفسد بسبب مياه المطر.

قال نوري في الطريق: إن كانت أنغامها العجيبة تستطيع اقتلاع صور من الماضي بجذورها العالقة في تربة الحنين والنسيان، ألا تستطيع اقتلاع الذهب أيضا من التربة؟ ألا تستطيع أن تكشف لنا مكان كنز الخواجة الأسود؟

ضحك بادي وعلّق: بدلا من الحفر هل سنستخدم نغمات الوازا لكشف الذهب؟ لو كان ذلك صحيحا لتحوّل الجبل إلى غابة من الأبواق ومهرجانات دائمة للرقص والغناء!

علّمه الصبي كيف يعزف على البوق، كان نوري موهوبا، سرعان ما بدأ يجيد أداء بعض الألحان، في الطريق إلى البيت كان قد بدأ يؤلف لحنا خاصا به. في اليوم التالي عادا إلى الجبل مرة أخرى، كان الاستماع إلى الصبي يعزف الوازا قد أمدهما بشحنة من الأمل، بعد أن كاد اليأس يستولي عليهما من إمكانية العثور على ذهب يحقق أحلامهما في شراء حرية أقربائهم وأصدقائهم، بعد شهور من البحث. عرفا أنّ معظم الباحثين عن الثروة تتواضع طموحاتهم بمرور الزمن، ويصبح العثور على ذرات قليلة كل يوم هو عملهم الذي يعتاشون عليه مدى الحياة، لذلك يستقر معظم

الباحثين في المنطقة وبعضهم يتزوج من أهلها، لتصبح القرى المحيطة بالجبل، ليس فقط محط أنظار أعداد كبيرة من الغرباء من كل مكان، بل أيضا مصهرا انصهرت فيه أجناس هؤلاء الغرباء واختلطت مع دماء أهل المنطقة الأصليين.

أعجبت المنطقة بادي، فكّر لو أنه يستطيع فقط الحصول على مقدار من الذهب يستطيع به شراء حرية أمه وأصدقائه خير السيد والبالال. فيمكنه أن يحضر أمه والزلال ويعيشون جميعا في هذه البلاد. يمكنهم أن يعملوا في الزراعة أو نسج الحصائر والسلال ومع القليل من الذهب الذي يحصلون عليه من هذه الجبال يمكنهم العيش في سعادة.

كانوا يحاولون يوما الابتعاد عن طريق الجنود الأتراك، الذين يحضرون دائما لحراسة بعض الأجانب الذين يحملون بعض الأجهزة الغريبة، التي يبدو أنهم يستخدمونها لتحديد مكان وجود الذهب في باطن الأرض، تكون معهم دائما أعداد كبيرة من الرقيق يقومون بحفر الأرض التي يحددها لهم أولئك الأجانب الذين يبدو أنهم خبراء في التنقيب عن الذهب. لم يكن الرقيق يحفرون عميقا، بل ربما لمجرد استخراج عينات من التربة ليفحصها الخبراء، لأنهم كانوا ينتقلون بسرعة لفحص مواقع أخرى، بعض الرقيق كانوا يعملون أيضا في سفح الجبل يستخدمون مناخل ضخمة، وبعد غربلة التراب يستخدمون نفس الطريقة التي يستخدمها بقية المنقبين، أوعية فخارية يضيفون الماء للتراب الذي يحوي ذرات الذهب، ويجركون الأوعية بطريقة معينة لفصل ذرات الذهب عن الرمل.

كانت تلك المجموعات تتغير باستمرار، خاصة الخبراء الأجانب كانوا يتغيرون كل بضعة أشهر. شيخ القرية كان يحضر كل شهر لجمع الضرائب من المنقبين لتسليمها للأتراك. ولأن عائد البحث يكون معروفا في الغالب فهم لا يفرضون أكثر من جرام واحد شهريا لكل باحث، لكنهم يغضون الطرف عن المنقبين اللذين يوضحون أنهم لم يعثروا إلا على ذرات قليلة تكفي بالكاد لإطعامهم.

كلما وجدا وقتا يذهبان لزيارة موسى، يحرص بادي أن يتعلم في كل مرة شيئا من موسى، كان يشرح لهما كيفية صناعة الحبال من سعف الدوم، وكيفية صناعة السلال، والأطباق التي تستخدم لوضع الخبز عليها، فكّر بادي أنّ الزلال لن تجد صعوبة في إيجاد ذلك العمل بحكم خبرتها في غزل خيوط القطن، يمكنه أن يقوم بزراعة القطن، وسيساعده هو ووالدته الزلال في غزل الخيوط ونسج القماش، وسيساعده التاجر النمر في بيع القماش. هناك وفرة من المياه في هذه البلاد وستكون زراعة القطن ناجحة، كان يعرف أن والد الزلال حاول زراعة القطن في الجزيرة التي يقطن فيها، لكن القطن لم يكن ناجحا كثيرا، بسبب صعوبة رفع المياه بالساقية خاصة في الموسم الذي يزرع فيه القطن حيث يكون نهر النيل في أدنى مستوياته.

كان موسى يأخذهما معه أحيانا ليشربا المريسة في بيت على سفوح الجبال، كان نوري خائفا في البداية، بيت الشراب يقصده أحيانا بعض الجنود الأتراك. حاول بادي أن يزيل مخاوفه: نحن

نشبه أهل هذه البلاد، لا يستطيع أحد تمييزنا منهم.

شعر نوري بالاطمئنان حين اكتشف أن الجميع كانوا سكارى ولا أحد يكثرث للآخرين، كما أن أصحاب البيت كانوا يعتمدون تقريبا على السماء في إضاءة الفناء الواسع الذي يتوزع فيه الناس على حصائر السعف، يوجد مصباح زيت صغير بجانب المرأة التي تبيع المريسة، أما بقية الفناء فيغرق في ضوء القمر أو ضوء النجوم البعيدة. في أطراف الفناء هناك ما يشبه عددا من القطاطي لكنها بدون جدران، فقط سقوف مائلة قائمة على أعواد من فروع الشجر، تستخدم في فترة الخريف ليحتمي الناس بها. رغم أن موسى شرح لبادي أن معظم رواد البيت من قدامى السكارى، كانوا لا يكثرثون في غمرة النشوة بهطول المطر، فيظلون في أماكنهم، حتى يزول تأثير الخمر، ضحك موسى وأوضح: لا يسمح السكير المتمرس أن يعكر أي شيء صفو سلامه الداخلي، حتى لو سقطت السماء فوقه! أو أحرقت صاعقة رأسه.

لاحظ نوري: المريسة هنا غالية قليلا! كنا نشرب أحيانا في الخرطوم وحين نعمل في الطريق إلى هنا ولم يكن ذلك يكلف كثيرا. ضحك موسى ولاحظ جادا: ربما لأنه يمكن العثور أحيانا على ذرات من الذهب في المريسة!

أوضح: يقال إن كثيرين يفحصون برازهم بعد ليلة من شراب المريسة ويعثرون على ذرات من الذهب! بعض صنّاع المريسة يستخدمون خاصة في موسم الأمطار مياه البرك لصناعة المريسة، وبعض هذه المياه تتدفق من مجاري السيول وتحوي بعض ذرات

الذهب!

ضحك بادي ونوري من فكرة البراز الثمين، وقال بادي:
سنبداً منذ هذه اللحظة في فحص البراز! لاحظت أنهم في بعض
نواحي الخرطوم يستخدمون البراز كسماد في الزراعة، لو عرف
الأتراك أن برازنا يحوي ذرات من الذهب لفرضوا ضريبة على
البراز!

ضحك بادي وقال: أو سيعطوننا أوعية مخصوصة ويطلبون
منا التبرز فيها وتسليمها لمدوبهم!

جاء موسم الأمطار، جمع البلّعادو أبواق الوازا لحفظها، اعتاد
نوري أن يعزف كل مساء قليلاً قبل أن يخلد للنوم، قال لموسى
إنه سيخفي البوق في البيت. بدا موسى قلقاً قليلاً: أخشى أن
يجلب لك ذلك الحظ السيء، لا أحد يستخدم الوازا هنا في موسم
المطر، لكن عموماً شيخ الوازا لن يسأل عن الوازا التي أخذها أو
اشتراها غريب.

في موسم الأمطار نقلاً الحصائر التي يناما عليها إلى القطية التي
تتوسط الفناء، قاما بترميم القطية التي لم يحتاجا للنوم فيها طوال
فترة فصل الجفاف بل وضعاً بداخلها بعض أشياءها القليلة والمواد
الغذائية التي يشتريانها كل أسبوع من السوق، استخدموا الحشائش
الجافة والطين المخلوط مع روث البهائم لإصلاح جدران القطية
وإغلاق الفتحات الكثيرة التي يمكن أن يتسرب منها ماء المطر.

أعلن نوري ذات مساء داخل القطية، بعد أن عزف قليلاً على

الوازا بعض الألحان التي أصبح يجيد عزفها مثل أهل المنطقة: أشمّ رائحة الذهب، هل يعقل أنّ الخواجة الأسود دفن الذهب في بيته ثم نسي ذلك؟

ضحك بادي وقال: أصبحت حاسة الشم لديك قوية جدا، رائحة الذهب تأتي من الجبل! هل نسيت أنّ الناس يقولون إنّ جوف الجبل من الذهب الخالص! لكن من يستطيع أن يصل إلى جوف الجبل!

لذلك أنا متأكد أنّ الذهب قريب هنا! لقد بتّ أعرف رائحته جيدا، حين أقوم بغربرة التراب أعرف مقدما إنّ كان يحتوي على ذرات ذهب أم لا!

كيف يمكنك أن تعتاد على رائحة الذهب؟ لم نعثر بعد على شيء منه، هل يعقل أنك تعرف رائحته من مجرد ذرات قليلة لا تساوي سوى ما يكفيننا لشراء ملوّة ذرة وملوّة بصل؟ لا بدّ أنك تقصد رائحة التراب الذي نقوم يوميا بغربرة جبال صغيرة منه!

ضحك نوري وقال: لن تصدقني لكنني متأكد أنّي أشمّ رائحته!

قال بادي: وأين سنبحث؟ ألا تذكر كيف وجدنا المكان حين جئنا لنسكن فيه؟ كل شيء مقلوب رأسا على عقب، لقد حفروا الأرض لعمق عدة أمتار كما حكى لنا موسى دون أن يعثروا على ذرة واحدة!

سكت نوري على مضض، وبدأ يعزف مرة أخرى، فجأة دوّي

صوت الرعد فارتعدت الأرض كلها من حولهم، وميض البرق
يخطف الأبصار، يختلط العالم كله في عاصفة الضوء والرعد. بدا
لهما كأنّ العالم الذي احترق في ضوء البرق يذوب في مرجل من
الفضة.

فجرا استيقظ بادي شاعرا أنه يختنق بسبب الرطوبة العالية
والهواء الخامد الذي بدأ يتحول إلى وحل، سحب جسده وخرج
إلى الفناء، على ضوء وميض البرق شاهد الخواجة الأسود جالسا
في الركن البعيد من الفناء، في المكان الذي أشعل فيه بادي ونوري
النار وأعدا عشاءهما، كانت أواني الأكل لا تزال هناك، لم يستطيعا
بسبب التعب نقلها أو تنظيفها، كان الخواجة الأسود جالسا
ينظف الأواني بقطعة من الليف، مستخدما بقية ماء الشراب في
جرة الفخار الذي تركاه أيضا في مكانه، تعرّف بادي على الخواجة
الأسود من لون وجهه الأسمر، وعينيه اللتين كان بريقهما الأخضر
يتسرب في خطوط تتبع حركة وجهه مع وميض البرق.

اكتسب وجه الخواجة الأسود بريقا معدنيا، كأنّ طول فترة
تجوّاله في الحياة والموت بحثا عن الكنز منحته بعض صفات
الذهب، بدت يده كأنها طليتا بالذهب. نظر إلى بادي في وجهه،
دون أن تبدو على عينيه مظاهر الاستغراب لوجود بادي في المكان،
بالعكس بدا على وجهه كأنه يعتذر بسبب تطفله على المكان. أشار
بيده إشارة وداع أو اعتذار، وحين ومض البرق مرة أخرى كان
الخواجة الأسود قد تبخر من المكان.

عاد بادي ليوصل نومه وحين حكى لنوري صباحا أنه رأى

الخواجة الأسود ينظف الأواني في الفناء، قال نوري بسرعة: ألم أقل لك إنني أشم رائحة الذهب؟

لم يعلّق بادي لكنه شعر بالدهشة لأنّ نوري ربط بسرعة بين زيارة الخواجة الأسود وبين رائحة الذهب التي يشمها، كأنّ نوري هو من رأى مشهد الخواجة الأسود بريق عينيه المعدني وكفيه المطليتين بالذهب.

قال نوري: هل رأيت في الحلم؟

رد بادي: انظر كيف قام بتنظيف أواني الفخار، تبدو كأنها جديدة.

لم يجدا آثار أقدام في المكان، لكنّ الأواني النظيفة كانت تشهد على زيارة الرجل للبيت الذي عاش فيه أجمل سنوات عمره.

كانا يعملان أقل في موسم المطر، في الأيام التي لا يهطل فيها المطر كانا يذهبان إلى الجبل، بقية الأيام كان يزوران موسى، يساعده في عمله، بعد فترة استطاع بادي أن يصنع طبقا من السعف، قال له موسى: أنت تتقدم بسرعة، في المرة القادمة سنقوم بتلوين الطبق.

بعض نهارات الخريف كانا يقضيانها في البيت، يضطران للبقاء في البيت حين يقضي موسى اليوم كله في المزرعة، اقترح بادي أن يذهبا إلى موسى في المزرعة، على الأقل ليعرفا شيئا عن طريقة الزراعة في هذه البلاد. لكن المزرعة كانت خارج القرية ولأنهما لم يعتادا على قطع مسافات طويلة أثناء هطول المطر بدا لهما الأمر صعبا

قليلا، كما حسمت مخاوف نوري اقتراح بادي، أوضح: سمعت من موسى أنّ الجنود الأتراك يهاجمون المزارع بحثا عن العبيد الفارين الذين يعملون في الزراعة، وكذلك لحساب المسافات المزروعة لاحتساب ضريبتها عند الحصاد، حتى لا يتهرب بعض المزارعين ويعطون أرقاما أقلّ لإنتاجهم! علّق بادي: ذلك غريب لأن مسافة الزراعة لا تصلح مؤشرا لحجم الإنتاج! فإنتاج الأرض تحكمه عوامل أهم مثل كمية المطر والآفات التي قد تضرب المحصول، ومدى ما يبذله المزارع من جهد، هناك مزارع يسهر على زراعته ويقوم بقطع الحشائش أولا بأول حتى لا تعوق نمو زراعته، البعض لا يهتم بالحشائش فيكون لها تأثير سلبي على إنتاج الأرض، ثم مدى خصوبة الأرض نفسها وليس مساحتها! أحيانا يكون المطر الغزير نفسه مشكلة حين يجرف الأرض والبذور، أما المطر القليل فهو فشل مؤكد للموسم!.

كانت أيام المطر الغزير تمضي طويلة مملة، يحاولون أن يقضوا على السأم بلعب السَّيِّجَة على الأرض، قال بادي: لو كنا نعلم أنّ العمل سيتعطل تماما هكذا في موسم المطر، لكننا خططنا للحصول على أرض والذهاب مع موسى للزراعة.

توقف المطر في أيام متفرقة كانا يعودان خلالها للذهب، رغم أنّ المنطقة تصبح خطيرة بسبب السيول التي تنحدر فجأة من قمم الجبال، نصحهما موسى بالتوقف عن الذهاب للجبل في فترة الخريف، مضت أيام المطر رطبة قاسية، فضّلا أن يبقيا في بيت الخواجة الأسود رغم أن موسى قال لهما إن المنطقة القريبة من

الجبل بها مجار قديمة للسيول يمكن أن تجتاح المكان في أي وقت، لكن السيول إن انهمرت فلن تكون القرية نفسها في مأمن منها. لذلك فضّلاً أن يبقيا في بيتها.

اكتشفا ذات يوم بعض العقارب الصغيرة في الفناء، يبدو أن ماء المطر يدفعها للخروج من مخابئها أسفل صخور الجدار، قال بادي: لحسن الحظ كما علمت من موسى أن لدغتها ليست مؤلمة جدا، يبدو أن العقارب في هذه المنطقة لا تحمل سوى كميات صغيرة من السم.

حتى لا تتسلل العقارب ليلا إلى القطية قاما أثناء النهار بحفر خندق صغير حول القطية سرعان ما امتلأ بمياه المطر، فكّر بادي أن يطلب من موسى في زيارتهم التالية له أن يعطيهم بعض الحبوب ليقوما بزراعتها في فناء البيت.

أعطاهم موسى بعض الحبوب، قال لهم إن الوقت قد تأخر على الزراعة ربما لن يثمر محصولها لكن على الأقل يمكن أن يستفيدا من القصب كعلف للحمير ولتدعيم سقف البيت وجداره، زرعوا الذرة والسّمسم، زرعوا أكثر من نصف الفناء بالسّمسم والبقية بالذرة. خلال أيام بدأت البذور تنبت، ثم تنمو بسرعة. يبدو أن الأرض أخصب مما توقعوا، فقد كانت المزارع كلها في الجانب الآخر من القرية بينما ترك الجانب القريب من الجبل لبناء المساكن ما يوحي أنهم تركوا الأراضي غير الخصبة للبيوت.

وجدا في زراعتها شيئا يشغلها قليلا في نهارات الخريف الطويلة، يعزف نوري ألحانه المنفردة، يحاول أن يتكرر مداخل

لينساب اللحن في عدة اتجاهات في اللحظة نفسها، حتى يعوّض النقص في أنغامه بسبب الأداء الفردي، لحسن الحظ أن شجيرات السمسم والذرة وفّرت لهما جدارا للبيت فقد تهدمت أجزاء كبيرة من جدار البيت بسبب المطر والرياح. سيتعين عليهما إصلاح السور بعد توقف المطر، فهو يوفر لهما نوع من الحماية من الكلاب الضالة والحيوانات الأخرى الهائمة.

بعكس ما توقع موسى فقد امتلأت سنابل الذرة بالحبوب، قال نوري أخشى أن تكون مجرد حبوب فارغة من الداخل!

أخيرا بدأت السحب تتراجع، أشرقت الشمس، وبدأت الأرض تجف من حولهم رغم أنه كان يصعب تخيل أن تجف الأرض بعد كمية المياه المهولة التي هطلت عليها. بدأ موسم الحصاد، شارك بادي ونوري مع موسى في الاحتفال بموسم الحصاد، شارك نوري في العزف مع مجموعة عازفي الوازا، وشارك بادي في الرقص، كما ذهبوا في اليوم التالي لمشاهدة طقس جدع النار، حيث يتقدم بعض زعماء القبيلة يحملون أعوادا مشتعلة يلقونها بقوة نحو صخرة مخصصة لطقس جدع النار، لرجم الأرواح الشريرة. وقد طاف الاثنان في صبيحة يوم جدع النار مع موسى لمواساة الأسر التي فقدت بعض أفرادها خلال العام المنصرم، وحين عبرا بجانب النيل الأزرق شاهدا فتاة رائعة الجمال مربوطة بحبال من السعف يستعد عدد من الرجال لإلقائها في النهر، شعر بادي بالقلق من أجل الفتاة، لكن موسى شرح له أنّ ذلك طقس علاجي لإخراج المس الشيطاني.

ساعدهما موسى في حصاد محصول مزرعتها الصغيرة، لم يكن الإنتاج سيئا خصوصا السمسم، حفظا كمية الذرة التي حصلنا عليها لتكون غذاءهما في موسم الجفاف، ثم ذهبنا إلى السوق لبيع السمسم، لم تكن الكمية كبيرة لكن ما حصلنا عليه من مال كان كافيا ليشترى حذاءين جديدين وبعض الملابس، اشترينا أيضا أواني للطبخ من معدن الصفيح الخفيف، ليستخدماها بدلا من أواني الفخار الثقيلة التي ورثناها عن الخواجة الأسود، والتي تحتاج لنار قوية حتى يمكن إعداد الأكل عليها، اشترى بادي محفظة من جلد البقر ليستخدماها في حفظ ذرات الذهب. اشترى قليلا من حلوى مصنوعة من السمسم والسكر، اشترى سكيننا للطبخ، اشترى الكركدي والتبلدي لإعداد مشروب منها. كانا قد قاما بتخزين الأوعية التي استخدمناها في غربلة الرمل للبحث عن الذهب فلم يحتاجا لشراء أوعية جديدة. اشترى بما تبقى من مال بعض البصل والسمك ولحم الضأن المجفف، اقترح بادي أن يشترى معولا لتنظيف فناء البيت من جذور القصب وإعداد الأرض لزراعتها إن اضطرنا للبقاء حتى موسم المطر التالي. لم يكن نوري سعيدا بالاقترح: هل سنبقى هنا حتى موسم المطر التالي؟

ذكره بادي بأنها هاربان، وأنه حتى لو كانت ظروفها لا تسمح بالبقاء طويلا، فستكون عودتهما بدون مال تسليما ل نفسيهما مجانا لأعدائهما.

عادا إلى البيت، قررا أن يعودا إلى الجبل صباح اليوم التالي، رغم أنه كانت هناك لا تزال بعض الأمطار المتقطعة. حين عادا في أصيل

اليوم الأول، أكلا قليلا من التمر وشربا الماء ومنقوع الكركدي والتبلدي، وبعد أن ارتاحا قليلا شرعا في ترميم سور البيت، نقلا بعض الماء من بعض البرك القريبة، ونقلا من زريبة الحمير بعض الروث قاما بخلطه مع الطين وتركاه ليتخمر ليقوما بتدعيم السور به بعد أيام، استخدما القصب وبعض الحشائش والصخور في تدعيم السور، بقيت فتحات في السور، قررا جلب مزيد من الصخور والحشائش حين تخمر خليط الطين وروث الحمير.

حصلا خلال عمل ثلاثة أيام على بعض ذرات الذهب قاما بحفظها في المحفظة الجلدية التي اشتريها من السوق بعد بيع المحصول. في اليوم الثالث كانت رائحة الطين قد فاحت في الفناء، عملا بعد عودتهما من الجبل في تدعيم السقف والجدار بالطين المخلوط مع روث الحمير، رفعا أولا كمية من الطين إلى سقف القطية، لترميم سقفها الذي تآكل بسبب المطر، ثم قاما برص الصخور التي أحضرها لإغلاق فتحات السور، بقيت بضع فتحات لم تغلق جيدا، اقترح بادي وقد نال منها التعب ولم يعودا قادرين على العودة لاستجلاب مزيد من الصخور، أن يستخدموا قدر الفخار التي تركها الخواجة الأسود، خاصة أن أحدا لن يستخدمها مرة أخرى. كان هناك قدر ضخم يشبه البرمة التي تستخدم لعمل شراب المريسة، استخدماه مرة واحدة خلال موسم المطر لغلي الماء، ولغسل ثيابها التي اسودّت من التراب والعرق والطين، قام نوري بخطط الإناء في الأرض لتحطيمه، تحطم الفخار الأسود من آثار دخان النار وتناثرت من حولهما قطع معدن صفراء: لقد عثرا على كنز الخواجة الأسود!

(16)

جاء الفقهاء في اليوم التالي، حسب الموعد الذي ضربه لهم نائب الملك. انتظر نائب الملك أن يتحدث شيخ عبد الكريم نيابة عنهم بما توصلوا إليه من قرار، لكن الفقهاء لبثوا صامتين، مدوا أيديهم إلى الطبق الذي قدمه لهم أحد خدام القصر وسحب كل واحد منهم حبة بلح واحدة من البلح المحشو بالسمن والمدهون بالسمن، وشربوا شراب الكركدي الساخن، دون أن يصدر عنهم أي صوت، شعر نائب الملك أنّ الفقهاء يعانون من ضغط شديد، وأنّ ما توصلوا له لن يخرج من دون مساعدة. استمتع للحظة بمعاناتهم الرهيبة، تحدث معهم حول أسعار محصول التمر وحول الطلاب وأشياء أخرى. ثم سأهم فجأة بعد أن شعر أن أعصابهم توترت تماما مثل قوس يوشك على إطلاق السهم: هل توصلتم لشيء!

قال شيخ عبد الكريم بعد صمت قصير: إذا أصدرت قرار إقالة القاضي سنقوم بإصدار منشور، ثم صمت مرة أخرى قبل أن يقول بحذر: لكن لدينا شرط!

قال النائب: ما شرطكم؟

قال الشيخ: إذا أعلن القاضي الجديد أن الملك مفقود، يجب أن تكون هناك فترة انتظار ستة أشهر على الأقل قبل أن يتم تعيين ملك جديد.

لم يغضب النائب بعكس ما توقع الفقهاء، كان مجرد تنازلهم بخصوص القاضي يكفيه في تلك اللحظة. كان اليوم يوم الأربعاء، أخبرهم أن قرار إقالة القاضي سيصدر غدا وعليهم تلاوة المنشور مع صلاة الجمعة وإرسال من يقوم بتلاوته في الأسواق.

كان النائب يود إرسال من يقوم بإعلان قرار إقالة القاضي في سوق الخميس، لكن الأتراك فاجأوه بالحضور مبكرا، كان يتوقع حضورهم ولكن ليس بتلك السرعة، قام بتسليمهم كل المحصول الموجود في المخازن والذي جمعه من الأهالي، لكن ذلك كان أقل من ربع الكمية المقرر جمعها على المملكة. طلب نائب الملك مهلة ثلاثة أشهر، لكن الموظف التركي أمهله شهرا واحدا فقط وهدده بعواقب وخيمة إن لم تكن الأشياء المطلوبة جاهزة في الموعد.

مساء اجتمع النائب مع مستشاريه من الندماء، كان الموقف صعبا لكنه معتاد على ذلك، منذ سفر الملك وضيق الأحوال وانفراجها جزء من البرنامج اليومي، لم يؤثر ذلك كثيرا على مزاجه في استئناف المرح، بدأت الجارية الحبشية تغني، ودارت أكواب الشراب، كان النائب متأكدا أنه سيكون هناك مخرج من مشكلته مع الأتراك.

قال له عبدالله: ألم أنصحك أن تقوم بنقل كل المحاصيل أولا بأول لمخازن الأتراك؟ كيف ستقوم بسد العجز الكبير الآن؟

قال النائب: وكيف أصرف على القصر ونساء الملك وخدمه؟ من أين سأصرف عليكم؟

ضحك بابكر وقال: نحن لسنا بأبنائك، نحن نحضر معنا المريسة ونحضر اللحم ونحضر حتى الملح معنا!

قال النائب: دفع الله يياطل، يبدو أنه يريد كسب الوقت أملا في عودة الملك! لكن ذلك لن يجدي، سيحضر الأتراك بعد شهر، وإن لم يتعاون معي سيدفع ثمننا غاليا!

هل حسمت موضوع القاضي؟

قضى الأتراك اليوم معي، حتى نقلوا محاصيلهم، قال لي المحصل التركي: سمعنا أن لديك جارية تساوي وزنها ذهباً! إذا لم يوجد عندك الذهب لماذا لا تعطينا الجارية!

ضحك الندماء وقال عبدالله: لقد تجاوزوا آخر خط أحمر، لا يمكن إخفاء شيء عن هؤلاء الأتراك، إن أخذوا الجارية ستكون قد خسرت كل شيء، سلطة الحكم نهاراً، وسلطة الجمال ليلاً! لن تتعدى حدود سلطتك كملك أكثر من حدود الغرفة التي تنام فيها!

ضحك النائب وأعلن: قال لي المحصل التركي: لقد بقيت معك الجارية سنوات، ولم تعد تساوي وزنها ذهباً، حين نحضر المرة القادمة إن لم نجد المال أو الذهب سنقوم بوزن الجارية ونعطيك وزنها قطناً! ألم تستمتع بها طوال سنوات؟ الذهب نفسه يمكن أن يصدأ ما بالك بجارية!

وهل تنوي ترك القاضي حتى تنتهي من مشكلة الأتراك؟

سأصدر أمر إقالته غدا حتى يتم إعلان الأمر في صلاة الجمعة،

وسيقوم الفقهاء بإصدار منشور تأييدي للأمر الملكي!
اقترح عبدالله: أرى أن تؤجل ذلك حتى تجد حلا للمشكلة مع الأتراك.

أوضح النائب: لا أستطيع لأن الفقهاء يشترطون انتظار ستة شهور بعد إعلان أن الملك مفقود، حتى يتم تنصيب ملك جديد. كل يوم يمر يجعل تحقيق حلم الجلوس على عرش المملكة بعيدا!
قال خيرى: أنا اتفق معك في أن موضوع القاضي لا علاقة له بالمشكلة مع الأتراك، منذ سفر الملك وأنت كل عام لديك مشكلة معهم لكنك تنجح في النهاية في إرضائهم!

علق عبدالله: يرضيهم، لكن لا تنس أن عدد رقيق الملك انخفض كثيرا ولا تنس أن النائب اضطر للتنازل لهم عن بعض الأراضي وترك لهم حتى سجن المملكة، أي أن عدة سنوات من إرضاء الأتراك سيجعل مساحة المملكة تتناقص تدريجيا، حتى تصبح فقط في القصر وملحقاته!!

قال النائب: أنت لا تتذكر إلا الأشياء السيئة، الغناء جميل والخمر جيدة، لا تلاحظ كل ذلك بل تلاحظ أن الخمر على وشك أن ينفذ وأن الراقصة الحبشية لم تعد تساوي وزنها ذهبيا كما كانت قبل سنوات، تقول نفس كلام الأتراك!

إنني أخشى عليك فقط من المشاكل، لو عاد الملك أو عجزت عن الوفاء بما يطلب الأتراك ستذهب إلى السجن!
لا يوجد سجن في المملكة، السجن تحوّل إلى مخزن يستخدمه

الأتراك لتخزين الجبايات!

ستظل تردد لو عاد الملك، لو عاد الملك، حتى نجده ذات يوم
أمامنا هنا! دعك من هذه السيرة واحك لنا شيئا مسليا!

اقترح خيرى: أفضل أن تصدر الأمر صباح السبت، سيكون
من الأفضل إعلان القرار الملكي في سوق السبت، في صلاة الجمعة
بعد أسبوع يذيع الفقهاء منشورهم بتأييد القرار، سيكون الناس
قد عرفوا كلهم عندئذ بالقرار، معظم الناس يحضرون إلى سوق
السبت لبيع محاصيلهم وشراء احتياجاتهم، ومن سيحضرون
سيقومون بإبلاغ من لم يحضروا، وبالتالي سيكون القرار قد وصل
إلى الجميع حتى يوم الجمعة.

فكر النائب قليلا، ثم أعلن موافقته على اقتراح خيرى، قال
صاحكا: أنت من سيكون القاضي وليس أنا، لا مشكلة ما دمت
لست متعجلا على ذلك!

يوم السبت كان القاضي في المحكمة جوار السوق يفصل في
بعض القضايا، حين سمع مناديا ينادي في السوق أن نائب الملك
بعد أن تشاور مع الفقهاء أصدر قرارا بعزل القاضي وتعيين قاض
جديد مكانه، لم يقل القاضي شيئا، كأنه كان يتوقع صدور القرار
منذ مقابلته مع نائب الملك، أصلح وضع عمامته على رأسه وغادر
المكان.

شعر نائب الملك بالراحة حين مرّ يوم كامل على إعلان قرار
عزل القاضي، دون أن تعترض أية جهة على ذلك. قال له عبدالله

مساء حين بدأت جلسة الأُنس: أخشى أن يشكوكَ القاضي إلى
الحاكم التركي!

شعر نائب الملك بالقلق، لكن القاضي الجديد طمأنه: الأتراك
يهتمهم أن يتم تسليم الضرائب في وقتها، المشاكل الداخلية لا
تهمهم كثيرا، يستطيعون عزل الملك نفسه إن أرادوا ما دام المدفع
معهم! من يريد منازلهم فليشتر مدفعا أولا!

قال نائب الملك: من أين لنا بالمدفع؟ شراء جارية واحدة
أحدث عجزا في حسابات المملكة منذ خمس سنوات لا نستطيع
علاجه، رغم أننا نطلب من المزارعين دفع ضريبة أعلى مرتين مما
يطلبه الأتراك! وتريدنا أن نشترى مدفعا! وما الذي سيدفعنا لمنازلة
الأتراك؟ أصبحت قاب قوسين أو أدنى من العرش وتريدني أن
أخسر كل شيء!

لاحظ عبدالله: يجب أن تدافع عن موطنك ضد الغزاة
الأجانب!

أنت كنت سكرانا حين عبر جيش الغزاة من هنا! ولم تعرف
بدخولهم إلا بعد أن سقطت سنّار! لماذا لم تخرج لتحاربهم؟ ولماذا
لم تتذكر أنهم غزاة ويحتلون وطنك إلا بعد أن أصبحت أنا على
مسيرة بضع أشهر من العرش!

تساءل القاضي الجديد: ومتى سأبدأ العمل؟

ضحك النائب: ننتظر حتى يذيع الفقهاء منشورهم بعد خطبة
الجمعة، يوم السبت القادم يمكنك أن تبدأ العمل، المحكمة تكون

دائما يوم سوق السبت، لا تنس سيكُون الفقهاء معك مجلس القضاة، سيقدمون لك النصيحة في كل القضايا.

قال: بابكر أعتقد أنه يجب أن تنظر في توسيع مجلس القضاة، هناك بعض كبار السن ممن يعرفون الكثير عن تاريخ بدء استثمار الأرض والملاك القدامى لمعظم الأراضي التي يدور نزاع حول ملكيتها.

تساءل عبدالكريم: وكم يبلغ مرتب القاضي؟

لا أعرف! يجب أن أستدعي كاتب الملك لأعرف كم كان يدفع الملك للقاضي، أعتقد أنّ لديه نسبة في الغرامات التي تفرضها المحكمة على بعض المتهمين!

نصحه عبدالله مبتسما: يجب أن تفرض غرامات إذن على الجميع، حتى لو ثبتت براءة أحدهم يجب أن تجد سببا ما لجعله يدفع مبلغا من المال! لحسن حظك لا يوجد سجن، حتى تنتهي فترة استئجار السجن بواسطة الأتراك يمكنك أن تعتذر للصوص: العفو يا إخوتي، ليس لدينا سجن، يجب أن تدفعوا مبلغا ماليا لفرج عنكم فورا وإلا سنضطر لتسليمكم للحكومة، وعندها لا أعرف ما الذي يمكن أن يحدث لكم، الأتراك يمكنهم بيعكم ولن يستطيع أحد الاعتراض على ذلك! وإلا أرسلوه ليجلس على الخازوق أو يواجه المدفع!

يقال إنهم يسمّون المدفع القاضي! يسألون من يريدون التخلص منه، هل تريد مواجهة القاضي، يجيب الرجل بنعم ظنا

منه أنه سيقابل شخصا وظيفته الفصل في الاتهام الموجه له، ليُفاجأ
بنفسه أمام المدفع!

قال النائب: على كل حال فيم العجلة، القاضي لم يبدأ عمله
بعد، والأجر مثل الجنود يُدفع سنويا!

ضحك خيري وقال: أرجو ألا يكون مثل الأجر الذي يحصل
عليه الجنود من الأتراك، مال قليل، وبعض الملابس والذرة من
النوع الرديء الذي لا يصلح إلا لصناعة الخمور الرديئة والبقية
من الرقيق المرضى!

قال عبدالله: يقال إنّ المحصّل التركي لديه أكثر من ميزان
واحد، إن كان يريد منك مالا أو ذهباً يستخدم ميزانا يعطي وزنا
أقل، وإن كان يريد إعطائك أجرا أو يشتري منك شيئا يستخدم
ميزانا يعطي وزنا أكثر من الوزن الصحيح، وبذلك يسرقون
الناس مرتين، حين يعطونهم شيئا وحين يأخذون منهم شيئا!

(17)

حبس بادي ونوري أنفاسهما وبذلا جهدا لكتم أصواتهما حتى لا يلفت ذلك الانتباه إليهما، قاما بتحطيم بقية الأواني الفخارية، عثرا على قطع ذهب أخرى بداخلها، قال نوري: أصبحنا ملوكا دون أن نعلم، كنا نطبخ ونأكل في قدور من الذهب طوال العالم الماضي!

قاما أيضا بتحطيم المرحاكة، واستخرجا بقية الكنز من داخلها، قال بادي بعد أن التقط أنفاسه وقبل أن يفكرا كيف سيتصرفان في الثروة التي هبطت عليهما، بعد أن كادا يفقدان الأمل في حدوث أية معجزة.

يجب أن نكمل عملنا حتى لا نشير الانتباه، ونعيد ترميم المرحاكة حتى لا يعرف أحدهم أننا عثرنا على شيء ما بداخلها، قاما بنقل قطع الفخار من بقايا الأواني وأغلقاها بفتحات الجدار، وثبتا كل شيء بالطين جيدا، ثم أعادا تجميع المرحاكة، لم يكن ذلك صعبا فالجزء الرئيسي في المرحاكة يتكون من قطعتين من الصخر القوي، هذا الجزء لم يمسه لأن الصخر غير قابل للتحطيم، يستحيل أن يكون أحدهم قد حطّمه وأعاد تجميعه، كان عليهما فقط إعادة تثبيت الجزء الذي ينزل فيه دقيق الحبوب المطحونة، والذي أخفى الخواجة الأسود بين ثناياه جزءا من الكنز، فكرا أثناء انشغالهما بترميم المرحاكة: لا بدّ أن الخواجة الأسود كان ذكيا جدا

حين زعم أنه أخفى الكنز في مكان ما ولم يعثر عليه، حتى يبعد عن مكانه الحقيقي قطاع الطرق وكل الحالمين بالثروة.

بعد أن فرغا من العمل جمعا الذهب الذي عثرا عليه ووضعاه في جراب جلدي وغطياه بالذرة، أعدا طعام العشاء من عصيدة الذرة والمرق الذي صنعه من الطماطم واللحم المجفف، لم يشعرا للمرة الأولى منذ شهور طويلة بالحاجة للاقتصاد في المواد التي يستخدمانها لصناعة الأكل، بعد أن شبعوا وأكلا بعض التمر وشربا منقوع الكركدي والتبلدي، بدأ يفكران. كانا يشعران بالارتياح، نوري شعر أنّ سمراويت أصبحت قريبة منه، اختلطت في عقله أفكار كثيرة حول البيت الذي سوف يعيشان فيه والحياة الجديدة التي ستبدأ.

قال بادي: من الخطر أن نحمل كل هذا الذهب ونغادر، كل من يلتقينا في الطريق يعرف اننا قادمون من مناطق الذهب، معظم الناس يعرفون أن هذا القادم من جبال الذهب يحمل ربما ذرات قليلة، لكن من قال إنه لا يوجد طامعون في تلك الذرات القليلة! لا تنس أن موسم الجفاف بدأ، سيبدأ موسم صيد الرقيق، وستنطلق حملات كثيرة متجهة جنوبا وشرقا قد نمرّ بها جميعا!

اقترح نوري: موسى إنسان موثوق، يمكننا حتى ألا نخبره، فقط نترك عنده جرابا نضع فيه بعض الذهب وسيقوم بحفظه لحين عودتنا!

قال بادي: ما دمنا نثق به لماذا لا نخبره بسرنا؟ هذه منطقة يقصدها الجيش التركي باستمرار إضافة لكثير من الغرباء وقريبة

من حدود ممالك أخرى، تعج بقطاع الطرق، ربما لن يكون تصرفا كريما أن نأتمن عنده شيئا لا يعرفه، شيء قد يسبب له خطرا ما، إن داهم الجيش التركي البيوت، كما يفعلون أحيانا خصوصا في منطقة يعرفون أن الناس فيها يمكن أن تكون لديهم ثروات، لا يرغبون في الإعلان عنها حتى لا يدفعون لهم الضرائب! حين نكون واضحين معه ربما يقوم بدفنها مثلا، بدلا من أن نحضر يوما ما ونعرف أن القرية تعرضت للنهب مثلا، وحين نخبره إن ما تركناه معه كان ذهباً، يلومنا لأننا لم نخبره، وأنه كان بإمكانه لو عرف ذلك أن يخفي الأمانة في مكان لا تصل له يد أحد، غير إن إخفاء الذهب يمكن أن يكون جريمة أخرى في نظر رجال الضرائب!

بدا نوري مترددا قليلا: أوضح: أتق فيه، ولكن ماذا يحدث لو أن أحدا اكتشف الذهب معه، وذاع خبره؟ أخشى أن يطاردنا الأتراك في كل مكان نذهب إليه، هناك من يرى نفسه حتى في هذه القرية صاحب حق في ذهب الخواجة الأسود، ألم تر كيف حفروا فناء البيت عدة أمتار ودمروا حتى جدار البيت بحثا عن تلك الثروة؟ وقضوا عدة سنوات يبحثون في الكهوف والجحور في سفح الجبل. هل تصدق أنهم سيتركوننا إن ذاع خبر عثورنا على الكنز؟ سيسافرون خلفنا ولن نستطيع أن نختبئ منهم في آخر العالم!

هل نجازف بحمل الكمية كلها والسفر بها؟

دعنا لا نعرض موسى نفسه للخطر إن حفظنا جزءا من الكنز

معه، يمكن حين نحضر بعد أن تستقر أحوالنا، نستخرج باقي الكنز ونعطي موسى جزءا منه كتعويض لأننا لم نخبره حتى بأننا رحلنا من القرية. يمكننا أن ندفن جزءا منها في مكان ما قريب من البيت، كل المنطقة حول البيت حفروها ولا أعتقد أن أحدا سوف يقوم بالحفر هنا مرة أخرى!

وجد بادي الاقتراح معقولا، وجد أن فكرة عدم إبلاغ موسى ستبعده عن خطر محتمل وتخفف قليلا من الشعور بذنب أنها يخونانه وهو الذي ساعدهما كثيرا وكان بيته بيتا لهما.

قال بادي لماذا لا نستخدم نفس فكرة الخواجة الأسود؟ نصنع أواني من الفخار ونضع فيها جزءا من قطع الذهب، وبعد أن تجف نحرقها في النار لتصبح حمراء اللون ثم ندفنها في الأرض حتى إن عثر عليها شخص ما لن يفكر أن في داخلها شيئا!

قاما فورا بإحضار الماء وروث الحمير لخلطه مع الطين، لم يكن هناك وقت لانتظار الطين حتى يتخمّر، بدأ فورا يصنعان بعض الأواني، كانت تلك تجربتهما الأولى لصناعة أدوات فخارية لم يكن عملها جيدا، قال بادي: ذلك أفضل حتى لا يفكر من قد يجدها بالصدفة في أن يستخدمها!

قال نوري: لماذا لا نضع الذهب داخل الطين الذي استخدمناه في تثبيت الجدار!

لم يوافق بادي، أوضح: الجدار يمكن أن تدمره الزوابع أو المطر، أو حتى يستخدمه شخص ما يحتاج مثلا لعمل إسطبل للبهائم أو

الحمير فيقوم بنقل فروع الأشجار ومعها الصخور وقطع الطين!
صنعا ما يشبه جرة لتبريد الماء، ووعاء للأكل، قاما بتثبيت قطع
الذهب التي اختارا تركها داخل الطين، ثم تركا الأوعية لتجف،
قدرا أن ذلك قد يحتاج إلى يومين بفضل شمس النهار الحارقة.

بقيا في البيت في اليوم التالي، انشغلا بالعمل في تثبيت الجدار
حتى لا يشك أحد إن لاحظ البعض غيابهم من الجبل، كان ذلك
عاديا على كل حال فقد تعودا على الغياب في بعض الأيام من
الجبل، حين يصيبها السأم من لا جدوى العمل الشاق طوال النهار
لتكون النتيجة كل يوم بضع ذرات تكفي بالكاد لشراء احتياجاتها
القليلة ليستطيعا مواصلة العمل، قررا أن يذهبا إلى موسى قبل أن
يغادرا بيوم ويخبراه أنهما بصدد السفر إلى الخرطوم لقضاء بعض
حوائجها المهمة، ومن ثم العودة بعد أيام لمواصلة العمل، كانت
قد بقيت معها نقود قليلة من ثمن المحصول، قررا أن يقوما ببيع
الذرة التي كانا يذخرانها لغذائهما، ويحتفظا بجزء قليل منها للسفر،
ويشتريا بثمر الذرة ما قد يحتاجانه من تمر وبعض المواد الغذائية
للطريق الطويل.

قال بادي إن مجرد بيعهما للذرة في السوق، إضافة للذرات
القليلة من الذهب التي حصلا عليها، سيبعد أية شبهات عنهما،
كان عليهما انتظار خمسة أيام حتى يحين موعد يوم السوق التالي،
لم يذهبا خلالها إلى الجبل، لن يفتقدهما شخص هناك، معظم من
تعرفوا بهم أثناء البحث في الجبل عادوا إلى مناطقهم، بعضهم
عشروا على كميات ليست كبيرة لكنها كانت كافية لهم لبدء مشاريع

صغيرة في مناطقهم التي جاءوا منها، ومعظمهم غادروا بسبب اليأس من العثور على شيء.

أكملنا تدعيم الجدار، وحين تبقى بعض الطين قاما بوضعه في أرضية القطية، كما قاما بتنظيف الأرض واقتلاع بعض ما تبقى فيها من حشائش وجذور القصب، وكوَمَا كل شيء أمام الحمير التي كانت تتغذى جيدا، فالأرض لا تزال خضراء من أثر موسم الأمطار الطويل، حين جفت الأواني الطينية، حفرا حفرة في وسط الفناء، وضعا في الأسفل كمية من روث الحمير والبهائم الجاف، كانا قد نقلنا من بعض الزرائب القريبة بعض روث البهائم الجاف لاستخدامه في حرق الأواني، أنزلا الأواني الطينية في الحفرة وأهالا عليها روث البهائم والحمير الجاف ثم وضعا بعض القصب والحشائش الجافة فوق الحفرة وأشعلا النار فيها. قال بادي أعتقد أن الأواني لن تكون حمراء حين يتحول الطين إلى فخار بسبب حرقه داخل الأرض بمعزل عن الهواء، لكن تلك ليست مشكلة حتى حين يتم حرق الفخار في الهواء تصبح بعض الأواني سوداء اللون! تذكر أن والدته ووالدة نوري كانتا تقومان بذلك العمل في إحدى المزارع حول القصر، كانتا تصنعان جرار الماء الصغيرة وبعض الأواني التي تستخدم لحفظ المواد الغذائية، جرار الماء الكبيرة أمام القصر كان يحضرها شخص آخر يقوم بعمل الأواني الفخارية الكبيرة.

تحتاج الأواني إلى ثلاثة أيام، قال نوري: أخشى أن يذوب الذهب من فرط الحرارة!

قال بادي: لا بأس حتى إن ذاب سيبقى في مكانه! كان هناك خيط دخان رقيق يتسلل من الحفرة، كان هو الإشارة الوحيدة إلى أنّ النار لا تزال مشتعلة، قال بادي إن والدته تقوم بإنضاج اللوبياء بنفس الطريقة، تضعها في إناء فخاري مع الماء وتُحكم إغلاق الجرة ثم تدفنها في نار روث البهائم، تقوم بفتحها في نهاية اليوم أو في اليوم التالي فتكون حبوب اللوبياء حمراء وناضجة ولذيذة، يضيفون لها قليلا من الملح ويأكلونها بشهية.

اقترح نوري: لماذا لا نتركها في مكانها؟ فقط بدلا من روث البهائم الذي تحول إلى رماد، لماذا لا نهيل عليها التراب؟

قال بادي: فكرة جيدة، لكن ربما لو دفناها خارج فناء البيت يكون ذلك أكثر أمانا، لقد تم حفر البيت من قبل، لكن ربما يأتي باحث آخر يكون قد سمع بقصة الخواجة الأسود، ويقرر الحفر في الفناء من جديد أملا ألا يكون من حفر قبله قد عثر على شيء!

اقتنع نوري بالفكرة، كانت لديه فكرة أخرى جهنمية، ما رأيك أن نحاول تحويل البيت باسمنا لدى شيخ القرية، نحن لا نعرف ما سيحدث مستقبلا، وما إن كانت رحلتنا ستنجح كلها، ربما نضطر يوما للعودة فنجد غريبا آخر قام باحتلال البيت خاصة وأننا تعبنا في إصلاح الجدار وسقف القطية؟

قال بادي: لا أعرف كيف يتم ذلك، لكن أظن أن هذه منطقة بعيدة قليلة من القرية وبالتالي ربما يكون العرف السائد أنّ من يسكن في أية أرض تصبح ملكه، لكن ربما هناك ضريبة يجب دفعها تذهب للأثرالك. يمكننا أن نسأل يوم السوق أو نسأل موسى، لكن

أخشى أن يسأل البعض لماذا يريد هذان الغريبان أن يصبح بيت الخواجة الأسود بيتهما؟ أخشى أن يثير ذلك الشك في أننا عثرنا على شيء ما، لكن يمكننا أن نقول إننا بذلنا جهدا كبيرا لإصلاح سور البيت والقطية، ولأننا سنذهب لقضاء بعض الأغراض نريد حين نحضر قريبا ألا نجد شخصا آخر سكن في البيت، خاصة أن المنطقة يقصدها كثيرٌ من الأعراب الذين يرغب بعضهم في قضاء فترته في بيت، وليس في العراء كما يفعل معظم الباحثين عن الذهب! أي أننا يجب فقط أن نقول إننا نحتاج إلى البيت حين نعود قريبا ولا نقول إننا نريد امتلاك البيت!

وإفقه نوري على كلامه، قررا أن يناقشا الموضوع مع موسى بحكم أنه من سكان القرية ويستطيع أن ينصحهما كيف يجب أن يعالجا الموضوع.

أخرجوا الأواني مساء اليوم الثالث، وبعد أن اطمأنا إلى عدم وجود غريب في المنطقة، قاما بإبعاد الحمارين قليلا ثم حفرا في نفس المكان الذي يقف فيه الحماران، دفنا الأواني جيدا ونثرا الحشائش وروث الحمير حتى يخفيا آثار الحفر، ثم أعادا ربط الحمارين في نفس المكان حتى يخفيا بآثار أقدامهما أية آثار تبتقت من عملية الحفر والدفن.

اليوم التالي كان يوم السوق، اقترح نوري أن يحملا معها قطع الذهب التي تبتقت، لكن باءي فضل أن يخفياها في البيت، قال ربما حملها معنا داخل السوق يلفت نظر أحدهم، أفضل أن ندفنها في تراب الفناء ونتركها حتى اللحظة التي سنغادر فيها وبذلك نضمن

حتى إن زارنا شخص ما أنه لن يلاحظ شيئاً، لا تنس أن موسم صيد الرقيق قد بدأ منذ فترة، بجانب الأتراك الذين يحضرون كل فترة لجمع الضرائب من المنطقة ومن الباحثين عن الذهب.

في السوق باعا الذرة، وذرات الذهب القليلة التي حصلنا عليها في آخر يوم لهما في الجبل، واشترينا بعض المواد التي سيحتاجان لها في السفر، اشترينا التمر، لأنهما قررا ألا يتوقفا في الطريق كثيرا حتى يتمكننا من العودة للخرطوم بسرعة. قال بادي قد يكون الطريق آمنا فمعظم جنودهم مشغولون في حملات موسم صيد الرقيق.

عادة من السوق بسرعة خوفا أن يداهم أحدهم البيت في غيابها. في اليوم التالي، يوم سفرهما ذهابا صباحا لزيارة موسى، وجداه مشغولا بصناعة حصير من السعف، قال إن شخصا طلب منه عمل عدد من الحصائر لمسجد صغير يقوم ببنائه، كان ابنه يعزف على الوازا، تحدثا معه كثيرا وأخبراه بأنها سيسافران لفترة قصيرة لقضاء بعض الأشياء والاطمئنان على أهلها ثم العودة بسرعة، ضحك موسى وقال: هل يئستما بسرعة؟

ضحك نوري وقال: هل تسمي انتظار عامين ياسا متعجلا!

ابتسم موسى وقال: بعض من أعرفهم بقوا أكثر من ثلاثين عاما يبحثون عن الذهب، جاءوا شبابا وعادوا شيوخا إلى بلادهم، وعزاؤهم الوحيد كان أنهم لم يعودوا يحتاجون إلى المال في العمر القليل الذي تبقى لهم في الحياة!

قال بادي: نحن لن نياس أبدا وسنعود وربما نبقي بقية عمرنا

هنا، هل يمكن أن يحتل أحد البيت في غيابنا؟

قال موسى: ممكن طبعاً، البيت بعيد عن القرية وقريب من الجبل لذلك سيجده البعض مناسباً، لكن لا مشكلة، يمكنني أن أذهب إليه كل يومين أو ثلاثة، ويمكنني أن أبلغ الناس الذين يسكنون قريباً من البيت أنكما قمتما بإصلاحه، وأصبح من حقكما أن تسكنا فيه، وأنكما اضطررتما للسفر لفترة قصيرة وستعودان إليه.

ألا يمكننا إبلاغ شيخ القرية؟ حتى يصبح الأمر رسمياً؟

قال موسى: يمكنني سؤاله، إن كان يجب دفع ضريبة سنوية أو رسم للتسجيل لا مشكلة يمكنني أن أقوم بذلك.

شعر الاثنان بالارتياح لكلام موسى، ودّعا بحرارة وعادا إلى البيت، قررا أن يسافرا مساء حتى لا يلفتا الأنظار إليهما، وألا يستخرجا الذهب ويجمعا أشياءهما إلا لحظة سفرهما. قاما بسقي الحمير حتى يتأكدا أنها لن تحتاج إلى الماء طوال السفر ليلاً، وحتى يمكنهما التوقف صباحاً للاستراحة وسقي الحمير.

أعدا طعاماً كثيراً حتى يأكلا منه، ويحملا الباقي معهما، صنع بادي نوعاً من الكسرة الخفيفة التي يمكن أن يأكلا منها ومن التمر حين يشعران بالجوع أثناء الطريق دون أن يضطر التوقف عن السير.

بقيا في انتظار مغيب الشمس حتى يبدأ في جمع أشياءهما. فجأة، في حمى الأصيل، سمعا صوت حركة أقدام خيول أو حمير كثيرة، ووجدا أعداداً كبيرة من الجنود على رأسهم عدد من الضباط الأتراك يحيطون بالبيت من كل اتجاه!

(18)

قام عدد من المنادين بالتجول في الأسواق وعدد من أماكن تجمع المواطنين، لإعلان قرار القاضي الجديد أنّ الملك مفقود، وأنه سيتم اختيار ملك جديد في مدة أقصاها ستة أشهر إن لم يظهر الملك.

استقبل الناس بحزن إعلان القاضي، كأنه إعلان لوفاة الملك، شعروا كأنّ أمرا جلالا على وشك أن يقع، الضرائب لم تعد تطاق والموسم الزراعي لم يكن ناجحا، الملك كان يتحمل جزءا من ضغوط الأتراك عن مواطنيه، شعر الجميع أنّ المستقبل لن يكون مبشرا. فكّر كثيرون في هجر البلاد والسفر إلى أماكن البحث عن الذهب علّ حظهم يكون أفضل هناك.

حضر الأتراك في الموعد المحدد، لم ينجح نائب الملك في تجهيز الضرائب المطلوبة التي حددها له المحصل التركي قبل شهر، استولى الأتراك على كل رقيق الملك، وعاثوا فسادا في قصر الملك، مزقوا الأثاث وحملوا كل شيء يمكن حمله، هدّد المحصل التركي نائب الملك: سأعطيك سبعة أيام، وفي المرة القادمة إن لم أجد كل شيء جاهزا سأخذك معي لتتم محاسبتك في الخرطوم. كيف تريد أن تصبح ملكا وأنت قبل أن تجلس على عرش الملك تريد خداع خليفة المسلمين؟

ازداد الوضع سوءا، أخذ الأتراك كل رقيق الملك، حتى

والدة بادي أخذوها معهم، والمشكلة أنّ الأتراك هجموا على بعض الأسواق واستولوا على كل ما عثروا عليه من محاصيل وبضائع، اختاروا الأصحاء من رقيق الملك وأرسلوهم للتجنيد في الفرقة الجديدة التي أمر الحاكم التركي بإنشائها. وأرسلوا النساء والأطفال للعمل في معامل صناعة الأصباغ التي أنشئت لاستغلال نبات النيل الذي فُرِضت زراعته على المزارعين، بقية الرقيق المرضى عُرضوا للبيع، والبعض سيرحل إلى الخرطوم لتدفع منهم مرتبات الجنود.

لم يظهر دفع الله ولم يرد عليه في طلبه الزواج من ابنته، أسرع نائب الملك بإخراج منادين لحث الأهالي على تسليم الضرائب، ولأنّ معظم الناس دفعوا ما عليهم من ضرائب فقد كان المنادي يحث الناس على دفع ضرائب العام القادم أيضا لأن هناك عجزا في الضريبة وإن حضر الأتراك ولم يجدوا طلباتهم جاهزة فقد يعيشون خرابا في المملكة.

لم يستجب الكثيرون بسبب الأحوال الاقتصادية السيئة، الحكومة تُلزم المزارعين بزراعة نبات النيل الذي يُستخدم لتصنيع الأصباغ، والحكومة هي التي تحدد سعرا زهيدا لشراء المحصول الذي يحتاج لمياه كثيرة، مما أرهق الثيران التي تسحب السواقي، وشاع بين المزارعين أن التربة التي تُزرع فيها النيل لا تصلح مستقبلا لزراعة أية محاصيل أخرى. لذلك يعتمد معظم الأهالي على محصول التمور الذي تأثر بهطول المطر في موسم التلقيح.

اجتمع نائب الملك مع القاضي وبقية ندمائه للبحث عن حل،

اقترح القاضي أن يبادر نائب الملك قبل عودة المحصل التركي بمخاطبة حاكم الإقليم التركي، يشرح فيه الظروف التي تمر بها المملكة وأنه بسبب فشل الموسم الزراعي لأعوام متتالية لم يستطيع معظم الأهالي تسديد ما عليهم من ضرائب، ويطلب منه مهلة عام لتسديد ضريبة العام الحالي. وأن يلتمس منه إعفاء الأهالي من زراعة النيلة، والتي رغم أن الباشا محمد علي في زيارته قبل أعوام أصدر أمرا بعدم إلزام المزارع غير الراغب بزراعتها، لكن بعض المستثمرين الأجانب بالتواطؤ مع بعض الموظفين المحليين ما زالوا يفرضون على بعض المناطق زراعتها.

استدعى النائب كاتب الملك لصياغة العريضة وتم إرسالها في نفس اليوم مع أحد الرقيق الذين تركهم الأتراك بسبب مرضهم. جاء الأتراك حسب الموعد بعد أسبوع، لم يكن لدى نائب الملك سوى القليل، اجتمع بهم ومعه القاضي، حاول القاضي شرح الأوضاع الاقتصادية التي تمر بها المملكة لكن المحصل التركي قاطعه: نحن نعرف كل شيء، لست مخوِّلاً للتفاوض معكم هذا ليس من اختصاصي، أنا فقط مرسل لاستلام الضرائب حسب الاتفاق.

قال النائب: الملك لديه ذهب وأموال لا نعرف مكانها، تأخر في العودة وهذا هو سبب المشكلة التي نعانيها.

سال لعاب المحصل التركي لذكر الذهب وقال: كيف لا تعرف مكان الذهب؟ ألسنت نائب الملك أم أن الملك لا يثق بك؟ وكيف ستصبح ملكا إن كان الملك لا يثق بك؟ ألا يفترض أن

يرث الملك في حالة الوفاة شخص يوصي الملك أن يكون خليفته؟
قال النائب وقد استفزته قصة عدم ثقة الملك به وعدم صلاحيته
لخلافته: الملك لديه أناس يشاركونه في أعماله ويخفي عندهم أمواله
من عين الغرباء!

قال المحصل التركي: من تقصد بالغرباء؟ نحن نعمل مع
خليفة المسلمين.

قال النائب: لم أفصدك بالغرباء! أفصد إنه لا يجب أن يعرف
الناس كيف يدير أملاكه!

قال المحصل التركي: ومن هم هؤلاء الناس الذين يثق فيهم
الملك ويخفي ثرواته معهم؟

أشار النائب إلى الجزيرة التي تقع قبالة القصر، رجل اسمه دفع
الله هو الذي يعرف كل شيء لكنه رفض التعاون معي.

تحرك المحصل التركي ومعه ثلة من الجنود نحو الجزيرة فوراً،
انتظروا بعض الوقت على الشاطئ حتى وصل المركب الشراعي
الذي كان ينقل بعض الناس والمحاصيل إلى الضفة الأخرى.

حاصر الجند بيت دفع الله ومزرعته، أمر المحصل التركي
بالقبض عليه وعلى أسرته، أحضروا جميعاً مقيدين بالحبال، دفع
الله وبناته الثلاث وحفيده الصغير.

خاطبه المحصل التركي بفظاظة: أين ذهب الملك؟

قال دفع الله: الملك لا يحتفظ عندي بأي ذهب، لديه محاصيل

عندي وقد سلمتها كلها لئائب الملك .

كانت بنات دفع الله يجلسن أرضا وبجانبهن ساتي الصغير ابن التومة، وقد شلّهن الرعب فلم يصدر عنهن أي صوت، قال المحصل: يقول نائيب الملك إنك تخفي ذهب الملك وأمواله!

قال دفع الله: يمنكم تفتيش المكان ليس هنا سوى بعض القطن والتمور!

نادى المحصل التركي بعض جنوده، قام الجند بتفتيش البيت والمخازن دون أن يعثروا على أي شيء أكثر مما ذكر دفع الله، أسرّ المحصل التركي لأحد الجنود بشيء، فقام الجنود بنصب مشنقة على أعواد الشجر، لم يستغرق ذلك وقتا طويلا، يبدو أنهم معتادون على ذلك العمل.

أشار المحصل للجنود فانتزعوا الطفل من أحضان فاطمة، حاول دفع الله أن يقاوم، ضربه أحد الجنود على وجهه بمؤخرة البندقية فسقط أرضا، ارتفع صوت عويل البنات الثلاث، فضربهن الجند بالعصي، ربط أحد الجنود الحبل في عنق الصبي، ورفعه أحدهم فوق جذع شجرة.

خاطب المحصل التركي دفع الله: أرجو أن نخبرنا بسرعة أين نجد الذهب، وإلا بدأنا بإعدام الصبي ثم سيأتي الدّور على بناتك ثم عليك أنت.

توسّل دفع الله الذي كان وجهه وشعره مغطى بالتراب وعيناه جاحظتان من الرعب: اشنقني أنا واطرك الصبي والبنات، هؤلاء

لا ذنب لهم!

قال التركي: إذا شنتك أولاً من سيدلنا على مكان الذهب؟

تجمع بعض الناس من الجيران وسكان الضفة الأخرى الذين جذبتهم الضجة وأصوات الجنود، تعالى صراخ أحد الجيران، إنّ إعدام الصبي حرام شرعاً! لا يمكن أن يقوم بذلك جنود خليفة المسلمين!

أمر التركي جنوده فأطلقوا النار في الهواء فهرب معظم الناس الذين تجمعوا، قال المحصل التركي سأحسب على أصابع كفي حتى الرقم عشرة، إن لم تدلنا على مكان الذهب يموت الصبي! حين وصل التركي إلى الرقم سبعة سقط دفع الله أرضاً، فحصه أحد الجنود وأعلن: لقد مات يا سيدي.

كان الناس قد تجمعوا مرة أخرى، وحين ارتفع صوت الجندي معلنا موت دفع الله، انطلقت الجموع فجأة مكتسحة المكان، فتح الجنود النار عليهم، فسقط أحد المهاجمين أرضاً، تمكن أحد المزارعين من انتزاع بندقية أحد الجنود وأطلق النار باتجاه المحصل التركي الذي لاذ بالفرار واختبأ خلف جنوده، أصاب الرصاص أحد الجنود فسقط صريعاً لكن الجنود تمكنوا من قنص الرجل.

تساءل التركي وهو ينفض الغبار عن جسده: أين تعلم هذا المزارع ضرب النار؟

قال أحد الجنود: للملك جنود مدربون لا بدّ أنه واحد منهم، يقال إن نائب الملك عجز عن دفع روايتهم وقام بتسريحهم! أمر

التركي بتفتيش المكان جيدا بحثا عن الذهب، ومصادرة أية محاصيل أو أشياء قيمة يعثر عليها في المكان، وأسر البنات الثلاث والصبي الصغير لبيعهم كرقيق.

قام الجنود بتحطيم كل شيء قابلهم في البيت، حفروا الأرض بحثا عن مطامير الذرة وعن الذهب، ودمروا معدات غزل القطن والنول الكبير الذي يستخدم لنسج القماش، حطموا القواسيب التي يحتفظ فيها دفع الله بمحصول التمر، وصادروا المحاصيل التي عثروا عليها في المخزن، صادروا الأبقار والثيران التي تستخدم لسحب ساقية الماء ودمروا الساقية وأشعلوا فيها النار، أضرمو النار في البيت نفسه وهدموا برج الحمام وخربوا المزروعات حول البيت.

ثم سحبوا الأسرى مربوطين في الحبال وحملوا معهم جثة الجندي الذي قتل، وتركوا جثة دفع الله وجثتي المزارع والجار اللذين قُتلا أثناء محاولتهم الدفاع عن الأسرة المنكوبة، ملقاة في العراء.

الموت الذي هرب منه دفع الله قبل حوالي أربعة عقود في مجزرة المَتمّة، طارده بصبر حتى نال منه.

(19)

فوجئ بادي ونوري بالأترك يحاصرون دون سابق إنذار
بيتهم. وجود الأترك في المنطقة ليس غريبا، هم دائما موجودون
بسبب الذهب، معظمهم يرافقون بعض البعثات التي تحضر
للتقيب باستخدام بعض التقنيات الجديدة التي ظهرت في أوروبا.

فكر بادي بسرعة، هل يكون أحدهم قد اكتشف أنها عثرا على
كنز الخواجة الأسود برغم كل احتياطاتها وحذرهما؟ لحسن الحظ
أنها لم يستخرجا الذهب من الأرض، بالفعل قام الجنود بتفتيش
المكان بدقة. قال الضابط التركي: من أنتم وماذا تفعلان هنا؟

شرح له بادي أنها جاءا من الشمال بحثا عن الذهب، قاطعه
التركي: وهل عثرتما على شيء؟

أوضح له بادي: عثرتنا على ذرات قليلة نبيعها باستمرار لشراء
غذائنا! وقد اضطررنا لزراعة الذرة والسهم هنا، وأشار إلى
مكان الزراعة، حتى يوفر بعض ما نصرف من أجل شراء الذرة،
ونعوض عدم عثورتنا على الذهب، وربما نحاول في موسم المطر
القادم أن نزرع مساحة أكبر وقد نتوقف عن البحث عن الذهب
لأن ما نكسبه من الزراعة حسب تجربتنا هذا العام رغم صغر
المساحة التي زرعتها، سيكون أكثر مما نجنيه من عمل الذهب
الشاق.

بدا كأن التركي اقتنع بما قال بادي، بعثاتهم التي تعمل ليل نهار

لم يكن حظها أفضل، كما أن بقايا الأرض المزروعة في الفناء كانت توحى بأنّ بادي صادق في ما يقول.

قال التركي: هل رأيتهما أي أشخاص يمرون من هنا؟

أوضح له بادي: لم نكن في البيت طوال النهار فلم نلاحظ شيئاً! اعتقد بادي أن الأمر يتعلق بقطاع طرق، فسأل: هل سُرقت منكم شيء؟

أوضح الضابط التركي: حضرنا لحراسة مجموعة من الخبراء الإيطاليين، يقومون بتشيد معمل لتنقية الذهب، كان معنا عدد كبير من الرقيق، أرسلنا عدداً منهم لجمع عينات من التربة بناء على طلب الخبراء لفحصها لكنهم لم يعودوا مرة أخرى، كنا نظن أنهم ضلوا الطريق لكن يبدو أنهم لا ذوا بالفرار، سنواصل البحث عنهم الآن قبل أن يختفوا في بلاد الحبشة، إن رأيتهما أياً منهم رجاء أن تبلغونا، نحن موجودون في الجبل.

كأن الضابط بقوله ذلك أصدر أمراً للجنود، فقد تجمعوا كلهم وبدأوا في ركوب حميرهم وبغالهم وخيولهم، قبل أن ينطلقوا باتجاه الجبل.

تنفّس بادي ونوري الصعداء، قال نوري: لولا عجلتهم لحفروا الأرض هنا!

كانت الشمس قد بدأت تميل للمغرب، بدأ فوراً في جمع حاجياتها وربطها على الحمير، وضعاً كل الذرة التي تبقت معها فوق قطع الذهب، وانطلقا في رحلتها. كان الليل كأنه يتبعهما، ما

إن يعبروا نقطة ما حتى يملأها الليل، ابتلع الليل مثل غول كل شيء من حولهما، رأيا قمة الجبل تغرق ببطء في طوفان الليل، قبل أن تبدأ النجوم في الظهور ببطء على صفحة السماء، اتجها غربا، أمامهما مسيرة عدة أيام قبل الوصول إلى سِنْجَة. حاولا الابتعاد بقدر الإمكان عن طرق القوافل، لا يزال موسم صيد الرقيق في أوجه، يسيران طوال الليل ويتوقفان نهارا في المناطق المكشوفة، حيث لا توجد غابات يمكنهما التستر من خلفها، رأيا عدة مرات مجموعات من الجنود والضباط الأتراك تعبر جنوبا أو شرقا، كانا يرتاحان قليلا، غالبا نهارا، ويواصلان السفر ليلا، لحسن الحظ كان ما معهما من مواد غذائية كافيا لكنه بدأ يتناقص مع قربهما من سِنْجَة، لم تكن لديهما نية للتوقف في سِنْجَة خوفا من الاصطدام بأي مجموعة تابعة للإدارة التركية. اشترى من سوق المدينة مزيدا من الذرة والتمر، نفذ ما بحوزتهما من نقود، كانت خطتهما أن يبيعا بعض الذهب لحاج النمر، هو الوحيد الذي يثقان فيه، إن حاولا بيع بعض الذهب في أي مكان سيكون جنود السُّلطة وقطاع الطرق في أثرهم بعد لحظات. لذلك كان عليهما مضاعفة الجهد لمحاولة الوصول إلى المسَلِّمية دون أن يضطرا إلى محاولة بيع بعض قطع الذهب. اتفق بادي مع نوري أن يتركا أيضا جزءا من الذهب مع حاج النمر حتى إن صودر ما معهما من ذهب في الطريق، تكون قد بقيت لهما بعض قطع الذهب مع حاج النمر.

وصلا إلى سِنَّار بعد مسيرة يومين، تجنبا للدخول إلى المدينة وواصلوا السير إلى مدني، يبدو أن حملات الجند المتجهة جنوبا في موسم صيد الرقيق لم تتوقف برغم قرب موسم المطر، فقد رأيا

من على البعد أعدادا من الجند تتجه جنوبا، قال نوري إن بعضهم يعملون أيضا في جمع الضرائب وهناك حملات لإخضاع بعض القبائل المتمردة على السلطة.

استغرق وصولهما إلى مدني أسبوعا، الطريق بين سنار ومدني يعج بالقوافل والجنود، كانا يسيران تقريبا فقط ليلا، ويخلدان للراحة نهارا، وجداها فرصة للراحة وإعطاء الحمير أيضا فرصة لتسترد قواها، يقضيان النهار بجانب النيل الأزرق يغتسلان ويغسلان ملابسهما ويتركان الحمارين للرعي في الحشائش الكثيفة بجانب شاطئ النيل الأزرق.

حاولا الحصول من الغابات القريبة على بعض الثمار التي تعينهما في غذائهما، حتى لا يضطرا إلى بيع الذهب، واقتريا من القرى أحيانا حتى يتمكننا من تناول بعض الطعام مع الطلاب في الخلاوي المنتشرة في المنطقة.

أصيبا مرة بالإسهال حين أكلا من ثمار نبتة عثرا عليها تنمو بغزارة بجانب النيل الأزرق، عثرا على شجرة ليمون في إحدى المزارع القريبة من النهر، شربا من مغلي الحرجل وأكلا من ثمار الليمون الحامضة فشعرا بالتحسن وواصلوا رحلتها.

عبرا بجانب مدني دون أن يدخلنا إلى المدينة، شاهدا من على البعد بعض مباني ثكنات الجيش التركي، بعد ثلاثة أيام وصلا منهكين وجائعين إلى المسلمية. لحسن الحظ وصلا ليلا فلم يلفتنا نظر أي إنسان في المدينة التي فقدت كثيرا من أهميتها بعد انتعاش الخرطوم كمركز تجاري.

استقبلهما حاج النمر وولده إسماعيل وعبدالله استقبالا حارا،
أعدّوا لهما العشاء من لحم الضأن والأرز، أكلا حتى شبعا للمرة
الأولى منذ أن غادرا بيت الخواجة الأسود في سفح جبل الذهب.

حكى له بادي كل ما حدث لهما منذ أن فارقه قبل حوالي
العامين، ابتهج حاج النمر كثيرا لنجاحهما في الحصول على ذهب
يعوّض تعبهما، أخبراه أنهما ينويان بعد لمّ شمل أسرتهما، أن يحضّرا
للعمل معه في التجارة ويستقرا في المسلمية وربما يعودان من وقت
لآخر إلى جبل الذهب، فقد أحبا المكان هناك ولديها صديق يودان
التواصل معه كلما سنحت لهما الفرصة.

كانا يريدان ترك نصف كمية الذهب مع حاج النمر، نصحتها
الرجل: الخرطوم ليست بعيدة من هنا، خذا كمية أقلّ في المرة
الأولى، حتى لو وقع شيء لا تخسران كثيرا. وافقا على كلامه وتركنا
معظم الذهب ليقوم بحفظه، أخفاه حاج النمر بحرص في حفرة
داخل البيت، أعطاهما كل ما قد يحتاجان إليه من مال، وأرجأ
الحصول على مقابل من الذهب لحين عودتهما. بدأ في اليوم الثالث
رحلتها إلى الخرطوم.

سارا بحذر بعيدا قليلا عن القرى وعن النيل الأزرق، عبرا
بجانب معمل عصر القصب ومزارع القصب التي عملا فيها لفترة
قبل رحلتها إلى جبال الذهب. كان المزارعون يستعدون لموسم
المطر الوشيك. بجانب إحدى القرى على مشارف الخرطوم ارتكبا
خطأ جسيما. كانا قد التقيا صدفة، أثناء توقفهما للأكل ونيل قسط
من الراحة في مسيد إحدى الطرق الصوفية، بقافلة صغيرة من

تجار الإبل وتجار الصمغ متجهة إلى الخرطوم، رافقا القافلة اعتقادا منهما أنهما يمكن أن يمرا معها دون مشاكل في نقاط التفتيش قرب الخرطوم. لسوء حظهما يبدو أن السلطات كانت في انتظار تلك القافلة، التي كان من ضمن التجار القادمين معها بعض المطلوبين بسبب تهريبهم من دفع الضرائب، قاموا بتفتيش القافلة تفتيشا شديدا وصودرت الجمال والصمغ والجلود وريش النعام، تعرّض بادي ونوري أيضا لتفتيش دقيق، أمر وهما أثناء التفتيش بخلع كل ملبسهما، عثروا على قطع الذهب، تصايح الجنود فرحين حين عثروا على الذهب، صادروا كل شيء حتى الحمارين واعتقلا بادي ونوري مع أفراد القافلة ونقلوهما إلى سجن في الخرطوم، بقيا في السجن مع أفراد القافلة عدة أيام، يبدو أن أحد الجنود تعرّف على نوري فتم نقله وتسليمه إلى التاجر التركي.

بعد نقل نوري من السجن بقي بادي عدة أيام لا يعرف كيف يتصرف. يقتله القلق على نوري، لحسن الحظ يبدو أن تجار القافلة يعرفون كيف يتعاملون مع إدارة السجن، فقد اتفقوا مع أحد الجنود على أن يدفعوا له مبلغا كبيرا من المال مجرد عودتهم إلى بيوتهم، إن ساعدتهم على الخروج من السجن، لكن الجندي تلكأ وطلب منهم تسليمه المال قبل خروجهم، قال له أحد التجار: لقد صادروا كل شيء معنا كيف سندفع لك؟ إن كنت لا تثق فينا يمكنك الذهاب إلى بيتي أو دكاني في السوق، وسأرسل لابني لكي يعطيك المال، وافق الرجل في النهاية، وبطريقة ما نجح في إطلاق سراحهم، طلبوا منه أن يطلق سراح بادي معهم باعتباره واحدا منهم، فوافق الرجل.

وجد بادي نفسه حرا أخيرا، استضافه التاجر الكريم الذي أطلق سراحه في بيته، ذهب بادي في اليوم التالي لبحث عن نوري، خاف إن ذهب إلى البيت أن يطارده التاجر التركي فذهب إلى السوق، وجد واحدا فقط من زملاء نوري القدامى لا يزال يعمل في الحانوت، سأل عن نوري: أطرق هاشم بحزن وحكى له أن نوري مريض جدا، دهش بادي وقال بقلق: تركته قبل أيام وكان بصحة جيدة ما الذي حدث؟ أوضح له الشاب أن التاجر التركي كان غاضبا جدا بسبب هرب نوري، وأنه بحث عنه كثيرا طوال الفترة الماضية ورصد مكافأة لمن يقبض عليه أو يدل على مكانه، قال إن الجندي التركي الذي أحضره كان على علم بالمكافأة الكبيرة، لذلك سلّمه بنفسه لسيده، قام التركي بتعذيبه بضراوة، وكان قد علم أن نوري لديه علاقة غرامية مع البنت الحبشية، فقرّر إخصاءه، أرسل لطبيب قبرصي يطلب الأدوات التي تستخدم في الإخصاء، حدّره الطبيب من خطورة العملية وأن معظم ضحاياها يلقون حتفهم، لكنه أرسل له الأدوات. أجبر التاجر التركي عددا من الرقيق على إمساك نوري وربطه بالحبال إلى عمودين من الخشب، ثم قام بقطع أعضائه التناسلية بدون رحمة ودون أن يهتز لصراخ نوري الذي يمزّق القلوب.

شعر بادي برأسه يدور حتى أنه جلس أرضا، كان أول ما فكر فيه أن يقوم بمحاولة إنقاذ نوري بأي ثمن، طلب من هاشم أن يجمعه بالتاجر التركي فورا حتى يتفاهم معه على شراء حرية نوري، تركه هاشم في الحانوت وذهب إلى الحانوت الآخر الذي يملكه التركي ويجلس فيه مع أحد عبيده، جاء التاجر التركي،

وحين وجد بادي تحدث معه بفضاظة، يبدو أنه كان يتوقع تاجرا أو سيدا يريد شراء نوري منه، أو ضح له بادي أنه يملك ذهبا وعلى استعداد لدفع الثمن الذي يطلبه لقاء حرية نوري. طلب التاجر التركي كيلوغرامين من الذهب، كان ذلك مبلغا طائلا يستحيل أن يطلبه أحدهم ثمنا لعبد، وافق بادي فورا طالبا فقط مهلة للسفر إلى مدني لإحضار الذهب، لم يذكر المسلمية حتى لا يدخل حاج النمر في مشاكل إن وصلت أخبار الذهب إلى الأتراك. طلب فقط أن يرى نوري قبل سفره، سمح له التاجر التركي أن يذهب إلى البيت وأرسل معه عددا من رقيقه لحراسة البيت، وجد نوري في حالة سيئة، نرف كثيرا من دمه وكان يهذي بسبب الحمى، بكى حين شاهد بادي وقال بصعوبة: قتلها يا بادي! حين عرف بعد هروبي أنها على علاقة معي، قام بتعذيبها وقتلها، ورمى جثتها في العراء!

كان بادي يغلي حزنا وغضبا، قال لنوري لا تفكر في ذلك، المهم الآن أن تستعيد صحتك ويمكننا أن نقوم بإصلاح كل شيء ومنتقم من هذا المجرم، سأل إن كان يمكن إحضار طبيب لرؤية نوري، قال أحدهم إنه يعرف طبيبا أوروبيا يسكن في بيت قريب، خرج بادي معه بسرعة لإحضار الطبيب، قال له مرافقه: يقال إن هذا الطبيب كان يسيء معاملة الرقيق، لكنه بعد أن مات أحد الرقيق بسبب التعذيب على يديه، تغير فجأة، وأصبح يعامل عبيده معاملة كريمة وأعتق عددا منهم، وافق الرجل على الحضور وأحضر معه بعض المحاليل والعقاقير. قام بتنظيف الجرح الملتهب، وقال إن نوري بسبب النزيف الشديد قد لا يصمد كثيرا، وأنه يجب تغذيته

جيذا حتى يستعيد جسمه بعض قوته، أعطى بادي الشاب بعض المال الذي تبقى معه لشراء بعض اللحم لإعداد الحساء لنوري، واتفق مع الطبيب على العودة مرة أخرى خلال أيام لمعاودة تنظيف الجرح.

كان بادي متعجلا لإحضار الذهب وإنقاذ نوري بسرعة، عاد إلى بيت التاجر الذي كان معه في السجن ليستعير منه همارا للسفر إلى المسلمية، ركب الحمار وتحرك فورا، رفض حتى أن يبقى لفترة وجيزة ليتناول معهم العشاء، قال لهم إن شقيقه محتضر ولا بد أن يتحرك بسرعة. سار قرابة اليومين دون أن يتوقف سوى للحظات قليلة بعد أن هدّه الجوع، توقف في إحدى الخلوي وأكل مع الطلاب ثم غادر بسرعة. حين وصل إلى بيت حاج النمر في المسلمية لم يجده في البيت، حين عرف ولده أن الأمر عاجل، أسرع كل واحد منهما في اتجاه للبحث عن والدهما وإحضاره، أخيرا عاد حاج النمر مسرعا حكي له بادي بسرعة ما حدث له، أخرج حاج النمر الذهب بسرعة وقام بوزن كيلوغرامين، ووضعها في جراب من الجلد، ثم أخرج قطعة أخرى تزن حوالي نصف كيلو كما طلب بادي، لمقابلة احتياجات علاج نوري، أصرّ حاج النمر أن يرافقه في رحلته، حاول بادي إقناعه أن لا داعي لذلك وأنه يعرف أنه مشغول جدا، ويجب أن يبقى مع أسرته لرعاية أطفاله الصغار، لكن حاج النمر أوضح أنه كان ينوي السفر إلى الخرطوم لإنجاز بعض الأعمال، وستكون تلك فرصة ليطمئن على نوري ويرافق بادي، اقتنع بادي بعد أن شرح له حاج النمر أنه يعرف مداخل للخرطوم لا توجد فيها نقاط تفتيش، ويعرف طرقا يمكن أن

تجعلها يستغرقان وقتاً أقل للوصول إلى هناك.

شعر حاج النمر بالأسف لأنه كان قد باع الحصان الذي اشتراه من بادي، أوضح: كان يمكنك ركوب الحصان ويمكنك اختيار حمار قوي لنسير معاً. أحضر إسماعيل بعض الأكل والتمر ووضعت في جراب من الجلد لزيد الطريق للمسافرين.

بدأ رحلتها، وسارا دون توقف إلا في ظهر اليوم التالي، توقفا ليأكلا ويشربا الماء في مسيد بجانب النيل الأزرق، أثناء وجودهما في المسيد، مرّت قافلة كبيرة من الجنود والضباط الأتراك، كان واضحاً أنهم عائدون من موسم صيد الرقيق، فقد كانوا يقودون أعداداً كبيرة من الرقيق المربوطين مع بعضهم بفروع أشجار، أو حبال وعدد كبير من النسوة والأطفال، وكان يحيط بالقافلة عدد أكبر من الجنود، اقترح حاج النمر أن يبقيا في المسيد لبعض الوقت حتى تقطع القافلة أبعد مسافة ممكنة في طريقها إلى الخرطوم، وإلا فقد يتعرضان للمتاعب. ولأنّ قافلة الرقيق تسير ببطء اضطررا لقضاء الليل، كان بادي قلقاً جداً على نوري فلم يستطع النوم طوال الليل، حاول حاج النمر أن يجعله يطمئن ويحاول النوم حتى يتمكن من السفر في اليوم التالي: مادام الطبيب قد زاره فلن تكون هناك مشكلة، كما أن التاجر التركي سيكون أحرص الآن على حياة نوري حتى يضمن الحصول على الذهب.

استأنفا السفر ظهر اليوم التالي، ضاع أكثر من يوم بسبب قافلة الرقيق، استطاع حاج النمر أن يقوده إلى طريق أقصر ودخلا إلى الخرطوم فجر اليوم التالي من منطقة لم يقابلا فيها أية نقاط تفتيش

أو جنود أترك.

حين اقتربا من بيت التاجر التركي، اقترح حاج النمر أن يبقى بعيدا قليلا وأن يترك بادي الذهب معه، ويذهب للتفاهم مع التاجر التركي حتى لا يكون هناك أي مجال للمناورة، قال حاج النمر: أخشى أن يأخذ الذهب ويرفض تسليمك نوري.

حين اقترب نوري من البيت اشتتم على الفور رائحة جسد متعفن، انخلع قلبه من الرعب، بدأ يبحث عن مصدر الرائحة فقد كانت تفوح بقوة من حوله، في خور أمام بيت التاجر التركي، مليء بالأوساخ والحشائش الجافة، في ضوء الصباح الفضي الذي ترافقه أصوات العصافير تستقبل يومها الجديد في الغابة القرية الغارقة في رائحة نوار شجر السنط، رأى بادي شقيق روحه نوري، جثته ملقاة شبه عارية والدم لا يزال متيسرا فوق جروحه، في نفس المكان الذي ألقى فيه التاجر التركي قبل شهر جثة سمراويت حبيبة نوري التي كان مستعدا لبذل روحه فداء لها.

(20)

شعر نائب الملك ببعض الهدوء، لم يعد مسؤولاً أمام المحصّل التركي عن العجز في ضريبة ذلك العام، ربما اكتفى المحصّل بما نهبه من مزرعة وبيت دفع الله، فلم يعد مرة أخرى خلال أيام.

أبلغه القاضي الجديد أن المحصّل التركي غالباً سيعود إليه مرة أخيرة قبل سفره، ومن الأفضل أن يقدم له هدية ما، قطعة ذهب، مجموعة من الخراف، سيتقي شره بذلك ويمكن أن يكون تعامله أفضل في مقبل السنوات بل يمكنه حتى تخفيض قيمة الضريبة المطلوبة.

المشكلة، قال: أنهم ما زالوا يواصلون النهب وقد استولوا على أعداد من الرقيق والمحاصيل، ولا يبدو أنهم ينوون الرحيل بسرعة، أخشى أن ذلك سيُفقد الناس الثقة في قدرة الملك على حمايتهم من الأتراك وغيرهم من الغزاة!

فكّر النائب قليلاً، ثم قال: مجرد أن أصبح ملكاً سوف أعيد إصلاح كل شيء، يمكنني إعادة الجنود، ربما عدداً أقل في البداية وتسليحهم جيداً ليمكنوا من حراسة حدود المملكة، ولا شك في وجودهم سيكون رجال الضرائب الأتراك أكثر حذراً في التعامل مع الناس. وربما يمكنني السفر لمقابلة الحاكم التركي في الخرطوم لتقديم شكوى حول انتهاكات رجالهم بحق مواطنينا!

فجأة قطع أحد الرقيق عليهم حديثهم، أعلن بانفعال: يقولون

إنَّ الملك وصل، وهو في الضفة الأخرى في انتظار المراكب!

صعق نائب الملك وهبَّ من مكانه واقفاً، ودون تفكير صرخ في الرجل: هل جننت؟ من قال لك إن الملك وصل؟ ألا تعلم أنَّ الملك قد مات!

كنتُ في السوق وقد سمعتُ أنَّ الملك وصل منذ الأمس وبقي ليرتاح في أحد البيوت في الضفة الغربية وسيعود إلى القصر اليوم! أمسك القاضي بالنائب وسحبه ليجلس، قال له: أهدأ ودعنا نفكر بهدوء.

قال النائب: فيم نفكر وهل بقي في رأس لأفكر؟ ألم تسمع ما يقول؟

قال القاضي: سمعت! عودة الملك لا تعني أن تفقد الأمل، هل نسيت أنَّ الملك لا وريث له سواك؟ يجب أن تتحلّى بالحكمة للخروج من هذا المأزق!

قال النائب بصبر نافذ: عن أية حكمة تتحدث؟ لو ملكت حكمة سليمان ما خرجت من هذا المأزق! وهل هو مأزق واحد في رأيك؟

قال القاضي: أي خوف أو ارتباك لن يكون في صالحك، كل ما قمت بعمله في السنوات الأخيرة سوف يذهب سدى.

صرخ النائب: وهل بقي شيء لم يذهب سدى؟! ألم تسمع كلامه: قال إنَّ الملك وصل بالأمس وأنا أشكُّ في ذلك، ربما وصل قبل أيام، وطبعا لديه رجاله في الضفة الغربية الذين أبلغوه بكل

شيء، نحن محظوظون أننا أحياء حتى هذه اللحظة!

صرف القاضي الرجل الذي جاء بالخبر، ومضى يحاول تهدئة النائب: بعد كل هذه السنوات، إن رجع الملك فعلا سيكون قد هرم وهده المرص، انظر إلينا في سنوات غياب الملك هذه هرمننا رغم أننا نعاصر البهجة ليل نهار! فما بالك بالملك الذي لا بد أنه رأى في سفره أهوالا، ورأى الموت عدة مرات، وفي النهاية فالرجل لا وريث له غيرك، دعنا فقط نراجع كل ما حدث منذ سفره ونتفق على تبرير مناسب لأي خطأ قد تكون ارتكبه!

ضحك النائب للمرة الأولى: خطأ؟ وهل هو خطأ واحد؟ وهل تعتقد أن الملك سيعتبر وضع السمّ لوليّ عهده مجرد خطأ؟

قال القاضي: ليس هناك دليل واحد يمكن أن يجده الملك يدينك في هذه القضية، سيشهد الناس أنه مات بالحمى!

مجرد أن بعض الناس يقولون ذلك سيكون كافيا للملك لكي يُصدر حكمه عليّ!

قال القاضي حين رأى أن كل محاولاته لتهدئة النائب باءت بالفشل:

لو أنك حكمت عقلك ستفوز في النهاية بكل شيء، قليلا من الصبر والحكمة. دافع عن نفسك أمامه، أنك كنت ضعيفا وهو لم يترك لك شيئا، كانت المواسم الزراعية طوال سنوات فاشلة، لم يستطع معظم المزارعين دفع الضرائب، الأتراك يحملونك وحدك النتيجة ويطلبون منك الإيفاء بكل الضريبة، رغم الموارد القليلة

التي تصلك من ممتلكات الملك ومن ضرائب الأهالي!

إذا استطعت على الأقل أن تجعله فقط يشك أنك بريء يمكنك أن تكسب بعض الوقت، وربما يمكنك أن تعيد نفس قصة وليّ العهد! ألم يبق معك قليل من الدواء الذي سقيته لوليّ العهد؟

تنبّه النائب لما يقصد القاضي بعد فترة وابتسم للمرة الأولى، رغم ثقل المصائب التي شعر بها تحط فوق رأسه، قال: أنت أول قاضٍ يخطط لجريمة اغتيال ملك!

تلقت القاضي حوله بخوف وقال: اخفض صوتك، هل جنت، هل نسيت أننا في قصر الملك؟

وقف النائب فجأة وبدأ يصلح من وضع ثيابه، قال القاضي: هل ستذهب لاستقبال الملك في الضفة الأخرى؟

قال النائب: استقبله؟ استقبل قاتلي؟! سأذهب الآن إلى أي مكان، منذ فترة كنت أفكر في السفر إلى شندي، والآن حان الوقت، هل سترافقني أم أنك صدّقت أنك أصبحت القاضي!

قال القاضي: صدّقني لو حاولت الهروب الآن ستثبت كل التهم على نفسك. وسيتمكّن الملك من إحضارك حتى لو احتميت بالأتراك.

تردد النائب قليلاً بعد كلام القاضي، وقف في مكانه محتاراً، حيرته لم تعمّر كثيراً، فقد سمعوا صوت جلبة وأقدام كثيرة، امتلأ المكان فجأة بالجنود، جنود الملك، دهش النائب وقال: من أين جاء كل هؤلاء بهذه السرعة؟

بعكس ما كان القاضي يعتقد، بدا الملك قويا ومتناسكا، هرع النائب يقبل يده، كان معه القاضي القديم أيضا، وقف الملك يجي من بقي من عمال القصر، وتقاطر الناس من كل حذب وصوب فتحولت الباحة أمام القصر إلى ما يشبه السوق.

حاول النائب أن يتحدث، لكن الملك قال: سيكون هناك وقت لنسمعك. الآن لا وقت! سنذهب مع الجند لنرى ما يحدث في مدينتنا.

حاصر الجند بعض المزارع التي كان الأتراك ينهبونها وذهب البقية لإطلاق سراح الأسرى والرقيق، أمر الملك بإعادة كل ما نهبه الأتراك إلى أصحابه.

قال المحصل التركي: ما يحدث هنا يا صاحب الجلالة لن يسعد الحكومة في الخرطوم.

قال الملك: وما قمت بعمله هنا أيضا لن يسعد حكومتك. لقد مات مواطنون صالحون بسببك ودُمرت أسر ونُهبت ممتلكات لا تخصك. حكومتك يحكمها معنا اتفاق أنت خرقتة عدة مرات، لذلك سأطلب من الحاكم إما محاكمتك محاكمة عادلة أو سيكون الاتفاق بيننا ملغيا. تراجع المحصل التركي إلى الوراء وبدا الخوف في عينيه.

قال له الملك: سأسمح لك أنت وجنودك بالذهاب فقط حتى لا يحدث سوء فهم مع الإدارة التركية، لكنني سأحضر بنفسني أو أرسل من ينوب عني في محاكمتك في الخرطوم.

سحب المحصّل التركي جنوده وغادر المكان فوراً. طلب الملك من عدد من جنوده مرافقة الأتراك للتأكد أنهم غادروا حدود المملكة.

أطلق الجنود سراح الأسرى جميعاً، قرّر الملك أن يستضيف عائلة دفع الله وكل الأسر التي دُمرت بيوتها في القصر حتى يتم إصلاح مساكنهم على نفقة المملكة.

في اليوم التالي استدعي نائب الملك أمام الملك، وجد القاضي القديم وكتب الملك في المجلس، فعرف أنّ الأمور سارت كما توقع تماماً، طلب الملك منه توضيح بعض الأشياء في الفترة التي كان مسؤولاً فيها عن إدارة شؤون المملكة، عرف النائب أنّ تلك لم تكن سوى محاكمة، فقد بدأ القاضي يطرح الأسئلة عن كل شيء، عن الشكوك حول موت الأمير إبراهيم، عن العجز في الضريبة السنوية التي تدفعها المملكة رغم أنّ معظم الأهالي كما هو مثبت في الدفاتر قاموا بتوريد الضريبة في موعدها لمخازن الملك، عن البذخ في الصرف، عن تأجير السجن وبعض أراضي الملك للأتراك، عن إقالة القاضي بصورة غير شرعية، عن تهديده للفقهاء، عن وشايته بدفع الله للأتراك ما أدى لمقتله.

أنكر النائب كل شيء، لكن كانت حججه ضعيفة، لم يستطع إنكار الأشياء المثبتة في الدفاتر فأصبحت حجة أنه لم يجد موارد تكفي سداد ضرائب الأتراك غير مقنعة. قال الملك: لن نستطيع إثبات أنك كنت ضالعا في موت ابني، لكن التجاوزات المالية التي أدت ليستبد بعض الموظفين الأتراك على أهل المملكة، ووقوفك

موقف المتفرج من ذلك، تكفي لنزع أية ثقة منك، ستغادر حدود المملكة، بإمكانك أن تذهب إلى سُندي أو المِتِّمة أو الخرطوم، سنقوم باستثمار الأرض التي تملكها وسنرسل لك سنويا نصيبك من هذه الأرض، لكي تتمكن من تدبير عيشك منه، وإني أمنعك أن تعود مرة أخرى إلى هذه البلاد وإلا اضطررنا لسجنك.

في تلك الأثناء كان بادي في الخرطوم مع حاج النمر، ظل ثلاثة أيام لا يقول شيئاً تحت تأثير صدمة موت نوري بتلك الطريقة البشعة، حين تحدث في اليوم الرابع قال لحاج النمر: أريد شراء بندقية!

حاول حاج النمر أن يجعله ينسى فكرة الانتقام من التاجر التركي، لكن بادي كان مصمماً على ذلك، قال: سيقتل آخرين، إن كنا فشلنا في إنقاذ نوري وسمرأويت وغيرهم من الرقيق التعساء الذين ألقاهم الحظ السيء في طريقه، فيجب ألا نسمح له بقتل المزيد. سأقتله حتى لو كان الثمن أن يتم وضعي على الخازوق، أو إعدامي بالمدفع مثلما فعل هؤلاء الأوغاد مع جمعة!

قال حاج النمر: كما قلت مجرد أوغاد قتلة، لا تساوي روح الإنسان عندهم شيئاً، فلماذا تضيع نفسك من أجلهم!

لن أضيع نفسي من أجلهم، بل من أجل دماء نوري التي ضاعت هدراً، من أجل حقن دماء التعساء الذين سيقضي عليهم يوماً.

صمت بادي قليلا وقال: لن أستطيع بيع الذهب دون أن أثير المشاكل، أرجو أن تقوم ببيع جزء منه للتجار الذين تعرفهم.

اشترى له حاج النمر بندقية، اشتراها لهم أحد أصدقائهم التجار من أحد جنود الأتراك، قال حاج النمر: الجنود يبيعون سلاحهم ويبلِّغون وحداتهم أن السلاح سُرق منهم! الجميع يسرقون فلم لا يسرق الجنود؟

اتفق بادي مع حاج النمر أن يرافقه بعد أن يقتل التاجر التركي إلى المسلمية، ويصبح شريكا معه في التجارة، كان يفكر بمجرد أن يستقر هناك أن يرسل شخصا يثق به لشراء حرية أمه من نائب الملك، سيطلب من الرسول أن يخبر أمه لتقابل والد الزلال وتشرح له ظروفه التي تمنعه من العودة، وتطلب منه أن يسمح للزلال أن ترافقها، وسيقومون بعمل الزواج في المسلمية.

طوال أيام كان بادي يربط أمام بيت التاجر التركي وراء أجمة أشجار السنط التي تحيط بالخور الذي اعتاد التاجر التركي أن يلقي فيه جثث الرقيق الذين يقتلهم، لم يظهر التاجر التركي، خشي بادي أن يكون الرجل سافر في إحدى رحلاته لجلب البضائع من كُرْدُفان، والتي قد تستغرق أشهرًا طويلة، ذهب إلى السوق بعد أيام من الانتظار وزار حانوت التاجر التركي الذي كان نوري يعمل فيه، عرف من هاشم أن التاجر موجود، قال بادي كمن يريد مقابلته لأمر ما، ألا يحضر إلى السوق؟ شرح له هاشم أن التاجر التركي تصيبه أحيانا حالات غريبة يبقى فيها طوال الوقت في البيت، يعاقر الخمر ليلا ونهارا ولا يغادر البيت إلا نادرا.

فكّر بادي: ألا يخرج حتى لقضاء حاجته!

بالفعل، بعد أيام رآه بادي من مكمنه وهو يخرج، تبول واقفا في الخور أمام بيته، أطلق بادي عليه طلقة واحدة أصابته في رجله، سقط أرضا فاعتقد بادي أنه مات وولى هاربا، بقي بادي مختبئا مع حاج النمر في بيت أحد التجار الذي تربطه علاقة قرابة مع حاج النمر، بعد أيام ذهب بادي إلى السوق تجاذب أطراف الحديث مع هاشم ثم سأله: ألا يزال سيدك يعاقر الخمر ولا يذهب إلى السوق؟

حكى له أن التركي أصيب بطلق ناري ربما أطلقه أحدهم بالخطأ وهو يقضي حاجته أمام بيته، أصيب بجرح كبير وكسرت ساقه، وضعها له الطبيب في جبيرة، ويحضر الطبيب يوميا لتنظيف الجرح.

أخفى بادي شعوره بالإحباط لكنه قرر أن يعيد الكرة مرة أخرى بعد أيام، لكن التاجر النمر أفنعه أن يسافرا إلى المسلمية، لأنّ التركي سيستغرق وقتا طويلا حتى تلتئم جروحه وكسر رجله، لن يستطيع الحركة خلالها، وسيكون انتظاره خارج البيت ضربا من تضييع الوقت.

قرّر بادي أن يخفي بندقيته في بيت التاجر قريب حاج النمر، فوجودها معهم أثناء السفر قد يوقعهم في مشاكل، كما أنه كان يريد أن يحاول مرة أخرى قتل التاجر التركي، رغم أنه شعر بأن محاولة القتل وإصابة الرجل وكسر ساقه، جعله يشعر ببعض العزاء أنه انتقم قليلا للضحايا.

ذهبا إلى السوق في اليوم التالي، كان حاج النمر يريد شراء بعض البضائع، لم يكن بادي في البداية راغبا في الذهاب إلى السوق، لكن حاج النمر شجّعه على الذهاب معه حتى يشتري حذاء وملابس جديدة، بدلا من ملابسه البالية وحذائه الممزق، لم يكن بادي مهتما بشيء بعد وفاة نوري، رافق حاج النمر فقط لأنه رأى أن بقاءه وحيدا في البيت سيجعله يتذكر نوري ومنظر الجثة ورائحتها، ذلك المنظر الذي كان يتقلب طوال الليل في فراشه محاولا دون جدوى طرده من ذاكرته، تظل الصور طوال الليل تتقلب في ذاكرته، مثل نار يستحيل إخمادها.

أثناء تجوالهما في السوق سمعا ما بدا انه صوت منادٍ ينادي: نحن نبحث عن الأمير بادي! في البداية حين سمع بادي الصوت لم يخطر في باله أنه هو المقصود، لا بدّ أنهم يقصدون شخصا آخر اسمه بادي، لكنه دهش لمجرد سماع اسمه حتى لو لم يكن هو المقصود بالنداء! دفعه الفضول فقط ليقترّب من المنادي ويراه، رأى رجلا يسير أمام أربعة من الجنود، لم يكونوا من جنود الأتراك، عرف من ملابسه أنهم من جنود الملك! ملك السّاب! دهش بادي ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ هل يحاول نائب الملك أن يصطاده بهذه الحيلة! اقترب منهم أكثر فسمع المنادي يقول بوضوح: ملك السّاب يطلب حضور ابنه الأمير بادي ليراه بعد أن عاد الملك من رحلة الحج! ساعدونا في العثور عليه يا أهل الخير، يقال إنه يعمل في مكان ما هنا في الخرطوم!

خفق قلب بادي واقترب من المنادي دون أن يشعر، صاح أحد

الجنود حين التقت نظراتهما: إنه الأمير بادي! ألا ترون كم يشبه والده الملك؟!

وقف الجنود وانحنوا له مسلمين بحرارة، كان الفرع طاغيا على الجنود، أوضح أحدهم: ظللنا نطوف بالقرى والأسواق منذ أسابيع بحثا عنك، قال لنا الملك إنه سيكافئنا بالذهب إن عثرنا عليك، وإن لم نعثر عليك سيطر لنا من خدمته!

قال لهم بادي إنه سيعود معهم لكنه في البداية يرغب في البحث عن خير السيد والبلال حتى يعودا معه، لكن أحد الجنود شرح له أنّ الملك مريض وأنه طلب منهم أن يعودوا بسرعة، لأنه يريد رؤية بادي لأمر هام، اقترح عليه الجندي أن يعود مرة أخرى بعد أن يقابل والده، للبحث عن خير السيد والبلال.

نادى بادي على حاج النمر وأخبره بكل شيء، شرح له أنه يجب أن يذهب ليطمئن على الملك وعلى أمه وخطيبته، ثم يعود بعد ذلك للبحث عن بقية رفاقه خير السيد والبلال. عرض حاج النمر أن يرافقه، فرح بادي فرحا شديدا فالرجل أصبح بالنسبة له مثل أبيه، قال حاج النمر: هيا بنا سنشتري لك ملابس جديدة أولا، كيف ستقابل الملك بملابسك هذه؟

صمّم حاج النمر أن يختار هو الملابس وأن يدفع ثمنها أيضا، اشترى له عمامة هندية، وجليبا من الحرير وشالا من الدمور وحذاء جميلا مصنوعا من جلد نمر، فبدأ في هيئة أمير، اشترى أيضا بعض التمر والخبز واللحم المجفف للطريق، ثم ذهبوا لأخذ حاجياتهم من بيت التاجر الذي أقاما فيه، قبل أن يغادروا في

طريقهم إلى السّاب. ركب بادي الحصان الذي أحضره له الجنود معهم، تنازل أحد الجنود عن حصانه لحاج النمر واستقل حماره.

كانت رحلة العودة أقلّ مشقة، توقفوا في سوق سُندي وفي سوق بَرَبَر، اشترى بادي هدايا لأمه وللملك وللزال من سوق سُندي، اشترى الخرز وبعض الحلي الذهبية للزال، واشترى لأمه ثوبا هنديا وخاتما من الذهب، ولوالده عمامة من الحرير.

عند وصولهم إلى حدود المملكة انضمّ للقافلة عدد أكبر من الجنود، أسرّ قائد المجموعة بشيء للجنود ثم خاطب بادي قائلاً: يحننا أن نبلغك وفاة والدكم الملك. كان الخبر صادما، شعر بادي كأنه قطع كل تلك المسافة من أجل لا شيء، وقف لبرهة حزينا، لا يعرف ما يفعل، تقدم حاج النمر منه يعزيه، وتقبّل عزاء الجنود، قبل أن يقول بحزن: لا أعتقد أن هناك داعيا الآن لنواصل رحلتنا، خشي أن يكون نائب الملك قد أصبح ملكا، وبالتالي لن يكون مرغوبا في حضوره، لكن الضابط الذي حضر مع فرقة الجنود أعلن: حسب وصية الملك التي يتولى قاضي المملكة تنفيذها، فقد تم اليوم إعلانك ملكا على مملكة السّاب، وسيتم تنصيبك بمجرد وصولك.

أحاطت به الفرقة الجديدة لحراسته، طلب الملك الشاب أن يتوقف في المسيد الذي زاره في رحلة هروبه، للسلام على الشيخ بلال الذي لم ينس أبدا أنه حين وصل إلى المسيد هاربا وخائفا، استقبله كأنه كان في انتظاره رغم أن تلك كانت المرة الأولى التي يراه فيها، مسح على رأسه، كأنه كان يمسح بيد ساحر على جراحاته

القديمة والجديدة. ونصحه بتوخي الحذر في رحلته، رحب به الشيخ بلال بحرارة، وخاطبه بقوله: ألم أقل لك؟ أنت أول ملك أراه يحاول الهروب من قدره، لقد رأيت أئداء أبقار السّاب كلها تحلب في فمك، في اللحظة التي كنت فيها تقطع الطريق قادمًا نحونا في المرة الأولى!.

تقدّم الملك الجديد إلى عاصمة مملكته وسط جنوده، في فوضى الجموع التي هبت لاستقباله، كان الملك يبكي، رأى الشمس وهي تغطس في شفق الصحراء، في الهواء الكثيف العابق برائحة نوار شجر السنط، فتذكر أمسيات الحياة والفرح في تلك القرية النائية عند سفح جبل الذهب، تذكر الخواجة الأسود وهو ينظف أواني الفخار بيده المطلية بماء الذهب، رأى فتاة رائعة الجمال، جسدها تلتف حوله الحبال من قدميها وحتى عنقها، تبدو مثل فراشة في طور الشرنقة، تختلط صورتها في فوضى انعكاسات الشفق والظلال فوق أمواج النهر، الذي كانت الفتاة على وشك أن تُلقي فيه، رأى نوري جالسًا في هدوء الأبد، يتحرّك المزمар فقط بين يديه وهو جامد مثل تمثال، كأنه بدأ رحلة موته منذ اللحظة التي بدأ يعزف فيها على مزمارة الوازا في موسم المطر، في الموسم الذي يجب أن يتسلّم، البلّعادو الوازا، ويعلّقها بحبل إلى السقف حتى لا تبتل الآلة المقدسة وتتلف في موسم المطر.

رأى الجنود العابرين في الطرق البعيدة يتجهون جنوبًا في موسم صيد الرقيق، ورأى الأطفال ينشدون أغانيهم وهم يشاركون ذويهم في مواسم الحصاد الغابرة، رأى عمال الحصاد يغنون في

مزارع القصب على ضفاف النيل الأزرق:

أيو أيو هولن فيبي جيديا غازي دهولنتق.

وانتبه إلى الخيط الرقيق من عزف نوري على مزمار الوازا،
يتسرب مثل خيط من ضوء شمس الصباح، جسرا يعبر أودية
الموت الأكثر نسيانا، ويتجمع خيوطا من اللحن تبدأ تتشكل في
كل شيء من حوله، تختلط بالضوء ونوار شجر السنط، وعبق
شجر الصفصاف الذي ينبت حول شواطئ النهر العجوز، خيوط
ألحان تقتلع من قاع ذاكرته حتى أكثر الذكريات نسيانا في الموت،
تغسل بقايا الجروح القديمة وتُبلسمها بالضوء والنوار، وتدفعها
من جديد في دورة الحياة.

هوامش

الأروتى: الصبي الذي يقوم بمتابعة الثور الذي يسحب الساقية ويحثه على الحركة لتدور الساقية بسرعة.

الرّكوة: إناء صغير مصنوع من الجلد يستخدم لحمل الماء للوضوء.

المُرْحَاكَة: مطحنة يدوية تصنع من الحجر والطين وما زالت تستخدم في بعض مناطق السودان لسحن الذرة وبعض الحبوب الأخرى.

القَطِيَّة: بيت صغير مصنوع من فروع الأشجار والحشائش ينتشر في بعض مناطق السودان خاصة المناطق الممطرة حيث يصعب بناء بيوت من الطين تتحمل قسوة الطبيعة.

أيو أيو هولن فييبي جيديا غازي دهولنق: جزء من أغنية بلغة الانقسنا في منطقة جنوب النيل الأزرق تحكي حوارا بين الشاعر وطائر الجوخ يسأل الشاعر الطائر عن مصير طعام أطفاله.